المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

383

إبداعات عالمية

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

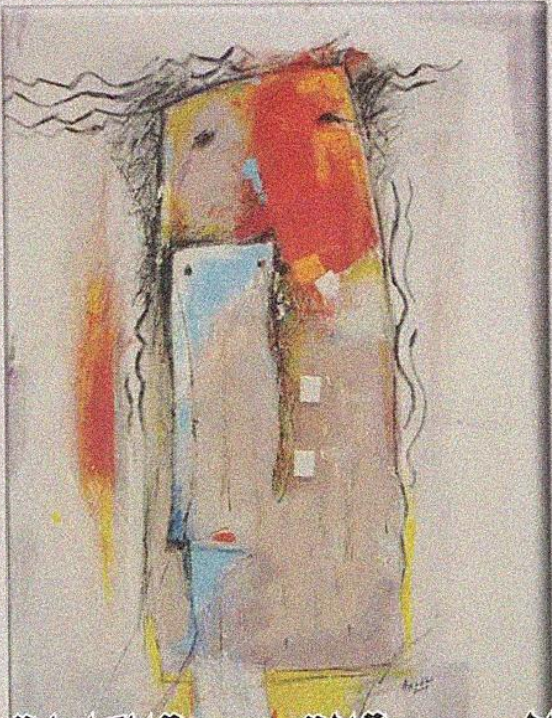

المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي

(الجزء الأول)

ترجمة وتقديم: د. موسى الحالول

مراجعة: د. إسماعيل صافية

صدر هذا العدد بمناسبة
مرور ٥٠ عام على رحيل
الكاتب إرنست همنغواي

أبريل 2010

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي

(الجزء الأول)

تـــألـــيـــف: إرنست همنغواي

ترجمـــة وتقـديم: د. موسى الحالول

مـــراجـــعـــة: د. إسماعيل صافية

• المجموعة القصصية الكاملة
لإرنست همنغواي

العنوان الأصلي:

The Complete Short Stories of
of: ERNEST HEMINGWAY

Scribner Paperack Fiction

Published by simon &Schuster 1987

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2010م

إبداعات عالمية - العدد 383

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)

تنويه

نحيط القارئ الكريم أنه سيتم نشر المجموعة القصصية الكاملة للكاتب / إرنست همنغواي على ثلاث أجزاء.

مقدمة المترجم

همنغواي: أما آن له أن يرتدي الكوفِية والعِقال؟

من بين كل الأعمال التي ترجمتها، تظل «الأعمال القصصية الكاملة لإرنست همنغواي» أول عمل لا أترجمه بمحض اختياري، بل بتكليفٍ من القائمين على سلسلة «إبداعات عالمية» التي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في دولة الكويت. وقد جاء هذا التكليف إثر النجاح الذي لاقته ترجمتي لرائعة ڤلاديمير هلپاتش «حكايات الهنود الأمريكيين وأساطيرهم» (سلسلة إبداعات عالمية، العدد ٣٣٤، ٢٠٠٢). وحتى لحظة ذلك التكليف لم أكن قد قرأت إلا عددا محدودا من قصص همنغواي، إذ إن معرفتي بأدبه تكاد تنحصر في أعماله الروائية لاسيما «الشيخ والبحر» و«وداعا للسلاح»، وهما أشهر روايتين يعرف بهما القارئ العربي همنغواي. أدركت المسؤوليات الجسام التي عليّ أن أتصدى لها بإخلاص وأمانة، فداخلني شيءٌ من الرهبة وأنا أقدِم على ترجمة عملاقٍ من عمالقة الأدب في القرن العشرين. فكل مترجم جادٍ، غير مغامر، لا بد أن يعي مقولة «يطمح كل مؤلفٍ إلى المديح والثناء، أما المترجم فحسبه أن ينجو منِ اللوم». فأردت أن أختبر نفسي، وبدأت

بترجمـة «قطةٌ تحت المطـر» الأثيرة لقلبـي، وهي واحدة من أقصر قصصه، وقد سـبق لي أن درسـتها لطلابي في جامعة العلـوم التطبيقية بالأردن. أردت من هذا الاختبار أن أتحقق من أمرين، الأول: هل سـأتمكن أيضا من نقل تلك السـمات الأسـلوبية فـي القصـة التـي تنسـحب على مجمـل كتابات همنغـواي؟ والثانـي: كيـف سـيكون وقـع مثل هذه السـمات بالعربية؟

جاءت نتيجة الاختبار مرضِية إلى حد يغويني بأن أخطو الخطـوة التالية في مسـيرة الألف ميـل. فأحرقت ورائي كل مراكبـي، وانخرطـت فـي الترجمة بـكل ما أوتيت مـن هِمة. لكـن إبحـاري المبدئي مع همنغواي الـذي دام عامين ونصف العام لم يكن بلا منغصات. إذ سـرعان ما اكتشـفت أن اللغة الإنجليزية لم تكن اللغة الوحيدة التي عليَّ أن أترجم منها، فهنـاك أربـع لغـات أخـرى كان همنغـواي يطعِم بهـا بعض قصصـه، وهي الفرنسـية والإسـبانية والإيطاليـة والألمانية. لم تكن الفرنسـية أو الألمانية تمثل مشـكلة بالنسـبة إليَّ، إذ كان لـديَّ إلمـام متواضـع بكل منهمـا، لكن المشـكلة كانت في الإسـبانية والإيطاليـة، بيـد أنني، والحمد للـه، تغلبت على هذه المنغِصات. لكن العقبات اللغوية لم تكن أكبر التحديات التي واجهتني في عملية الترجمة، إذ إن اللغة هي الوسـيلة التـي يسـتخدمها الكاتب لحكايـة قصة يريـد إيصالها إلى

جمهوره من القراء. وأيا كانت اللغة التي يستخدمها همنغواي لحكاية قصة ما أو جزءٍ منها، فإن العقبة الكبرى بالنسبة إليَّ كانت في محتوى هذه القصص. فبعض الأشياء التي تحتل حيزا عريضا في كتاباته، مثل صيد الأسماك في بحيرة مشيغن، أو صيد الحيوانات البرية في أدغال أفريقيا، أو مصارعة الثيران في إسبانيا التي أفرد لها كتابا بعنوان «موتٌ في الظهيرة» (١٩٣٤)، أو التزلج على الجليد في جبال الألب، أو رهانات الخيول في باريس، أو لعب القمار أو الرياضات بأنواعها في الولايات المتحدة، لم تكن في يوم من الأيام مما لي به معرفة وثيقة، لا من طريق الخبرة الشخصية المباشرة، ولا من خلال المطالعة الأدبية. لذلك وجدت في ترجمة هذه القصص مشقة لا يستهان بها، وكان علي أن أتعلم، على سبيل المثال، مفردات مصارعة الثيران، وكان أغلبها بالإسبانية، أو مصطلحات الرهانات والتزلج على الجليد، وسواها من الأمور التي ليس لديَّ أدنى معرفة بها. أما أسماء المشروبات والمأكولات فحدث عنها ولا حرج. اللافت للانتباه أن ذاكرتي كانت ترفض، فيما يبدو، أن تفسح ولو حيزا صغيرا في خزانتها لهذه المعارف الجديدة، وقد كنت أكتشف ذلك كلما ترجمت قصة أخرى تعالج الموضوع نفسه. لذلك كلما ترجمت قصة جديدة عن موضوع قديم، اكتشفت ضآلة ما اختزنته ذاكرتي من مفردات القصة السابقة، وكأن

أعرابيا عتيدا يقبع متربصا في ذاكرتي، ويقعد لهذه المفردات الطارفة وما تمثله من ثقافة دخيلة كل مقعد.

وأظن أن هذه الأشياء هي التي ثبطت همم المترجمين العرب عن اقتحام هذه العوالم الغريبة عن بيئتنا العربية الصحراوية، وجعلتهم يحجِمون عن إصدار ترجمة كاملة لقصص همنغواي. وأظن كذلك أن هذا ما يفسر المنهج الانتقائي الذي انتهجه كل المترجمين العرب من قبل إزاء أعمال همنغواي إلى درجة أن عملا معينا مثل «الشيخ والبحر» تُرجِم ترجمات عدة، بينما ظلت أعماله الأخرى، بسبب خصوصيتها الثقافية، محجوبة عن أعين قراء العربية إلى وقت قريب جدا. إن صعوبة نقل همنغواي إلى العربية دفعت الصديق الباحث الموسوعي والمترجم العراقي الدكتور علي القاسمي إلى أن يضع في المقدمة التي كتبها لترجمته لرواية «الوليمة المتنقلة» عنوانا فرعيا له دلالته: «متى يرتدي همنغواي الكوفية والعقال؟»، لكن الحق يقال إن روايات همنغواي حظيت من الترجمة إلى العربية بنصيب أكثر بكثير جدا مما حظيت به قصصه، وبعض الروايات تُرجمت أكثر من مرة كما يتضح من خلال بحث سريع على شبكة الإنترنت. أما القصص، على حد علمي، فلا يساوي عدد المترجَم منها إلى العربية سوى نحو النصف من إنتاج همنغواي في هذا المجال. وما يزيد الطين بِلة

هـو أن مـا تُرجِـم له من قصص، علـى ضآلته، جـاء متناثرا ومتفرقـا أيضـا. فنحـن لا نعلم بالضبط متـى تُرجمت أول قصـة لهمنغواي، ولا أين نُشـرت، أو ما هو مجموع القصص المترجمة. وبسـبب سـوء التوزيع في وطننا العربي والافتقار إلـى إمكانـات البحـث المتقدمة، يصعـب علـى الباحث تتبع كل هـذه الترجمات. الأدهى من ذلـك أنه حتى بعض المواقع الإلكترونيـة التي تديرها بعض المكتبات التجارية لا تعطينا من المعلومات الببليوغرافية التي يحتاج إليها الباحث سوى اسـم المؤلف وعنـوان الكتاب المترجـم، أما اسـم المترجِم ودار النشـر ومكانه وتاريخـه ورقم الطبعة فيبـدو أنها تدخل في باب فرض الكفاية.

وقـد نشـرت دار النشـر الأردنيـة ترجمـات للمجموعـات القصصيـة التالية: «فـي زماننا»، و«رجال بلا نسـاء»، و«ثلوج كِلمنجـارو». هـذا مـا ينـص عليـه الغـلاف الخلفـي لرواية «الشـمس تشرق أيضا» التي نشـرتها الدار سنة ١٩٨٩، لذلك إن كان لهـذه الترجمـة التـي نضعهـا بـين أيدي القـراء من فضيلـة فـي ميـزان حسـناتها فهي أنهـا الترجمـة الوحيدة حتـى الآن التـي تقـدم للقـارئ العربـي، وفي إصـدار واحد، كل الأعمـال القصصيـة التي نشـرها همنغواي فـي حياته، أو نشـرها غيـره بعد مماتـه، معتمدين بذلـك على الإصدار النهائـي لهذه القصص الصادر عن دار سـكرِبنر العام ١٩٨٧،

وهذا مما يحسب للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في دولة الكويت الذي يقدم للقارئ العربي خدمات جليلة لا تقدر بثمن. ولولا تكليفي من المجلس بترجمة هذه الأعمال، وقبولي تحمل المسؤولية التي أُلقيت على عاتقي، لما تقحمت هذا الأمر من تلقاء نفسي:

فما أنا إلا من غزية، إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشدِ

ويجب التنبيه في هذا المقام إلى أن الخصوصية الثقافية لبعض قصص همنغواي، هذه الخصوصية التي ربما حالت دون ترجمتها إلى العربية، لا تعني إطلاقا خلو هذه القصص من المضامين الإنسانية التي تستهوي بني البشر بغض النظر عن الحواجز الثقافية. خذ، على سبيل المثال، أي قصة عن صيد الأسماك. قد يتبادر إلى ذهنك لأول برهة أنها قصة سخيفة خالية من أي مضمون، لكنك في القراءة الثانية تكتشف أن رحلة الصيد هذه لم تكن سوى إطارٍ قصصي أراد المؤلف أن يكشف من خلاله جرحا عميق الغور عند بطله، وأن يمجد من خلاله العمل الإنساني، والمثابرة في تحقيق الذات، والإصرار على إرادة الحياة. فأبطال همنغواي عموما يعانون جراحا عميقة مختلفة، لكنهم يحاولون نسيانها أو تجاوزها من خلال الانخراط إما في صيد الأسماك أو الحيوانات البرية أو في مصارعة الثيران أو في التزلج على الجليد أو في سواها من الأنشطة الأخرى. لكن الأسلوب

المعمى المجرد من كل تفصيل أو تزويق هو المسؤول عن أي سوء فهم قد يحصل. وهذا الأسلوب يسميه همنغواي مبدأ جبل الجليد، إذ تعلَّم همنغواي من غيرترود شتاين أن يترك شخوصه يعيشون حياتهم ولا يقول عنهم شيئا، بل يجعل أفعالهم هي التي تشي عن دواخلهم. كما تعلم من الشاعر الأمريكي إزرا پاوند، الذي كان يرا ع له مخطوطاته، أن يجعل أسلوبه أكثر بساطة ويحذف مد كل الكلمات الطنانة. وقد شرح همنغواي نظريته تلك بتشبيه الكتابة الأدبية بجبل الجليد الذي يظهر ثمنه فوق سطح الماء بينما تبقى سبعة أثمانه مغمورة تحته. بمعنى آخر، يستطيع الكاتب - الذي يمتلك معرفة كافية بموضوعه - أن يحذف بعض الأشياء، ويستطيع قارئه أن يدركها كما لو أن الكاتب صرح بها.

إن إدراكي المبكر لهذه السمة الأسلوبية عند همنغواي جعلني، بوصفي كاتبا ثانيا لقصصه، أحرص ما استطعت على نقل لا المعاني فقط بل الأسلوب أيضا، وعلى نحو يجذب القارئ ولا ينفره من همنغواي. وأول شيء فعلته بعد الترجمة هو وضع تاريخ نشر القصة بعد عنوانها كي يتسنى للقارئ وضع القصة المعنية في إطارها الزمني. كما زودت الترجمة بهوامش زادت على ٤٨٠ هامشا شارحا، لعلها تعطي القارئ غير المطلع ما يحتاج إليه لفهم الخلفية التاريخية أو تعرفه بالأسماء التي يرد ذكرها في القصة، عسى أن تسهل

عليه هذه الإضافات عملية الغوص إلى مستويات أعمق من الفهم.

* * *

سمعت غير مرةٍ من بعض الزملاء والمعارف كلاما من قبيل: ولكن أعمال همنغواي مترجمة إلى العربية! فكنت أسأل: ما الأعمال التي قرأتها له بالعربية؟ فكانت الإجابة دائما تتصدرها رواية «الشيخ والبحر» وفي بعض الأحيان «وداعا للسلاح» أو «الشمس تشرق أيضا». فكنت أرد: ولكن أنا أترجم الأعمال القصصية لهمنغواي، وليس الروائية، فكم من هذه القصص قرأت؟ كان أغلب محاوِري يحارون جوابا، وقليلٌ منهم يستطيع أن يتذكر قصتين في أحسن الأحوال، أو في أي مجلةٍ قرأها. كان في إمكاني طبعا أن أحيل عذالي إلى المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في دولة الكويت لعلهم يجدون عنده إجابة تقطع قول كلِ خطيبٍ. ولكن طبيعتي المشاكسة كانت تأبى التهرب من المواجهة وتحمل المسؤولية. جعلتني هذه الأسئلة المشككة أبحث بشكل خاص عن ترجمات «الشيخ والبحر» دون سواها لأنها أكثر عمل حظي باهتمام المترجمين والناشرين العرب. فلما وجدت أن عدد هذه الترجمات كبير نسبيا، تساءلت في نفسي: ألا تستحق الأعمال القصصية الكاملة لهمنغواي، وليس جزءا منها فقط، أيضا أن تُترجم ولو مرة واحدة على

الأقل، لاسيما إذا كان الناشر يمتاز بقدرة توزيع لا تضاهى في كل الوطن العربي؟

لكني وجدت عزاء كبيرا وحجة دامغة للرد على عذالي في آخر ترجمة عربية صدرت لرواية «الشيخ والبحر» عن منشورات الزمان في الرباط سنة ٢٠٠٨، وجدت ذلك في مستهل المقدمة الوافية التي صدَّر بها الدكتور علي القاسمي ترجمته لرائعة همنغواي المذكورة، وهي بعنوان «في إعادة ترجمة الأعمال الأدبية المترجمة». وقد أرسل لي مشكورا نسخة من هذه المقدمة بالبريد الإلكتروني. يروي القاسمي للقراء كيف أن صديقا له عزيزا سأله أيضا عن جدوى ترجمةِ عمل يعلم أنه نُقِل إلى العربية مرات عدة منذ أكثر من نصف قرن. والإجابات التي يسوقها القاسمي في تسويغه لإعادة ترجمة هذا العمل الأكثر شهرة من بين كل أعمال همنغواي المترجمة إلى العربية تبين بما لا يدع مجالا للشك ضرورة إعادة ترجمة الروائع الأدبية من حينٍ إلى آخر. فمن الموجِبات الموضوعية التي تحتم ضرورة إعادة ترجمة عيون الأدب في رأي القاسمي: نفاد الطبعات القديمة من الأسواق وتغير اللغة المترجم إليها وتطورها. لكن عندما نتذكر أنه حتى الآن لم يُترجم سوى ما يقارب النصف من قصص همنغواي وذلك قبل أكثر من عشرين عاما على أقل تقدير (بالنسبة إلى المجموعات القصصية)، وأن ما تُرجِم

بعـد ذلـك جاء متناثـرا ومتفرقـا، فهذا في حد ذاته مسـوغ كاف لنشـر ترجمـة عربيـة كاملـة لكل القصـص التي كتبها همنغواي في إصدار واحد. ومن جهة أخرى، لقد مضى على معظـم هذه الترجمات حينٌ من الدهر جعلها في حاجة إلى تجديد شـبابها عبـر ترجمة جديدة. وفي هـذا المقام لا أجد خيـرا مما قاله القاسـمي، وهـو المعجمي الموسـوعي العارف بأحوال اللغة وتقلباتها، في تلك المقدمة الآنفة الذكر:

> إن علمـاء اللغـة وخبـراء الترجمـة يوصـون بإعـادة ترجمة الأعمـال الأدبية الخالدة بين حقبـة زمنيـة وأخـرى؛ لأن اللغـة فـي تحـول وتغيـر وتطور باسـتمرار. ففي كل يوم، تشـيخ كلمـات وتمـوت كلمـات وتولـد كلمـات. في كل يوم، تكتسـب بعـض الألفاظ معانـي جديدة، أو تسـتعمل فـي تعبيـرات وسـياقات مختلفة عن استعمالاتها السابقة، أو تتلون بظلال من الدلالات المركزية والهامشية، وبالاستعمالات الحقيقيـة والمجازيـة، فتسـمو فـي عيـون الناطقين باللغة أو تتدنى قيمتها في نفوسهم. في كل يوم تقترض اللغة مفرداتٍ جديدة من لغـات صديقـة أو عـدوة، وتسـتوعب مفاهيم جديدة لم تكن مألوفة لأهلها. والأساليب، هي

الأخرى، في تغير وتطور متواصلين. فأسلوب السجع المرصع بالمحسنات البديعية والموشّى بالكلمات الحوشية النادرة، الذي كان يعتبر في وقت من الأوقات قمة البلاغة ومنتهاها، لم يعد اليوم ملائما لروح عصر السرعة الذي يتطلّب الكلمة الرشيقة، والعبارة القصيرة، والنقلة الخفيفة.

وللمفاضلة بين مُنجَزِ مترجم ومترجم آخر يعقد القاسمي مقارنة بين المترجم والممثل، وهي مقارنة حصيفة جديرة باقتباسها كاملة:

المترجم وسيطٌ بين مؤلف أجنبي وقارئ وطني، وسيطٌ بين لغة الأصل المرسلة ولغة الترجمة المتلقية، وسيطٌ بين الثقافة التي كتب فيها النص والثقافة التي نُقل إليها النص. ويتوقف نجاح الترجمة على كيفية أداء هذا الوسيط لدوره وإتقانه له. ويعتمد تفوق المترجم على تمكنه من اللغتين، وإلمامه بالثقافتين، ومعرفته لموضوع النص، وإدراكه لأسلوب المؤلف وتقنياته. المترجم كالممثل تماما. فالممثل، كذلك، وسيطٌ بين كاتب النص المسرحي أو السينمائي والجمهور الذي

يشاهده على المسرح أو في السينما. ولهذا، يمكن أن تمثل المسرحية نفسها مرتين من قبل فرقتين متباينتين في آنٍ واحد، ويستطيع الجمهور أن يدرك الفرق في أداء الممثلين لأدوارهم. والممثل الناجح هو الذي يستطيع أن يترجِم روح النص للجمهور فيؤثر فيه، ويهب النص حياة جديدة، ويضفي عليه ألوانا خلابة، فيمنحه متعة أكبر، فيتجاوب الجمهور معه بشكل أفضل؛ لأن معنى النص المسرحي لا ينبني على ما يقوله الممثل فقط، بل كذلك على كيف يقول ما يقول. وكيفية القول هذه يمكن أن تغير المعنى تماما إلى ضده. ألم تر أن شخصا يقول لك «السلام عليكم» فلا ترد عليه؟

من جهة أخرى، لا ضير إطلاقا في صدور أكثر من ترجمة حتى في الوقت ذاته للعمل الواحد، لأن تعدد الترجمات قد يُرضي الأذواق المختلفة للقراء. فعلى سبيل المثال، تُرجمت أعمال شكسبير الكاملة إلى الألمانية عشرين ترجمة مختلفة خلال قرنين، أي بمعدل ترجمة واحدة كل عقد من الزمن. أما مسرحية «الملك لير» بالذات فقد تُرجمت على الأقل سبعا وثلاثين ترجمة خلال الفترة نفسها، أي بمعدل

ترجمة واحدة كل خمس سنوات تقريبا. لكن قضية المعدل هذه قضية إحصائية خادعة قد تطمس الحقائق، حيث إنه ظهرت في بعض الأحيان ثلاث ترجمات لتلك المسرحية في سنة واحدة، وأربع عشرة ترجمة خلال تسع عشرة سنة! ومن الثابت أيضا أن توافر ترجمات متعددة لأعمال شكسبير بالألمانية جعل ١٧٨ فرقة مسرحية ألمانية خلال موسم ١٩١١-١٩١٢ تقدم ٤١٣ عرضا مسرحيا لمسرحيات شكسبير. إن تدفق الترجمات الألمانية لأعمال شكسبير جعله واحدا من الألمان Auch er [Shakespeare] ist unser، كما تقول قصيدة ألمانية نشرت سنة ١٨٦٤، أي في السنة التي تأسست فيها جمعية شكسبير الألمانية. لذلك ليس غريبا أن يُلقي الكاتب المسرحي الألماني غيرهارت هاوبتمن خطابا بعنوان «ألمانيا وشكسبير» أمام جمعية شكسبير الألمانية في ڤايمار في أبريل ١٩١٥ (أي والحرب دائرة بين الألمان والإنجليز) يقول في خاتمته وبكل افتخار: «لا يوجد شعب، بما في ذلك الإنجليز، يستحق شكسبير كالشعب الألماني. لقد أصبحت شخصيات شكسبير جزءا من عالمنا، واتحدت روحه مع روحنا. فإن كان ولد ودفن في إنجلترا، فإنه يعيش حقا في ألمانيا»(*). فما يضيرنا نحن أن نصدر الترجمة

(*) Ken Larson, «Did Shakespeare Really Write in German? Or: How the Bard Became ein Klassiker.» Retrieved July 28, 2009 from: www.aurora.wells.edu/~klarson/papers/facclub1.htm

الأولى لكل قصص همنغواي؟ أما آن لهذا الكاتب العالمي أن يرتدي الكوفية والعقال مثلنا، وينطق بلساننا، ويأكل طعامنا، ويمشي في أسواقنا؟

* * *

ولد إرنست ملِر همنغواي في أوك پارك، إحدى ضواحي شيكاغو في ولاية إلينوي سنة ١٨٩٩ لأبوين هما: كليرنس إدموندز همنغواي، وهو طبيب، وغريس هول، وكانت مدرِّسة موسيقى قبل زواجها. تعلم إرنست من أبيه حب الحياة البرية، أما أمه فلم يستطع أن يغفر لها إلباسها إياه ثياب فتاةٍ عندما كان صغيرا.

نشر همنغواي أولى قصصه وقصائده في صحيفة المدرسة الثانوية التي كان يرتادها، وبعد تخرجه العام ١٩١٧، عمل لمدة ستة أشهر مراسلا صحافيا لصحيفة كانزس سِتِي ستار. وعلى الرغم من قصر عمله في الصحيفة، فإنه ترك أثرا واضحا في أسلوبه الأدبي، حيث كانت تعليمات الصحيفة تنص على استخدام الجمل والفقرات القصيرة. لكنه ترك عمله الصحافي ليعمل، متطوعا، سائق سيارة إسعاف على الجبهة الإيطالية في الحرب العالمية الأولى، حيث أُصيب إصاباتٍ بالغة في ساقه نال بسببها وسامين من الحكومة الإيطالية. وفي أثناء إقامته في المستشفى وقع في غرام ممرضة أمريكية تدعى آغنِس فون كوروسكي، لكن هذه

القصة انتهت نهاية مأساوية. وقد استقى همنغواي من هذه القصة الحقيقية مادة روايته «وداعا للسلاح» (١٩٢٩) التي تحولت إلى فيلم العام ١٩٣٢.

وبعد انتهاء الحرب، عاد همنغواي إلى شيكاغو واستقبل استقبال الأبطال. وفي سنة ١٩٢٠ انتقل للعيش في مدينة تورونتو الكندية والعمل في صحيفة تورونتو ستار. بعد ذلك بعام، تزوج همنغواي زوجته الأولى هادلي رِتشردسن، وبعدها بأشهر قليلة انتقل إلى باريس، بناء على نصيحة الكاتب الأمريكي شيروود أندرسِن. ثم غطّى الحرب اليونانية - التركية لمصلحة صحيفة تورونتو ستار. شهد همنغواي خلال هذه الحرب إحراق مدينة إزمير وعمليات التهجير التي تركت أثرا كبيرا في عدد من قصصه. وفي باريس تعرَّف همنغواي على غيرترود شتاين التي أصبحت الناصحة المخلصة له، كما عرَّفته على الحركة الحداثية الباريسية التي كانت رائجة في حي مونپارناس. وسرعان ما أصبح همنغواي عضوا في حلقة كتَّاب المهجر الأمريكان الذين أطلقت عليهم غيرترود شتاين لقب «الجيل الضائع»، وهو لقب روج له همنغواي في روايته «الشمس تشرق أيضا» وفي روايته السِّيرية «وليمة متنقلة». وكذلك تولى همنغواي برعايته ونصحه الشاعر الأمريكي إزرا پاوند. وفي باريس نشر همنغواي كتابه الأول «ثلاث قصص وعشر قصائد» (١٩٢٣).

لكن همنغواي أطل على القارئ الأمريكي للمرة الأولى من خلال مجموعته القصصية «في زماننا» (١٩٢٥)، التي أعاد فيها نشر مجموعة من القصص القصيرة جدا أُطلق عليها اسم «تعريشات» (وقد بلغ مجموعها ست عشرة تعريشة وزعها على شكل فواصل بين قصص المجموعة)، والتي كان قد نشرها في باريس العام ١٩٢٤ بالعنوان نفسه. أما روايته الأولى «الشمس تشرق أيضا» فقد نشرها سنة ١٩٢٦، وهي رواية شبه سيرية وقد لاقت نجاحا كبيرا.

طلّق همنغواي زوجته الأولى هادلي رِتشردسن العام ١٩٢٧ وتزوج پولين پفايفر. وفي السنة ذاتها نشر مجموعة قصصية بعنوان «رجال بلا نساء»، وهي من أفضل مجموعاته القصصية على الإطلاق. وبعد ذلك بعام انتقل همنغواي مع زوجته إلى كي وِست في ولاية فلوريدا ليبدأ حياة جديدة. وفي هذه السنة أيضا انتحر والده بسبب داء السكري ومصاعب مالية، فترك هذا الحدث المأساوي أثرا سيئا في نفسيته.

أقام همنغواي بعض الوقت في بيت أهل زوجته الجديدة في ولاية آركنسا، تمكن خلاله من كتابة معظم روايته «وداعا للسلاح» التي نشرت سنة ١٩٢٩، وقد لاقت هذه الرواية من النجاح ما مكنه من الاستقلال المالي. عاد همنغواي سنة ١٩٣١ إلى كي وِست، بناء على نصيحة صديقه الروائي الأمريكي جون دوس پاسس. وفي سنة ١٩٣٢ نشر كتابا بعنوان «موت في

الظهيرة» عن مصارعة الثيران، وهي الرياضة التي استهوت همنغواي إلى درجة أنه فكر في الاحتراف فيها. وفي خريف سنة ١٩٣٣ سافر إلى كينيا، وكان من نتيجة هذه الرحلة مجموعة من القصص ورواية «تلال أفريقيا الخضراء» التي نشرها سنة ١٩٣٥.

وعندما اندلعت الحرب الأهلية الإسبانية سنة ١٩٣٦ سافر همنغواي إلى إسبانيا ليغطي أحداث الحرب لمصلحة اتحاد الصحف في أمريكا الشمالية. انحاز همنغواي إلى جانب الجمهوريين، بينما انحازت زوجته الكاثوليكية إلى جانب الفاشيين بقيادة الجنرال فرانكو. وقد استقى همنغواي من عمله الصحافي خلال الحرب الأهلية الإسبانية مجموعة من القصص، من أهمها «عجوز عند الجسر» وقصة «الوشاية».

وفي سنة ١٩٣٨ نشر همنغواي أضخم مجموعة قصصية له تضم تسعا وأربعين قصة ومسرحيته الوحيدة «الطابور الخامس» في إصدار واحد، مع أن معظم قصص هذه المجموعة قد نشر من قبل في مجموعاته الأربع السابقة: «في زماننا»، «رجال بلا نساء»، «الفائز لا يأخذ شيئا»، «ثلوج كليمنجارو».

عندما انتصر الجنرال فرانكو على الجمهوريين، وانتهت الحرب الأهلية الإسبانية سنة ١٩٣٩، وجد همنغواي نفسه مضطرا إلى مغادرة إسبانيا التي كانت بالنسبة إليه بمنزلة

وطنٍ ثانٍ. وبعد ذلك بأشهر، فقد همنغواي أيضا منزله في كي وست نتيجة طلاقه من پولين پفايفر. وبعد أسابيع من طلاقه، تزوج من رفيقته في أثناء الحرب الإسبانية مارثا غِلهورن، وكان ذلك سنة ١٩٤٠، وفي هذه السنة أيضا نشر روايته «لِمن تقرع الأجراس» عن الحرب الأهلية الإسبانية. وتعد هذه الرواية علامة بارزة في إنتاج همنغواي الأدبي.

في هذه الأثناء، كانت الحرب العالمية الثانية على أشدها في أوروبا، وكانت الولايات المتحدة قد دخلت الحرب في أواخر سنة ١٩٤١، وهنا تطوع همنغواي لمراقبة وإغراق الغواصات الألمانية التي كانت تجوب السواحل الشرقية للولايات المتحدة بالإضافة إلى سواحل البحر الكاريبي. لكنه ما لبث أن شد الرحال إلى أوروبا لتغطية الحرب الدائرة هناك، وكان ارتحاله بتكليف من مجلة كوليرز. وهناك شهد همنغواي إنزال الحلفاء على شاطئ النورماندي، لكنه لم يسمح له بالنزول إلى الشاطئ.

وبعد الحرب شرع همنغواي في كتابة رواية «جنة عدن» لكنه لم يكملها. ولم تنشر إلا بصيغة مختصرة وذلك سنة ١٩٨٦، في هذه الأثناء أيضا بدأ همنغواي يخطط لكتابة ثلاثية روائية ضخمة، لكن هذه الثلاثية لم تكتمل. بل نشر جزءها الثالث تحت عنوان «الشيخ والبحر» (١٩٥٢)، ثم نشرت بعض هذه الأجزاء ضمن رواية تحت عنوان «جزر في المجرى»

(١٩٧٠). كذلك شهدت هذه الفترة طلاقه من مارثا غلهورن وزواجه بزميلته المراسلة الحربية ماري ولش سنة ١٩٤٤، ثم عاد سنة ١٩٤٥ إلى كوبا التي كان قد اتخذها موطنا له منذ سنة ١٩٤٠.

مضت عشر سنوات بعد رواية «لمن تقرع الأجراس» قبل أن ينشر همنغواي رواية أخرى هي «عبر النهر وبين الأشجار» (١٩٥٠) التي تدور أحداثها في مدينة البندقية الإيطالية بعيد الحرب العالمية الثانية. لكن الرواية وكاتبها تعرضا لهجوم عنيف من بعض النقاد ترك جرحا عميقا في نفس همنغواي. لكن همنغواي قرر أن يرد الصاع صاعين إلى منتقديه. ففي سنة ١٩٥٢ نشر رائعته «الشيخ والبحر»، فلاقت من النجاح التجاري والنقدي ما نال رضاه، حيث بيع منها أكثر من خمسة ملايين نسخة في يومين فقط. وفي السنة التالية، نال همنغواي بسببها جائزة پولتسر، وهي أرفع جائزة أمريكية أدبية، كما منحته الأكاديمية الأمريكية للآداب ميدالية الاستحقاق للرواية. وفي سنة ١٩٥٤ نال جائزة نوبل للآداب لإتقانه فن السرد، الذي برهن عليه أخيرا في «الشيخ والبحر» وللتأثير الذي مارسه في الأسلوب المعاصر... «كما جاء في قرار لجنة جائزة نوبل».

تروي «الشيخ والبحر» حكاية صياد كوبي مسن يدعى سانتياغو الذي يظل مدة أربعة وثمانين يوما لم يتمكن فيها

من اصطياد سمكة واحدة، فيصبح هدفا لسخرية زملائه الصيادين أو شفقتهم، في أحسن الأحوال. لكنه لم يستسلم، وفي اليوم الخامس والثمانين علقت صنارته بسمكة هائلة، وظل يصارعها طوال يومين قبل أن يتمكن من قطرها إلى الشاطئ. بيد أن أسماك القرش راحت تنهش سمكته ولم تبقِ له منها سوى هيكلها العظمي. لكنه يسمو بنفسه عن اليأس ونظرات المشفقين. وهي بلا شك حكاية ذات دلالات رمزية أراد همنغواي من خلالها أن يرد على منتقديه الذين شبههم بأسماك القرش الضارية، ويؤكد لهم أنه لم يعجز تماما عن الإبداع، وأنه لن تخور عزيمته على الرغم من النكسات.

وقد جاء القدر بعد ذلك ليثبت صدق عزيمته على الحياة أيضا، وهو الذي شهد حروبا كثيرة من قبل وقد كتبت له النجاة منها جميعا. ففي إحدى رحلاته إلى أفريقيا، أصيب همنغواي إصابات بالغة في تحطم طائرتين في حادثين متواليين. ومن هذه الإصابات: التواء في كتفه وذراعه اليمنيين وساقه اليسرى، ارتجاج خطِر في المخ، فقدان مؤقت للرؤية في عينه اليسرى وللسمع في أذنه اليسرى، شلل في العمود الفقري، تحطم في الفقرات، تهتك في الكبد والطحال والكلية، حروق من الدرجة الأولى في وجهه وذراعيه وساقه. وقد نعته بعض الصحف الأمريكية

ظنـا منها أنه قـد قضى في أحد هذين الحادثين. وبعد ذلك بشهر، يتعرض مرة أخرى لحروق من الدرجة الثانية نتيجة حريـق في أحد الأدغـال، فتحترق سـاقاه، وجذعه الأمامي، ويده اليسـرى وساعده الأيمن. وبسـبب هذه الإصابات المؤلمة لم يتمكن همنغواي من السفر إلى ستوكهولم لتسلّم جائزة نوبل. لم يتمكن همنغواي من اسـتعادة قواه الجسـدية كليا، وراحـت الأمـراض تنهـش جسـده، وأصبح فريسـة للاكتئاب بسـبب ارتفاع في ضغط الدم والكوليسترول والتهاب الوتين، ومـا فاقـم مـن الأمـر تعطشـه الـذي لا يرتوي للمشـروبات الكحوليـة. وفي سـبتمبر مـن العـام ١٩٦٠ أدخـل همنغواي إلـى مصحة في كِتشـم، في ولاية آيداهـو، للعلاج من ضغط الـدم المرتفـع ومن أمـراض الكبـد. وكان يعالـج بالصدمات الكهربائيـة، مـا أدى إلى فقدان هائل فـي ذاكرته، وراح يفقد كثيـرا من وزنه حتـى بدا هزاله مخيفا. حـاول همنغواي أن ينتحـر في ربيـع العـام ١٩٦١، فأُخضِـع للعـلاج بالصدمات الكهربائية مرة أخرى. لكنه في صباح الثاني من يوليو العام ١٩٦١، تمكن من قتل نفسه ببندقية صيده المفضلة.

ظـل همنغواي يكتب حتى آخر أيـام حياته، ولذلك لم تر بعض هذه الكتابات النور إلا بعد موته، وأحيانا بوقت طويل جدا. وهذه الأعمال التي نشرت بعد موته هي: «وليمة متنقلة» (١٩٦٤)، «الطابـور الخامس وأربع قصص عن الحرب الأهلية

الإسـبانية» (١٩٦٩)، «جـزر في المجـرى» (١٩٧٠)، «قصص نِك آدمز» (١٩٧٢)، «صيف المخاطِر» (١٩٨٥)، «جنة عدن» (١٩٨٦)، «الأعمال القصصية الكاملة لإرنست همنغواي» (١٩٨٧)، علما أن جزءا من هذه قد نشر من قبل، «صحيحٌ عند بزوغ الضوء» (١٩٩٩) وهذه الأخيرة رواية نقحها وأعدها للنشر ابنه پاترك همنغواي، ثم أعاد تنقيحها مرة أخرى ونشـرها تحت عنوان جديد هو «تحت كِلِيمِنجارو» (٢٠٠٥). ومن الرسـائل نشـر له أيضا بعد موته «إرنسـت همنغواي: رسـائل مختارة» (١٩٨١)، «الشـيء الوحيد الذي يهم» (١٩٩٦)، وهذه الأخيرة مجموعة من الرسـائل التـي كتبها همنغواي لناشـره ماكس پيركِنز. وهنـاك الآن مشـروع هائـل من اثني عشـر مجلدا لنشـر ما بين ستة آلاف إلى سبعة آلاف رسالة لهمنغواي، وهو مشروع مشـترك بين جامعة پنسـلڤانيا الحكومية ومؤسسة إرنست همنغـواي، وتديـر المشـروع سـاندرا سـپانِير، أسـتاذة الأدب الإنجليـزي فـي الجامعة المذكـورة. ويتوقـع أن يظهر المجلد الأول العام ٢٠١٠ عن مطبعة جامعة كامبردج.

د. موسى الحالول

الطائف

٣١ يوليو ٢٠٠٩

مقدمة المؤلف

القصص الأربع الأولى هي آخر ما كتبت. أما البقية فهي تتبع الترتيب الذي نشرت فيه أصلا.

القصة الأولى كانت «حادثة في مشيغن» (لم تنشر ضمن المجموعة) وقد كتبتها في باريس العام ١٩٢١، أما الأخيرة فهي «عجوز عند الجسر» وقد أبرقتها من برشلونة في أبريل العام ١٩٣٨.

بالإضافة إلى «الطابور الخامس» كتبت «القاتلان»، «اليوم هو الجمعة»، «عشرة هنود» وجزءا من رواية «وتشرق الشمس أيضا» والثلث الأول من رواية «النعمة والحرمان» في مدريد. كانت مدريد مكانا يصلح للعمل، وكذلك كانت باريس، وكي وست في فلوريدا في الأشهر الباردة، والمزرعة قرب كوك ستي في مونتانا، وكانزس ستي، وشيكاغو، وتورونتو، وهافانا، العاصمة الكوبية.

لم تكن بعض الأماكن الأخرى صالحة للعمل بذات الدرجة، لكن ربما لأننا لم نكن نحن صالحين بما يكفي عندما كنا فيها.

هناك عدة أنواع من القصص في هذا الكتاب، وآمل أن تجدوا فيها ما تحبون في بعض منها. عندما أعدت قراءة

القصص في هذه المجموعة، وجدت أن قصصي المفضلة هي:

- «حياة فرانسس ماكومبر السعيدة القصيرة».
- «في بلاد أخرى».
- «تلال كالفيلة البيضاء».
- «دريك محال، محال».
- «ثلوج كليمنجارو».
- «مصباح لعتمة الليل».
- وقصة أخرى تسمى «نور الدنيا» التي لم يحبها أحد غيري.

هذا طبعا فضلا عن تلك القصص التي أحرزت من الصيت ما جعل أساتذة المدارس يدرجونها في المجموعات القصصية لتلامذتهم، فينتابك دوما شعور طفيف بالحرج وأنت تقرأها، وتتساءل إن كنت حقا أنت الذي كتبها أم أنك سمعتها في مكان ما. وهناك قصص أخرى أحبها، لأنني لو لم أحببها لما نشرتها.

عندما تذهب حيث يجب أن تذهب، وعندما تفعل ما يجب أن تفعل، وعندما ترى ما يجب أن تراه، فإنك ترهق الآلة التي تكتب بها. أما أنا فأفضل أن تنحني تلك الآلة

وتتثلم وأن أعلم أنه عليَّ أن أسنها ثانية وأطرقها حتى تستعيد شكلها، وأن أعلم أن لدي ما أكتب عنه من أن تظل تلك الأداة براقة لامعة لا تقول شيئا أو ناعمة مزيتة تزييتا جيدا في غمدها، لكنها غير مستخدمة.

من الضروري الآن أن أعود إلى حجر الشحذ مرة أخرى. أتمنى أن أعيش طويلا كي أكتب ثلاث روايات أخرى وخمسا وعشرين قصة أخرى. فلدي من هذه وتلك ما تسر معرفته.

إرنست همنغواي

١٩٣٨

حياة فرانسس ماكومبر السعيدة القصيرة (١٩٣٦)

حان الآن وقت الغداء وكانوا جميعا يجلسون تحت اللسان الأخضر المزدوج لخيمة الطعام ويتظاهرون بأنه لم يحدث أي شيء.

«هل تريدان عصير ليمون حامض أم عادي؟» سأل ماكومبر.

«أريد غملت»، قال روبرت ولسن[1].

«وأنا أريد غملت أيضا. إنني في حاجة إلى شيء ما»، قالت زوجة ماكومبر.

«أعتقد أنك أحسنت الاختيار»، قال ماكومبر. «قل له أن يحضر ثلاث كؤوس من الغملت».

كان الطباخ قد بدأ بتحضيرها، مخرجا القناني من أكياس التبريد المصنوعة من القنب التي كانت تتصبب عرقا. وكانت الريح تهب على الأشجار التي تظلل الخيام.

«كم يجب أن أعطيهم؟» سأل ماكومبر.

«جنيه واحد يكفي وزيادة»، قال ولسن. «عليك ألا تدللهم».

«وهل سيوزعه الزعيم عليهم؟».

«طبعا».

كان فرانسس ماكومبر قد حُمل قبل نصف ساعة إلى خيمته من حافة المخيم على الأيدي والأكتاف، يحمله الطباخ وخدمه الشخصيون، والدباغ، والحمالون احتفالا بنصره. أما حملة

---

(١) الغملت: شراب مؤلف من عصير الليمون الحامض، والكحوليات، والسكر المطحون، لكن المعنى الأصلي للكلمة هو «مثقب» وسيجد القارئ لاحقا، دلالة غرامية واضحة لهذا المشروب [المترجم].

البنادق فلم يشتركوا في المظاهرة. عندما أنزله الخدم من أبناء البلد الأصليين عند باب خيمته، صافحهم جميعا وتلقى منهم التهاني، ثم دخل خيمته وجلس على السرير إلى أن جاءت زوجته. لم تحدثه عندما دخلت، فخرج من الخيمة على الفور ليغسل وجهه ويديه في حوض نقال للغسيل خارج الخيمة، ثم توجه إلى خيمة الطعام وجلس على كرسي قنب مريح في الظل والنسيم.

«لقد نلت من أسدك»، قال له روبرت ولسن، «وقد كان أسدا رائعا».

نظرت المسز ماكومبر إلى ولسن بسرعة. كانت امرأة فائقة الجمال وذات حسن ومكانة في المجتمع استحقا، قبل خمس سنوات، مبلغ خمسة آلاف دولار ثمنا لوضع صورتها على مستحضر تجميلي لم تستخدمه قط. مر على زواجها من فرانسس ماكومبر إحدى عشرة سنة.

«لقد كان أسدا رائعا، أليس كذلك؟» قال ماكومبر. نظرت إليه زوجته الآن. نظرت إلى كل من هذين الرجلين كأنها لم ترهما من قبل.

أما الأول، ولسن الصياد الأبيض، فكانت تعرف أنها لم تره فعلا من قبل. كان متوسط القامة وذا شعر بلون الرمل وشارب كث ووجه شديد الاحمرار وعينين زرقاوين شديدتي البرودة تحيط بزاويتيهما تجاعيد بيضاء طفيفة تتخدد ابتهاجا عندما يبتسم. ابتسم لها الآن فأشاحت بناظريها عن وجهه وتحولت إلى تقوس كتفيه تحت سترته الفضفاضة التي كانت تتدلى منها أربع طلقات كبيرة، ثم إلى يديه السمراوين الكبيرتين، إلى بنطاله

العتيق، إلى حذائه المتسخ جدا، ثم عادت بناظريها إلى وجهه مرة أخرى. انتبهت إلى أن احمرار وجهه المشوي يتوقف عند خط دائري أبيض تركته قبعته التي تتدلى من أحد أعمدة الخيمة.

«حسن، لنشرب في صحة الأسد»، قال روبرت ولسن. ابتسم لها ثانية، فنظرت بفضول إلى زوجها من دون أن تبتسم.

كان فرانسس ماكومبر طويلا جدا، وقوي البنية جدا، لولا طول عظمه، أسمر البشرة. كان شعره قصيرا ومقصوصا على طريقة مجدفي القوارب، وكانت شفتاه تميلان إلى الدقة، وكان من عداد الوسيمين. كان يرتدي ذات النوع من ملابس الصيد التي يلبسها ولسن، بيد أن ملابسه كانت جديدة. كان في الخامسة والثلاثين من عمره، يحافظ على رشاقته، يتقن رياضات الملاعب المغلقة، وسجل عددا من الأرقام القياسية في صيد الأسماك الكبيرة، وها هو يبدي جبنه للملأ.

«في صحة الأسد»، قال. «لا تستطيع الكلمات أن تعبر عن امتناني لك لما فعلته».

أشاحت زوجته مارغرت بوجهها عنه وركزت ناظريها على ولسن وقالت:

«لنتوقف عن الحديث عن الأسد».

نظر إليها ولسن من دون أن يبتسم، لكنها الآن ابتسمت له، وقالت:

«لقد كان يوما غريبا. ألم يكن واجبا عليك أن تعتمر قبعتك عند الظهيرة حتى وأنت في الخيمة؟ أنت قلت لي ذلك، كما تعلم».

«قد يجدر ارتداؤها»، قال ولسن.

«هل تعلم يا سيد ولسن أن وجهك شديد الاحمرار؟» قالت له وابتسمت ثانية.

«اشربي»، قال ولسن.

«لا أظن ذلك»، قالت له. «يشــرب فرانسس كثيرا، لكن وجهه لا يحمر أبدا».

«إنه أحمر اليوم»، قال ماكومبر ممازحا.

«لا»، قالــت مارغرت. «بل وجهي هــو الذي احمر اليوم. لكن وجه السيد ولسن دائما أحمر».

«لا بــد أنها قضية عرقية»، قال ولســن. «ترى، هل تودين أن تجعلي من جمالي موضوعا للحديث؟».

«لقد شرعت في ذلك».

«دعونا ننس الموضوع»، قال ولسن.

«سيكون الحديث صعبا للغاية»، قالت مارغرت.

«كفي عن هذه السخافة، يا مارغو»، قال زوجها.

«لا توجــد صعوبة»، قال ولســن. «لقد تمكنا من أســد بالغ الروعة».

نظــرت مارغو إلى كليهما وعرفا أنها ســتبكي. وهذا ما كان يتوقعه ولســن منذ وقت طويل ويخشاه. أما ماكومبر فقد تجاوز مسألة الخشية.

«أتمنــى لو لم يحــدث ذلك. أوه، أتمنى لو لــم يحدث ذلك»، قالت وانطلقــت نحو خيمتها. كان بكاؤهــا كظيما، لكن اهتزاز كتفيهــا كان باديا للعيان، تحت قميصها الوردي المقاوم لأشــعة

الشمس.

«النساء يتأثرن بسهولة وينزعجن»، قال ولسن للرجل الطويل. «ولا طائل من ذلك سوى إرهاق الأعصاب».

«لا»، قال ماكومبر. «أعتقد أن العار سيلاحقني حتى آخر عمري».

«هراء! لنلق نظرة على الوحش الكاسر»، قال ولسن. «انس الموضوع برمته. ليس في الأمر أي شيء».

«ليكن ذلك»، قال ماكومبر. «لكني لن أنسى ما فعلته من أجلي».

«إنه لا شيء»، قال ولسن. «كله هراء».

وهكذا جلسا في ظل المخيم المنصوب تحت أشجار الأكاسيا الوارفة الظلال، حيث يحيط به جرف صخري من الخلف ورقعة من العشب في الأمام تمتد حتى ضفة جدول ممتلئ بالصخور والغابة من ورائه. كانا يشربان شراب الليمون البارد، ويحاول كل منهما ألا تلتقي عيناه بعيني الآخر بينما كان الخدم يهيئون المائدة للغداء. لقد أيقن ولسن أن جميع الخدم قد عرف بالأمر، وعندما رأى خادم ماكومبر الشخصي ينظر إلى سيده بفضول وهو يضع الصحون على المائدة، زجره باللغة السواحلية. أشاح الخادم بوجهه الذي كان خاليا من التعبير.

«ماذا كنت تقول له؟» سأل ماكومبر.

«لا شيء. قلت له أن يتحرك وإلا فإنه سينال خمس عشرة من أفضل ما عندي».

«ما هذه؟ خمس عشرة جلدة؟».

«هذا ممنوع قانونا، إذ يفترض أن تغرمهم»، قال ولسن.

«وهل مازلت تجلدهم؟»

«طبعا. في إمكانهم أن يثيروا المتاعب لو شاءوا أن يشتكوا. لكنهم لا يفعلون. فهم يفضلون الجلد على الغرامة».

«ما أغرب أمرهم!» قال ماكومبر.

«لا غرابة في الواقع»، قال ولسن. «فأيهما تفضل؟ أن تجلد أم أن تخسر راتبك؟»

ثم خجل من سؤاله وقبل أن يتمكن ماكومبر من الإجابة تابع قائلا: «كلنا يتلقى الصفعات يوميا، كما تعلم، بشكل أو بآخر».

لم يكن هذا القول أفضل من سابقه. «يا إله العرش! أي ديبلوماسي أنا!»

«أجل نتلقى الصفعات»، قال ماكومبر وهو لا يزال يشيح ببصره عنه. «أنا آسف جدا بسبب قضية الأسد. لكن هل يعني أنه يجب أن تطول القضية؟ أقصد هل يجب أن يسمع بها أحد؟».

«هل تقصد إن كنت سأذيع الخبر في نادي ماثايغا؟»[٢] قال ولسن وهو ينظر إليه بفتور: الآن. لم يدخل هذا في حسبانه. إذن، فهو رجل بذيء ورعديد يائس أيضا، فكر ولسن في سره. لقد كنت أحبه حتى اليوم. لكن كيف للمرء أن يعرف الأمريكي؟

«لا»، قال ولسن. «أنا صياد محترف. نحن لا نتحدث عن زبائننا. يمكنك أن تطمئن من هذه الناحية. لكنه من غير اللائق أن يطلب منا ألا نتحدث».

(٢) ناد ريفي في العاصمة الكينية نيروبي [المترجم].

لقد أيقن الآن أن الانفصال أصبح أسـهل. إذن سيأكل وحده، ويمكنه أن يطالع كتابا وهو يتناول وجباته. وهما سيأكلان وحدهما. سـيتعامل معهما في أثناء الرحلة بشـكل رسـمي، أو كما يسميه الفرنسيون، على أساس من المراعاة المميزة. فهذا أهون عليه من حديث العواطف السـخيف. سـيهينه ويبتعد عنه تماما. عندها يستطيع أن يقرأ كتابا مع وجباته وسيظل يشرب من مشروبهما. هذا ما يقال عندما تفشل رحلة صيد. تلتقي بصياد أبيض آخر، وتسـأله، «كيف تسير الأمور؟» فيجيبك، «أوه، لا أزال أشرب من مشروبهم». تعرف عندئذ أن الأمور لا تسير على نحو جيد.

«أنا آسـف»، قال ماكومبر ونظـر إليه بوجهه الأمريكي الذي سـيظل مراهقا إلى أن يبلغ من العمر أوسطه، وانتبه ولسن إلى شـعره القصير وإلى عينيه الجميلتين اللتين يشوبهما طيف من القلق، إلى أنفه الحسن وشـفتيه الرقيقتين، وفمه الوسيم. «أنا آسف، لكنني لم أكن أعلم ذلك. هناك أشياء كثيرة لا أعرفها».

إذن ماذا كان في إمكانه أن يفعل؟ تسـاءل ولسن في سره. كان على أتم الاسـتعداد للانفصال بسـرعة وبراعة، وها هو الشـحاذ يأتي معتذرا بعد أن تلقى منـه الإهانة. حاول مرة أخـرى. «لا داعي للقلق من حديثي. أنت تعلـم أنه في أفريقيا لا توجـد امـرأة قط تخطئ أسـدها كما لا يوجـد رجل أبيض يهرب».

«لكنني هربت كالأرنب»، قال ماكومبر.

ترى، ماذا يمكنك أن تفعل برجل يتكلم بهذه الصورة، تسـاءل ولسن.

نظر ولسن إلى ماكومبر بعيني رامي رشاش زرقاوين باهتتين، فبادله ماكومبر النظرة بابتسامة. كانت ابتسامته تدخل السرور إلى القلب ما لم تلاحظ عمق الألم الذي في عينيه.

«قد أصلح الأمر في صيد الجواميس»، قال. «أليست هي بغيتنا الآن؟».

«في الصباح إن شئت»، قال ولسن. ربما كان مخطئا. لا شك في أن هذه هي الطريقة في التعامل مع الأمر. إذ لا يمكن للمرء إطلاقا أن يعرف شيئا عن الأمريكي. مرة أخرى انحاز إلى جانب ماكومبر. إن استطعت أن تنسى الصباح. لكنك طبعا لا تستطيع. لقد كان صباحا سيئا إلى أبعد الحدود.

«ها قد أتت المصاحب»، قال[٢]، جاءت ماشية من خيمتها وقد بدت منتعشة ومعنوياتها عالية ورائعة جدا. كان وجهها آية من الكمال البيضاوي إلى درجة تخالها غبية. لكنها لم تكن غبية، قال ولسن في سره. لا، ليست غبية.

«كيف حال السيد الوسيم ولسن، ذي الوجه الأحمر؟ هل تشعر أفضل من ذي قبل يا درتي الثمينة فرانسس؟».

«أجل، أفضل بكثير».

«لقد نسيت الأمر برمته»، قالت وجلست إلى المائدة.

«وهل يهم إن كان فرانسس يجيد صيد الأسود؟ هذه ليست مهنته، بل مهنة السيد ولسن. إن السيد ولسن يثير الإعجاب وهو يقتل أي شيء. أنت تقتل أي شيء، أليس كذلك؟».

---

(٢) يستخدم ولسن كلمة «المصاحب» التي يطلقها الهنود على أي سيدة أجنبية بيضاء، وبخاصة السيدات البريطانيات [المترجم].

«أي شيء، طبعا»، قال ولسن. أي شيء ببساطة، قال في سره، إنهن أصعب المخلوقات، أصعبهن وأقساهن وأشرسهن وأكثرهن غواية ورجالهن لانوا أو تحطموا من التوتر وهن يقسون. أم أنهن ينتقين رجالا يستطعن عركهم؟ لكن أنى لهن بكل هذه المعرفة في تلك السن عندما يتزوجن؟ لقد كان سعيدا لأنه تعرف على الأمريكيات من قبل، فهذه المرأة جذابة جدا.

«سنذهب لصيد الجواميس في الصباح»، قال لها.

«سآتي معكما».

«لا، لن تفعلي».

«بل سآتي. ألا أستطيع ذلك يا فرانسس؟».

«ولماذا لا تبقين في المخيم؟».

«لا شيء يجعلني أغيِّر رأيي أو أن أفوّت يوما كاليوم».

راح ولسن يتساءل، عندما غادرتهما لتبكي، كانت امرأة في غاية الروعة. بدت متفهمة ومدركة للأمور وتتألم لأجله ولأجلها. لقد غابت عشرين دقيقة لتعود متسربلة بقسوة المرأة الأمريكية. إنهن ألعن النساء. ألعنهن على الإطلاق.

«سنرتب لك عرضا آخر غدا»، قال فرانسس ماكومبر.

«لن تأتي»، قال لها ولسن.

«أنت مخطئ جدا»، ردت عليه. «كما أنني أتشوق إلى رؤية أدائك ثانية. لقد كنت رائعا هذا الصباح. أقصد، إن كانت الإطاحة بالرؤوس رائعة».

«ها قد وصل الغداء»، قال ولسن. «أنت تفيضين مرحا، أليس كذلك؟».

«ولم لا؟ لم آت إلى هنا لأضجر».

«حسن، حتى الآن لا يوجد ما يبعث على الضجر»، قال ولسن. تمكن من رؤية الصخور في النهر والضفة العالية وراءه والأشجار، فتذكر الصباح.

«طبعا لا، بل كله سحر. أما عن يوم غد، فأنت لا تعلم مدى تشوقي إلى يوم غد».

«إنه يقدم إليك لحم العلند»، قال ولسن[٤].

«إنها تلك الأشياء الضخمة الشبيهة بالبقر وتنط كالأرانب الوحشية، أليس كذلك؟»

«أعتقد أن هذا وصف معقول»، قال ولسن.

«إنه لحم لذيذ جدا»، قال ماكومبر.

«هل أنت الذي قتله، يا فرانسس؟» سألته.

«نعم».

«هذه الحيوانات ليست خطيرة، أليس كذلك؟»

«ما لم ترتمِ عليك؟» قال لها ولسن.

«أنا سعيدةَ لذلك».

«لماذا لا تخففين من وقاحتك قليلا، يا مارغو»، قال ماكومبر وهو يقطع شريحة لحم العلند ويضع مهروس البطاطا والصلصة والجزر على الشوكة المقلوبة والمغروزة في قطعة اللحم.

«أعتقد أن ذلك ممكن لاسيما أنك عبَّرت عن رغبتك بهذا الشكل الرائع»، ردت عليه.

---

(٤) العلند: ظبي أفريقي ضخم [المترجم].

«سنتناول المشروب هذه الليلة في صحة الأسد»، قال ولسن. «أما الآن فهي حارة جدا».

«أوه، الأسد»، قالت مارغو. «لقد نسيت الأسد!».

إذن فهي تتواقح معه حقا، فكر روبرت ولسن في سره. أم تراها تكابر؟ إذ كيف تتصرف امرأة تكتشف أن زوجها جبان رعديد؟ إنها قاسية لعينة، لكنهن جميعا قاسيات. إنهن يتحكمن، بالطبع، ولكي تتحكم المرأة عليها أن تكون قاسية. مع ذلك فقد رأيت ما يكفي من إرهابهن اللعين.

«كلي مزيدا من لحم العلند»، قال لها بلباقة.

في عصر ذلك اليوم خرج ولسن وماكومبر في السيارة مع سائق من أبناء البلد وحاملي البنادق. أما السيدة ماكومبر فقد بقيت في المخيم، بحجة أن الطقس كان حارا جدا وأنها ستذهب معهما باكرا في صباح اليوم التالي. عندما انطلقت السيارة رآها ولسن تقف تحت الشجرة الكبيرة، وقد بدت عليها الأناقة أكثر من الجمال في البذلة الكاكي المائلة إلى الوردي وشعرها الداكن المشدود عن جبهتها والمعقود في عقصة عند أسفل رقبتها ووجهها المشرق إشراقا كما لو أنها في إنجلترا. لوحت لهما بيدها عندما شقت السيارة طريقها عبر وهدة ذات أعشاب عالية ثم انعطفت عبر الأشجار في اتجاه الروابي الصغيرة وأشجار البساتين.

وجدا في أشجار البساتين قطيعا من ظباء الإمبالا، فتركا السيارة وتعقبا كبشا عجوزا له قرنان طويلان تفصل بينهما مسافة عريضة، فأرداه ماكومبر قتيلا بطلقة جديرة بالإكبار على مسافة مائتي ياردة أدخلت الرعب والهياج في القطيع فراح

يقفــز بعضه فوق ظهــور بعض بقفزات طويلــة وقوائم ممدودة عائمة لا تصدق كتلك التي يخالها المرء أحيانا في الأحلام.

«لقد كانت إصابة رائعة»، قال ولسن. «هذه الحيوانات أهداف صغيرة».

«وهل كان صيدا جديرا؟» سأله ماكومبر.

«إنــه ممتــاز»، قال له ولســن. «إذا كانت رمايتــك على هذه الصورة فلا مشكلة لديك».

«هل تظن أننا سنحظى بالجواميس غدا؟»

«أمامنــا فرصة جيدة. إنها تخرج للرعــي في الصباح الباكر وإذا حالفنا الحظ، فقد نجدها في العراء».

«أود أن أتخلص من قضية الأسد»، قال ماكومبر. «إذ ليس من اللائق أن تراك زوجتك تتصرف بهذا الشكل».

قال ولسن في سره: أعتقد أن الأقل لياقة هو أن تأتي بشيء من هذا القبيل ســواء أرأتك زوجتــك أم لم ترك، أو أن تتحدث عن الأمر بعد إتيانك إياه. لكنه قال: «لا تدع الأمر يعكر مزاجك ثانية. يمكن لأي امرئ أن يتكدر من أسده الأول. لكن هذا الأمر انتهى الآن».

لكن فرانســس ماكومبر في تلك الليلة بعد أن تناول عشاءه وشــيئا من المشــروب والصودا بقرب النار، وبينما هو يستلقي على فراشــه تحت الناموسية ويستمع إلى أصوات الليل عرف أن الأمر لم ينته. لــم ينته ولم يبدأ. كان ماثلا في ذهنه تماما كمــا حدث، بينما برزت بعض أجزائه بشــكل لا يمحى فأحس بالتعاســة والعار. بل أحس بشيء غير العار، أحس بخوف بارد

ينخر داخله. ظل الخوف كتجويف بارد دبق وسط ذلك الفراغ الذي حل محل الثقة التي كانت لديه، فجعله يشعر بالغثيان. ولا يزال الخوف يلازمه حتى الآن.

لقد بدأ الأمر في الليلة السابقة عندما استيقظ على زئير أسد في مكان ما بمحاذاة النهر. كان زئيره عميقا ينتهي إلى ما يشبه حشرجات السعال التي جعلته يبدو كأنه خارج الخيمة، وعندما استيقظ فرانسس ماكومبر في الليل ليسمع هذا الزئير ملأ الرعب قلبه. كانت زوجته تغط في نوم عميق وهادئ. لم يكن هناك من يعلم أنه خائف أو ليخاف معه، ولم يعرف، وهو مستلق، المثل الصومالي الذي يقول إن الرجل الشجاع يخاف من الأسد ثلاث مرات: عندما يرى أثره للمرة الأولى، وعندما يسمع زئيره للمرة الأولى، وعندما يراه وجها لوجه للمرة الأولى. وبينما هم يتناولون طعام الإفطار على ضوء المصباح قبيل بزوغ الشمس، زأر أسد ثانية، فظن فرانسس أنه يقف عند أطراف المخيم.

«يبدو أنه معمر»، قال روبرت ولسن وهو يرفع ناظريه عن قهوته. «أنصت إليه وهو يسعل».

«هل هو قريب جدا؟»

«ميلا أو ما يقاربه عند الجدول».

«وهل سنراه؟».

«سنرى».

«وهل يبلغ زئيره إلى هذا المدى؟ يبدو كأنه في منتصف المخيم».

«بـــل يبلغ أكثر من هـــذا»، قال روبرت ولســـن. «إن مداه أمر غريب. آمل أن يكون قابلا للصيد. يقول الخدم إن هناك أســـدا كبيرا جدا في هذه النواحي».

«إن ســـنحت لي الفرصة، أين يجب أن أطلـــق النار عليه كي أوقفه؟» سأله ماكومبر.

«في الكتفين»، قال ولســـن. «في الرقبة إن اســـتطعت. ليكن هدفك هو كسر عظامه».

«آمل أن أستطيع التسديد بدقة»، قال ماكومبر.

«إنك تجيد التسديد»، قال له ولسن. «تريث جيدا. تأكد منه. فالإصابة الأولى هي أهم إصابة».

«من أي مسافة يجب أن تكون؟»

«لا أعـــرف. فهذا يعتمد على الأســـد ذاتـــه. لا تقترب حتى يقترب منك وتكون واثقا».

«على مسافة أقل من مائة ياردة؟» سأله ماكومبر.

نظر إليه ولسن بسرعة.

«مائة مســـافة معقولة. لكن قد تضطر إلى الإطلاق عليه من مسافة أبعد من ذلك. مائة مسافة معقولة. يمكنك أن تصيبه في أي مكان تشاء من هذه المسافة. ها قد جاءت المصاحب».

«صباح الخير»، قالت «هل سنتعقب ذلك الأسد؟».

«حالما تتناولين إفطارك»، قال ولسن «كيف تشعرين؟».

«رائعة»، قالت له. «أنا متلهفة جدا».

«ســـأذهب لأتأكد أن كل شـــيء جاهز». انطلق ولسن. وما إن غادر حتى زأر الأسد ثانية.

«شحاذ مزعج»، قال ولسن. «سنضع حدا لذلك».

«ما الأمر، يا فرانسس؟» سألته زوجته.

«لا شيء»، قال لها.

«قل لي»، قالت وهي تنظر إليه. «هل أنت بخير؟»

«إنه ذلك الزئير اللعين»، قال لها. «استمر طوال الليل كما تعلمين».

«لماذا لم توقظني؟» سألته. «كم كنت أود أن أسمعه».

«علي أن أقتل هذا المخلوق اللعين»، قال ماكومبر، والتعاسة واضحة في صوته.

«حسن، فهذا ما جئت لأجله. أليس كذلك؟».

«بلى، لكنني متوتر الأعصاب. عندما أسمعه يزأر تتوتر أعصابي».

«لا بأس إذن. اقتله، كما قال ولسن، وضع حدا لزئيره».

«نعم يا حبيبتي»، قال فرانسس ماكومبر. «بهذه السهولة، أليس كذلك؟».

«أنت لست خائفا، أليس كذلك؟»

«بالطبع لست خائفا. لكنني متوتر الأعصاب من جراء سماعه يزأر طوال الليل».

«سيموت على يديك أروع ميتة»، قالت له. «أنا أعلم أنك ستفعل. وأنا في غاية الشوق لذلك».

«أكملي إفطارك لننطلق».

«لم يبزغ الضوء بعد»، قالت له. «هذا وقت غريب».

في تلك اللحظة بالذات زأر الأسد زئيرا من أعماق صدره،

وفجـــأة انطلق عواء من حنجرته اهتز لـــه الجو، وانتهى بتنهيدة وحشرجة ثقيلة من أعماق صدره.

«يبدو كأنه هنا»، قالت زوجة ماكومبر.

«يا إلهي كم أكره هذا الصوت اللعين»، قال ماكومبر.

«إنه مثير جدا للإعجاب».

«مثير للإعجاب؟ إنه مرعب!».

هنا جاء روبرت ولســـن يحمل بندقيته القصيرة القبيحة ذات الماسورة الكبيرة إلى حد صاعق، وهو مكشر عن أسنانه، وقال:

«هيــا بنا. أســلحتك يحملها حامــل البنادق. كل شـــيء في السيارة. هل لديك طلقات مصمتة؟».

«نعم».

«أنا جاهزة»، قالت السيدة ماكومبر.

«عليك أن تضع حدا لإزعاجه»، قال ولسن. «اصعد من الأمام. ستجلس المصاحب هنا في المقعد الخلفي معي».

صعدوا إلــى الســيارة وانطلقوا، مع خيــوط الفجر الأولى، بمحاذاة النهر عبر الأشجار. فتح ماكومبر أخمص بندقيته ورأى أن لديه طلقات ذات أغلفة معدنية، فأغلق الرتاج ووضع البندقية فــي وضعية الأمــان. انتبه إلى أن يده كانــت ترتجف. بحث في جيبه عن مزيد من الطلقات ومرر أصابعه فوق الطلقات المتدلية من عرى في مقدم ســترته. التفت إلى حيث كان ولســـن يجلس مع زوجته في المقعد الخلفي للســيارة التي لا أبواب لها ويشــبه جسمها الصندوق، فوجدهما مكشــرين شوقا، فمال ولسن إلى الأمام وهمس:

«انظـــر إلى الطيور كيف تذرق. هذا يعني أن العجوز قد غادر فريسته».

اســـتطاع ماكومبر أن يرى الغربان تحوم فوق الأشـــجار على الضفة الأخرى ثم تنقض.

«من المحتمل أنه ســـيرد الماء هنا قبل أن يذهب ليســـتلقي»، همس ولسن قائلا. «راقبه جيدا».

كانت السيارة تسير ببطء بمحاذاة الضفة العليا للجدول الذي غار هنا حتى ســـريره الممتلئ بالحجارة، وكانوا يشقون طريقهم عبر الأشـــجار في الســـيارة. كان ماكومبر يراقب الضفة المقابلة عندما أحس بولسن يمسك بذراعه. توقفت السيارة.

«ها هو»، سمع ولسن يهمس. «إلى الأمام وعلى اليمين. ترجل ونازله. إنه أسد رائع».

رأى ماكومبر الأســـد الآن. كان يقف بشـــكل عرضي تقريبا، رافعا رأسه الهائل في مواجهتهم. كان نسيم الصباح الباكر الذي يهـــب في اتجاههم بالكاد يحرك عرفه الداكن. بدا ظل الأســـد عند المرتفع من الضفة هائلا فـــي ضوء الصباح الرمادي، ثقيل المنكبين، مبروم الجسد، أملسه.

«كم يبعد؟» سأل ماكومبر وهو يرفع بندقيته.

«نحو خمس وسبعين. ترجل ونازله».

«ولماذا لا أطلق عليه من حيث أنا؟»

«لا يجوز إطلاق النار على الأســـود من السيارات»، همس ولســـن في أذنه. «ترجل. ثـــم إنه لن يبقى فـــي مكانه طوال اليوم».

ترجل ماكومبر من الفتحة المقوسة من ناحية المقعد الأمامي، واضعا قدمه على الدرجة ثم على الأرض.

ظل الأســـد يتطلع بجلال ورباطة جأش في اتجاه هذا الشيء الذي ارتســـم كالظـل أمام ناظـريـــه، وينـتفخ مثل كركدن هائل. لم تحمل الريح له رائحة بشرية، فظل يراقب الشيء وهو يحرك رأســـه الهائل قليلا ذات اليمين وذات الشمال. وبينما هو يراقب الشـــيء بلا وجل بل بتردد في ورود الماء بينما هذا الشيء قبالته رأى هيئـــة رجل تنفصل عن الشـــيء فأدار رأســـه الهائل ووثب قاصدا الاحتماء بالأشـــجار عندما سمع فرقعة وأحس بارتطام رصاصة مصمتة يلذع خاصرتـــه ويخترقها بينما غثيان مفاجئ شـــديد الحرارة يغمر معدته. هـــرول متثاقلا، يترنح تحت وطأة الجرح وامتـــلاء معدته، يتخبط بين الأشـــجار قاصدا الاحتماء بالأعشـــاب الطويلة عندما سمع فرقعة تتخطاه وتفلق الهواء إلى نصفين. فرقع الهواء ثانية وأحس بارتطام يخترق أضلاعه الدنيا وتدفق الدم من فمه مفاجئا، ســـاخنا، مزبدا، فانطلق يعدو نحو الأعشاب العالية كي يربض بحيث لا يرونه ويستدرجهم ليقتربوا بالشيء المفرقع لعله ينقض على الرجل الذي يحمله.

لـــم يخطر في بـــال ماكومبر وهو يترجل من الســـيارة، كيف شعر الأسد. كل ما كان يعلمه هو أن يديه كانتا تهتزان وأن حركة قدميه قد شلت تقريبا عندما كان يبتعد عن السيارة. لقد تخشبت ســـاقاه عند الفخذين، لكنه كان يشعر باضطراب عضلاته. رفع بندقيته وسدد على الأسد عند ملتقى الرأس والكتفين، ثم ضغط علـــى الزناد. لم يحدث شـــيء على الرغم مـــن أنه ضغط حتى

ظن أن إصبعه ستتكسـر. عندئذ عرف أن البندقية في وضعية الأمـان، وعندما أخفض البندقية كـي يحررها من الأمان خطا خطـوة متجمدة أخرى نحـو الأمام. لما رأى الأسـد ظل الرجل ينفصل عن ظل السـيارة، استدار وانطلق يهرول. أطلق ماكومبر النار فسـمع صوتا كامدا فعرف أن رصاصتـه أصابت هدفها، لكن الأسد تابع هرولته. أطلق ماكومبر ثانية فرأى الجميع زوبعة من الغبار تثيرها الرصاصة التي تخطت الأسـد المهرول. وبعد أن تذكر أن عليه أن يسـدد إلى الأسفل، أطلق النار مرة أخرى، وسـمع الجميع الرصاصة وهي تصيب الأسد الذي انطلق يعدو واحتمى بالأعشاب العالية قبل أن يتمكن ماكومبر من دفع الرتاج إلى الأمام.

«لقد أصبته، أصبته مرتين»، قال ماكومبر.

«لقـد أصبته في أحشـائه ثم في مكان مـا إلى الأمام»، قال ولسن بفتور. ران الصمت والرزانة على حاملي البنادق.

«ربما قتلته»، قال ولسـن. «لكن علينا أن ننتظر قليلا قبل أن نذهب لنستجلي الأمر».

«ماذا تقصد؟».

«ندعه يمرض قبل أن نتعقبه».

«أوه»، قال ماكومبر.

«إنه أسد رائع»، قال ولسن، مسرور الخاطر. «لكنه اختبأ شر اختباء».

«لماذا شر اختباء؟»

«لأنك لا تراه حتى تصبح على مقربة منه».

«أوه»، قال ماكومبر.

«هيا بنا»، قال ولسن. «تستطيع المصاحب أن تبقى هنا في السيارة. سنذهب لنقتفي آثار الدم».

«ابقي هنا، يا مارغو»، قال ماكومبر لزوجته. لقد جف فمه جفافا جعل الحديث صعبا عليه.

«لماذا؟» سألته.

«لأن ولسن يقول ذلك».

«سنذهب لنلقي نظرة»، قال ولسن. «أنت تبقين هنا حيث يمكنك أن تراقبي بشكل أفضل».

«لا بأس».

تكلم ولسن باللغة السواحلية مع السائق، فرد هذا، «نعم، بوانا»[٥].

ثم نزلوا الضفة السحيقة وعبروا الجدول، يتسلقون الصخور أو يدورون من حولها، ثم يصعدون الضفة الأخرى ويتعلقون ببعض الجذورالناتئة، ثم ساروا بمحاذاة الضفة حتى بلغوا البقعة التي كان الأسد يهرول فيها عندما أطلق ماكومبر الرصاصة الأولى. كان هناك دم داكن على الأعشاب القصيرة التي أشار إليها حاملا البنادق بأعواد العشب، والتي كانت تمتد إلى ما وراء الأشجار على ضفة النهر.

«ما العمل الآن؟» سأل ماكومبر.

«ليس لدينا كثير من الخيارات»، قال ولسن. «لا نستطيع أن نأتي بالسيارة إلى هنا، فالضفة شاهقة جدا. سنتركه ينشل

---

(٥) بوانا: كلمة سواحلية تعني «سيدي» [المترجم].

قليلا ثم نذهب أنا وأنت لنبحث عنه».

«ألا يمكننا أن نحرق العشب؟» سأله ماكومبر.

«إنه أخضر للغاية».

«ألا يمكننا أن نرسل مستطلعين؟».

نظر إليه ولسن نظرة متفحصة وقال، «طبعا يمكننا. لكننا نسوقهم إلى حتفهم. أنت تعلم أن الأسد جريح. إن الأسد غير الجريح يهرب من سماع صوتك، لكن الأسد الجريح يهاجم. ولا يمكنك أن تراه حتى تقف فوقه. إذ يستطيع أن يربض تحت غطاء لا تظنه يؤوي أرنبا. لا يمكنك أن ترسل الخدم إلى هذا النوع من النزال. لا بد أن يتأذى أحدهم».

«وماذا عن حاملي البنادق؟».

«سيذهبان معنا. هذا شغلهما. لقد وقَّعا على ذلك. لكنهما لا يبدوان مسرورين، ألا ترى؟».

«لا أريد أن أذهب إلى هناك»، قال ماكومبر. خرجت الكلمات قبل أن يدرك أنه نطقها.

«ولا أنا»، قال ولسن بسرور بالغ. «لكنه لا خيار لدينا في الواقع». لكنه استدرك قائلا، وقد رأى ماكومبر يرتجف فجأة بطريقة يرثى لها:

«لست مضطرا إلى الذهاب طبعا. هذا هو عملي الذي استأجرتني من أجله، ولهذا أجري مرتفع».

«هل تنوي الذهاب بمفردك؟ لماذا لا تتركه وشأنه؟».

روبرت ولسن الذي امتهن صيد الأسود وما يمثله من مشكلات، ولم ير في ماكومبر سوى شخص متقلب، شعر فجأة كأنه فتح

الباب الخطأ في فندق ورأى شيئا معيبا.

«ماذا تقصد؟».

«لماذا لا تتركه وشأنه؟».

«تقصد نتظاهر بأنه لم يصب؟».

«لا. ننسى الموضوع فقط».

«هذا غير ممكن».

«لم لا؟»

«لأنــه من المؤكد أنه يتألم، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، قد يتفاجأ به أحد غيرنا».

«لقد فهمت».

«لست ملزما للقيام بشيء».

«لكننــي راغب في ذلك»، قال ماكومبر. «أنا خائف فقط، كما تعلم».

«سأكون في المقدمة عندما ندخل، بينما يقتفي كونغوني أثرنا ويراقب»، قال ولســن. «سر ورائي وإلى أحد الجوانب قليلا. من المحتمل أننا سنســمعه يزمجر. إن رأيناه سنطلق عليه النار في آن معا. لا تقلق بشأن أي شيء. سأؤازرك دائما. في الواقع، كما تعلم، قد يجدر بك ألا تذهب. قد يجدر بك فعلا ألا تذهب. لماذا لا تنضم إلى المصاحب بينما أنا أنهي الأمر؟».

«بل أريد أن أذهب».

«حســن»، قال ولســن. «لكن لا تذهب إذا كنت لا تريد ذلك. فهذا هو شغلي الآن، كما تعلم».

«قلت إني أريد أن أذهب».

جلسا تحت شجرة ودخنا.

«أتريد أن تعود لتتحدث مع المصاحب بينما ننتظر؟» سأله ولسن.

«لا».

«سأعود لأنصحها بالتحلي بالصبر».

«خير ما تفعل»، قال ماكومبر. جلس هناك والعرق يسيل من تحت إبطيه، وقد جف ريقه، يحس بفراغ في جوفه، يريد أن يجد الشجاعة ليقول لولسن أن يذهب ليجهز على الأسد من دونه. لم يكن يعلم أن ولسن غاضب لأنه لم ينتبه إلى الحال التي كان عليها قبلا وأعاده إلى زوجته. بينما كان يجلس عاد ولسن. «جئتك ببندقيتك الكبرى»، قال لولسن. «خذها. أعتقد أننا منحناه وقتا كافيا. هيا بنا».

أخذ ماكومبر البندقية الكبرى وقال ولسن:

«سر ورائي على مسافة خمس ياردات وإلى اليمين ونفذ ما أقوله لك حرفيا»، ثم تحدث بالسواحلية إلى حاملي البنادق اللذين كانا في غاية الكآبة.

«هيا بنا»، قال لهما.

«هل لي بشربة ماء؟» طلب ماكومبر. تحدث ولسن إلى حامل البنادق الأكبر الذي كان يحمل مطرة ماء في حزامه. حرر الرجل المطرة من عروتها وحل سداداتها وناولها إلى ماكومبر الذي أثار انتباهه وزنها وملمس قرابها الصوفي الرديء في يده.

رفع المطرة ليشرب ونظر أمامه إلى الأعشاب العالية والأشجار ذات القمم المسطحة وراءها. كان النسيم يهب في اتجاههم، وكان

العشب يتماوج برفق بفعل الريح. نظر إلى حامل البنادق فرأى أن الخوف يعتصره.

على مســافة خمس وثلاثين ياردة داخل العشــب كان الأسد الهائــل يربض مســتويا مع الأرض. كانت أذناه مشــدودتين إلى الخلف، لا شــيء فيه يتحرك سوى ذيله الأســود الطويل حركة طفيفة نحو الأعلى والأســفل. كان قد انعطف عند الخليج حالما بلــغ هذا المكمن، إذ كان يتضور ألمــا من الجرح الذي أصابه في بطنــه الممتلئ. أما إصابتــه في الرئتين فقد هــدت قواه، وكان زبــد أحمر رفيع يصعــد إلى فمه كلما تنفــس. كانت خاصرتاه رطبتين وســاخنتين، وكان الذباب قد حط على الثقوب الصغيرة التــي جعلتها الطلقات المصمتة فــي إهابه الأصفر الضارب إلى الســمرة. وكانت عينــاه الكبيرتان الصفراوان قــد ضاقتا بفعل الحقد وتســددان نظرات مســتقيمة إلى الأمــام، ولا ترفان إلا عندما يعاوده الألم كلما تنفس، وكانت براثنه مغروزة في التراب المشــوي الناعم. كان كل ما فيه من ألم واعتلال وحقد وما تبقى له من قوة يتكور استعدادا لوثبة حاسمة. كان ينصت إلى الرجال وهــم يتحدثون، فانتظر يعد العدة للانقضاض حالما يبلغ الرجال حافة العشــب. انتصب ذيله لدى ســماع أصواتهم وراح ينتفض صعــودا ونزولا، ولم يكد الرجال يبلغون حافة العشــب حتى زأر وانقض.

كان كونغونــي، حامل البنــادق العجوز، فــي الطليعة يقتفي آثار الدم، بينما ولســن يترقب أي حركة في العشــب، وبندقيته جاهــزة، وحامل البنادق الثاني يســتطلع ويتنصت، أما ماكومبر

فقد كان ملازما لولسن وبندقيته في وضعية الإصلاء. وما إن خطوا خطواتهم الأولى داخل الأرض المعشبة حتى سمع ماكومبر زئيرا وحشرجة مخنوقة بالدم ورأى انقضاض الأسد في هفيف الأعشاب. بعدها وجد نفسه يعدو، يعدو مسعورا مذعورا في العراء، يعدو باتجاه الجدول. سمع بندقية ولسن الكبرى تفرقع ثم تلت ذلك فرقعة ثانية، فالتفت ليرى الأسد المرعب، وقد بدا كأن نصف رأسه قد طار، يزحف نحو ولسن عند حافة الأعشاب الطويلة، بينما كان الرجل ذو الوجه الأحمر يزلج رتاج بندقيته القصيرة القبيحة ويسدد بعناية. سمع ماكومبر فرقعة مدوية أخرى تخرج من فوهة بندقية ولسن، فيخر الأسد الزاحف صريعا بجثته الهائلة الصفراء، ورأسه المشوه الهائل ينقذف إلى الأمام. توقف ماكومبر وحده في الفسحة التي هرب إليها، يحمل بندقية مذخرة، بينما كان رجلان أسودان وواحد أبيض ينظران إليه بازدراء. عندها تيقن أن الأسد مات. تقدم نحو ولسن، وكأن طوله الفارغ إدانة صارخة، فنظر إليه ولسن وقال:

«هل تود أن تلتقط صورة؟».

«لا».

كان هذا كل ما قيل إلى أن بلغوا السيارة. حينئذ قال ولسن: «أسد هائل. سيتولى الغلمان سلخه. يجدر بنا الانتظار في الظل».

لم تنظر زوجة ماكومبر إليه ولا هو نظر إليها وهو يأخذ مكانه إلى جانبها في المقعد الخلفي بينما ولسن في المقعد الأمامي. في إحدى المرات مد يده وأخذ يدها في يده من دون أن ينظر

إليهــا فأزاحت يدها من يده. نظر عبر الجــدول إلى حيث كان حاملا البنادق يســلخان الأســد وأدرك أنها رأت كل ما حدث. وبينما هما يجلســـان مالت زوجته إلى الأمام ووضعت يدها على كتف ولسن. التفت إليها فمالت عليه وقبلته.

«يا ســاتر»، قال ولســـن وقد احمر وجهه أكثــر من احمراره الطبيعي.

«السيد روبرت ولسن. الســيد روبرت ولســن، أيـها الوســيم ذو الوجه الأحمر».

ثم جلســت ثانية إلى جانب ماكومبر تنظر إلى الطرف الآخر البعيد للجدول حيث كان الأسد يستلقي على ظهره رافعا ذراعيه المسلوختين بعضلاتهما البيضاء وأوتارهما البارزة، وبطنه الأبيض ينتفخ بينما الرجال الســود يسلخون جلده. وأخيرا جلب حاملا البنادق الجلد إلى الســيارة، وكان رطبــا ثقيلا، ولفاه، ثم صعدا معه إلى مؤخرة السيارة قبل أن تنطلق بهم. لم ينبس أحد بكلمة واحدة إلى أن وصلوا المخيم.

كانت هذه قصة الأســد. لم يعلم ماكومبر ما إحساس الأسد قبل أن ينقض، ولا عندما ارتطمت بفمه تلك الرصاصة بســرعة ابتدائية تساوي طنين، أو القوة التي تدفعه بعد ذلك عندما حطم الارتطــام الثاني المزلــزل وركيه فراح يزحف نحو ذلك الشـــيء المفرقع المتفجر الذي حطمه. لكن ولســن كان يعرف شــيئا عن هذا، فاكتفى للتعبير عنه بقوله، «أســد رائع جدا». لكن ماكومبر لم يكن يعلم ما شعور ولسن تجاه الأمور. ولم يكن يعلم ما شعور زوجته باستثناء أنها سئمته.

لقد سـئمته زوجته أكثر من مرة من قبل لكن ذلك لم يدم. كان ثريا جدا، وسـيزداد ثراء، وكان يعلم أنها لن تهجره أبدا. كان هـذا واحدا من بضعة أشـياء كان يعرفهـا حق المعرفة. كان يعرف ذلك، وكان يعرف عن الدراجات النارية والسيارات وصيد البط والأسـماك بأنواعها، وعن العلاقات في الكتب الكثيرة، وعن رياضات الصالات المغلقة، وعن الكلاب، وقليلا عن الخيول، وعن عدم التفريط بأمواله، وعن معظم الأشـياء الأخرى التي يتعامل بها عالمه، وكان يعلم أن زوجته لن تتركه. كانت زوجته حسـناء رائعة فيما مضـى، ولا تزال كذلك في أفريقيـا، لكنها لم تعد كذلك في بلادهـا ما منعها من تركه وتحسين ذاتها، وكان كلاهما يدرك ذلك. لقد أضاعت فرصة تركـه وكان يـدرك ذلك. لو كان يجيد العلاقات مع النسـاء، لربمـا قلقت من أن يتخذ زوجة جميلة جديدة، لكن ما تعرفه عنه كان أكبر من أن يثير قلقها. كما أنه كان دائما متسـامحا إلى حد كبير، وكان هذا أجمل ما فيه إن لم يكن أكثر ما يثير الشؤم فيه.

عموما كانا معروفين أنهما زوجان سـعيدان نسـبيا، زوجان يشـاع انفصالهما غالبا لكنه لا يحدث، أو كما ورد على لسـان محرر الشـؤون الاجتماعية، كانا يضفيان أكثر من نكهة مغامرة علـى غرامهما الأبدي المحسـود بقيامهما برحلـة صيد إلى ما كان يعرف بأفريقيا المظلمة حتى أنارها مارتن جونسـن وزوجته على كثير من الشاشـات الفضية حيث كانا يتعقبان الأسد سمبا العجـوز، والجواميس، والفيـل تمبو، ويجمعـان عينات لمتحف

التاريخ الطبيعـي[٦]، الصحافي ذاته صـرح في عمود صحافي أنهما بلغا «حافة الهاوية» ثلاث مرات على الأقل، وقد كانا كذلك فعـلا. لكنهما كانا دائما يتصالحـان. كان اتحادهما قائما على أسـاس متين. كانت مارغو جميلة جدا إلى حد لا يجرؤ ماكومبر معـه أن يطلقها، وكان ماكومبر ثريا جدا إلى حد لا تجرؤ مارغو أبدا على تركه.

كانت الساعة قرابة الثالثة صباحا عندما استيقظ فرانسس ماكومبر، بعد أن غفا قليلا بعد أن كف عن التفكير في الأسـد، ثم نام ثانية ثم اسـتيقظ فجأة مذعورا من حلم رأى فيه الأسـد يقف فوقه ورأسـه دام. أنصت وقلبه يخفق، فتبين أن زوجته لم تكن في السـرير الآخر في الخيمة. ظل مسـتيقظا وهو يدرك ذلك لمدة ساعتين.

فـي نهاية هـذا الانتظار دخلـت زوجته الخيمـة. ثم رفعت الناموسية واندست في فراشها الدافئ.

«أين كنت؟» سألها ماكومبر في الظلام.

«مرحبا. هل أنت مستيقظ؟».

«أين كنت؟».

«لقد خرجت لأستنشق الهواء».

«أجل، هذا ما فعلته بالتأكيد!».

«ماذا تريدني أن أقول يا حبيبي؟».

«أين كنت؟».

---

(٦) مارتن جونسـن (١٨٨٤ - ١٩٣٧) وزوجته أوسا جونسن (١٨٩٤ - ١٩٥٣) قاما بعدة رحلات استكشافية إلى أفريقيا بدءا من العام ١٩٢١ وحتى ١٩٣٣، وقد صورا وأخرجا كثيرا من الأفلام الوثائقية عن الحياة البرية والطبيعة الجغرافية لأفريقيا [المترجم].

«خرجت لأستنشق الهواء».

«هذه تسمية جديدة لفعلتك. أنت عاهرة حقا».

«حسنا، وأنت جبان».

«لا بأس، لكن أين المشكلة؟»

«لا مشـكلة بالنسبة إلي. لكن أرجوك أن تكـف عن الحديث، يا حبيبي، لأنني شديدة النعاس».

«تظنين أنني سأتقبل أي شيء».

«أعلم أنك ستفعل، يا عزيزي».

«بل لن أفعل».

«أرجوك يا عزيـزي، دعنا نكف عن الحديث. إنني شـديدة النعاس».

«ظننت أنه لن يحدث أي شـيء من هذا القبيل. لقد وعدتني أنه لن يحدث».

«لكنه الآن حدث».

«لقد قلت إن قمنا بهذه الرحلة فلن يحدث أي شـيء من ذلك القبيل. لقد وعدتني».

«أجـل يا حبيبـي. كان هذا ما نويته. لكنك أفسـدت الرحلة يوم أمـس. وأعتقد أننا لا نريد الخوض فـي هذا الأمر، أليس كذلك؟».

«أنت لا تنتظرين عندما تتاح لك الفرصة، أليس كذلك؟».

«أرجوك أن تكـف عن الحـديث. إنني شـديـدة النـعاس يا حبيبي».

«بل سأتحدث».

«إذن فلا تؤاخذني، لأنني سأنام». ونامت فعلا.

التقى الثلاثة على الإفطار قبل بزوغ الفجر ووجد فرانسس ماكومبر أنه يكره روبرت ولسن أكثر من أي رجل كرهه في حياته، وقد كره كثيرا منهم.

«هل نمت جيدا؟» سأله ولسن بصوته المغمغم، وهو يملأ غليونه.

«وأنت؟»

«في الأعالي»، أجابه الصياد الأبيض[٧].

يا لك من ابن عاهرة، فكر ماكومبر في سره، ابن عاهرة وقح.

إذن لقد أيقظته عندما دخلت، فكر ولسن في سره، وهو يرمقها بعينيه الباهتتين الباردتين. حسن، لماذا لا يضع زوجته في مكانها الصحيح؟ وهل يظنني قديسا مصنوعا من البلاستر؟ ليضع زوجته في مكانها الصحيح. إنها غلطته.

«هل تعتقد أننا سنجد جواميس؟».

سألته مارغو، وهي تبعد صحنا من المشمش.

«ربما»، قال ولسن وهو يبتسم لها. «لماذا لا تبقين في المخيم؟».

«مستحيل».

قالت له.

«لماذا لا تأمرها لكي تبقى في المخيم؟» قال ولسن لماكومبر.

---

(٧) يستخدم ولسن كلمة topping، وتعني اصطلاحا «ممتاز»، لكن لأن في هذا الاستخدام شيئا من التورية المتأتية من جذر الفعل «يعتلي»، آثرت ترجمتها بعبارة «في الأعالي»، لكيلا يضيع على القارئ الحصيف ذلك التلميح الغرامي المبطن [المترجم].

«بل أنت الذي يأمرها»، قال ماكومبر ببرود.

«لنكف عن إعطاء الأوامر»، ثم التفتت إلى ماكومبر، «وعن السخافات، يا فرانسس»، قالت مارغو بمنتهى اللطف.

«هل أنت جاهز للانطلاق؟» سأله ماكومبر.

«في أي وقت تشاء»، رد ولسن. «هل تريد المصاحب أن تأتي معنا؟».

«وما الفرق إن أردت ذلك أم لم أرده؟».

اللعنة، قال روبرت ولسن في سره. اللعنة، اللعنة. إذن هكذا ستسير الأمور. هكذا ستسير الأمور إذن.

«لا فرق»، قال ولسن.

«ألا تريد أنت أن تظل معها في المخيم بينما أذهب أنا لاصطياد الجواميس؟» سأله ماكومبر.

«لا أستطيع ذلك»، قال ولسن. «ما كنت لأتحدث هذا الهراء لو كنت مكانك».

«أنا لا أتحدث هراء، بل أشعر بالقرف».

«القرف كلمة سيئة».

«فرانسس، أرجوك أن تهذب ألفاظك»، قالت زوجته.

«بل ألفاظي مهذبة أكثر مما يجب»، قال ماكومبر. «هل أكلت في حياتك مثل هذا الطعام القذر؟».

«وهل هناك مشكلة في الطعام؟» سأله ولسن بهدوء.

«ليست أكثر مما في سواه».

«على رسلك يا بني»، قال ولسن بهدوء جم. «هناك غلام يفهم قليلا من الإنجليزية».

«ليذهب إلى الجحيم».

وقف ولسن ثم ابتعد متبخترا وهو ينفث دخان غليونه. تحدث إلى أحد حاملي البنادق بالسواحلية الذي كان يقف في انتظاره. ظل ماكومبر وزوجته يجلسان إلى المائدة. كان يحدق في فنجان قهوته.

«إن لم تكبح جماح غضبك، فسأتركك يا عزيزي»، قالت مارغو بهدوء جم.

«لا، لن تفعلي».

«يمكنك أن تجرب وترى».

«لن تتركيني».

«لا»، قالت له. «لن أتركك، وستتصرف بأدب».

«أتصرف بأدب؟ يا سلام. أتصرف بأدب!».

«أجل تتصرف بأدب».

«ولماذا لا تحاولين أنت أن تتصرفي بأدب؟».

«لقد حاولت ذلك طويلا، طويلا جدا».

«أنا أكره ذلك الخنزير ذا الوجه الأحمر»، قال ماكومبر. «إني أبغض رؤيته».

«إنه في الحقيقة لطيف جدا».

«اخرسي»، قالها ماكومبر فيما يشبه الصراخ. في تلك اللحظة وصلت السيارة وتوقفت أمام خيمة الطعام، فترجل سائقها وحاملا البنادق. جاء ولسن ونظر إلى الزوجين وهما يجلسان إلى الطاولة.

«نذهب للصيد؟» سألهما.

«نعم»، قال ماكومبر وهو يقف «نعم».

«من المستحسن أن تجلبي إزارا من صوف، لأن الجو سيكون باردا في السيارة»، قال ولسن.

«سأجلب سترتي الجلدية»، قالت مارغو.

«لقد جلبها الغلام»، قال لها ولسن. صعد من الأمام مع السائق بينما جلس فرانسس وزوجته لا يتحدثان في المقعد الخلفي.

أرجو ألا تراود التافه الحقير فكرة نسف رأسي من الخلف، خطر هذا الخاطر في بال ولسن. النساء مجلبة للنكد في رحلات الصيد.

كانت السيارة تجاهد لعبور النهر عند مخاضة كثيرة الحصى مع خطوط الفجر الأولى، ثم تسلقت الضفة الشاهقة مواربة، حيث كان ولسن قد أمر في اليوم السابق بتمهيد طريق كي يتمكنوا من الوصول إلى المرج المنبسط بأحراجه التي تشبه أحراج المتنزهات.

إنه يوم جميل، قال ولسن في سره. كان الندى كثيفا وكانت دواليب السيارة تسحق الأعشاب والشجيرات المنخفضة، فتنبعث من أوراقها المحطمة رائحة تصل إلى أنفه. كانت الرائحة تشبه رائحة رِعْي الحمام(٨)، فأحب رائحة الندى في هذا الصباح الباكر، والسرخس المسحوق، ومنظر جذوع الأشجار التي تبدو سوداء في ضباب الصباح الباكر، بينما السيارة تشق طريقها عبر المرج الوعر الذي يشبه المتنزهات. لقد شطب الاثنين من تفكيره وراح يفكر في الجواميس. كانت الجواميس التي ينشدها

---

(٨) رعي الحمام: نبات له زهر متعدد الألوان [المترجم].

تمكث نهارا في مستنقع كثيف يجعل صيدها مستحيلا، لكنها ليلا كانت ترعى في فضاء ريفي مفتوح، لذلك سيحاول أن يحول بينها وبين المستنقع وهو في السيارة، لعل ماكومبر تتاح له فرصة طيبة لاقتناصها في العراء. لم يكن يرغب في اصطياد الجواميس مع ماكومبر وهي في مكمن كثيف. لم يكن يرغب إطلاقا في اصطياد الجواميس أو سواها مع ماكومبر، لكنه صياد محترف وقد اصطاد مع بعض الناس النادرين في زمانه. وإن اصطادا الجواميس اليوم، فلن يبقى أمامهما سوى الكركدن وسيكون المسكين قد خاض لعبته الخطيرة وقد تتحسن الأمور. عندها لن يكون له شأن آخر مع المرأة ويستطيع ماكومبر أن يتجاوز هذا الأمر أيضا. لا بد أنه مر بكثير من هذا القبيل في الماضي فيما يبدو. البائس المسكين. لا بد أنه سيجد سبيلا لتجاوز هذه الأمور. على أي حال، هذا خطؤه هو، البائس المسكين.

كان روبرت ولسن يحمل سريرا مزدوجا في أسفاره، تحسبا لأي طارئ تحمله إليه الريح. كان زبائنه الذين يصطاد لهم من نوع خاص: زبائن عالميون، متجولون، لاهون تعتقد نساؤهم أن الأجر الذي يدفعنه إلى ذلك الصياد الأبيض باهظ جدا ما لم يقاسمنه فراشه. كان يحتقرهم عندما يبتعدون عنه، مع أنه أحب بعضهم في حينه، لكنه كان يعتاش منهم، وكانت معاييرهم هي ذات معاييره ما دام يعمل لديهم بأجر.

كانت معاييرهم هي معاييره في كل شيء إلا الصيد. كانت له معاييره الخاصة في القتل وكان عليهم أن يقبلوها أو يبحثوا عن صياد آخر. وكان يعلم أيضا أنهم جميعا يحترمونه لهذا. بيد أن

ماكومبر هذا رجل غريب الأطوار. عليه اللعنة إن لم يكن كذلك. والآن إلى الزوجة. حسن، الزوجة. أجل، الزوجة. آه، الزوجة. حسنا لقد تناسى الموضوع كلية. نظر إلى كليهما. كان ماكومبر يجلس عابسا غاضبا. ابتسمت له مارغو. فبدت اليوم أكثر شبابا وبراءة وإشراقا، لكنها لم تكن محترفة للجمال كالعادة. لا أحد يعلم مكنونات قلبها إلا الله، قال ولسن في سره. لم تتحدث كثيرا الليلة الفائتة. ولهذا كانت رؤيتها تدخل السرور إلى القلب.

تسلقت السيارة مرتفعا بسيطا وتابعت طريقها عبر الأشجار ثم دخلت فسحة معشبة تشبه المروج وظلت تحتمي بالأشجار المحاذية للحافة. كان السائق يسير ببطء، بينما كان ولسن يتفحص المرج وطرفه البعيد بعناية. أوقف السيارة وعاين الفسحة بمنظاره. ثم أومأ للسائق ليتابع المسير، فانطلقت السيارة ببطء بينما كان السائق يتفادى الوقوع في جحور الخنازير الوحشية ويلتف حول قلاع الطين التي بناها النمل. نظر ولسن عبر الفسحة والتفت فجأة وقال:

«ها هي وحق الله!»

نظر ماكومبر إلى حيث أشار ولسن، فرأى ثلاثة حيوانات سوداء هائلة، أسطوانية الشكل تقريبا في ثقلها المتطاول، كصهاريج سوداء كبيرة، تعدو عند الطرف البعيد للمرج الشاسع. رأى ماكومبر كل هذا بينما كانت السيارة تقفز إلى الأمام وولسن يمطر السائق بوابل من السواحلية. كانت تعدو متصلبة الرقاب والأجساد، فرأى قرونها السوداء الواسعة المرتدة نحو الأعلى فوق رؤوسها المصوبة نحو الأمام بلا حراك.

«إنها ثلاثة ثيران عجائز»، قال ولسن. «سنقطع عليها الطريق قبل أن تبلغ المستنقع».

كانت السيارة تنطلق بسرعة جنونية تبلغ خمسة وأربعين ميلا في الساعة في المرج الشاسع، فلاحظ ماكومبر أن ثيران الجواميس يزداد حجمها تدريجيا حتى صار في إمكانه أن يتبين أن أحد الثيران، وكان ثورا هائلا ورمادي اللون، كان أجرب وأمرد. كما رأى أيضا كيف تتصل رقبته بكتفيه، وكيف كان قرناه الأسودان يلتمعان وهو يعدو خلف الثورين الآخرين قليلا، تفصل بين الواحد والآخر مسافة منتظمة أثناء عدوهما الثابت السرعة. وعندما تمايلت السيارة، اقتربت الثيران منهم، وصار في إمكانه أن يرى ضخامة الثور المندفع والغبار الذي يكسو جلده الأمرد تقريبا، وحدبة قرنيه العريضين وخطمه الممدود ذا المنخارين العريضين. راح يصوب بندقيته عندما صاح به ولسن، «ليس من السيارة، أيها الأحمق!» لكنه لم يشعر بالخوف من ولسن، بل بالحقد فقط. داس السائق على المكابح فراحت السيارة تنزلق وتحرث الأرض وتكاد تتوقف، فترجل ولسن من ناحية وماكومبر من الأخرى وتعثر لأن قدميه لامستا الأرض والسيارة لا تزال تسير. ابتعد عن السيارة وراح يطلق النار على الثور ويسمع الطلقات ترتطم به حتى أفرغ كامل ذخيرته فيه، وكان يبتعد بخطوات ثابتة، فتذكر أن عليه أن يسدد إلى كتفيه. وبينما كان يحاول إعادة تذخير بندقيته وهو مرتبك، رأى الثور ينطرح أرضا. جثا الثور على ركبتيه ورأسه الهائل يتأرجح، بينما الثوران الآخران لا يزالان يعدوان. سدد

ماكومبر علـــى أولهما فأصابه. أطلق ثانية ولم يصب، فســـمع فرقعة مدوية عندما أطلق ولســـن النار ورأى الثور الأول يكدي على خطمه.

«عليك بالآخر»، قال ولسن. «الآن أصبحت راميا!»

لكـــن الثور الآخر ظل يعدو بخطى ثابتة كما من قبل، فأخطأ ماكومبر الإصابة، وأثار زوبعة من الغبار. أخطأ ولســـن الإصابة وارتفعت ســـحابة من الغبار وصاح ولســـن، «هيا بنـــا. إنه بعيد جدا!» وأمســـك به وراحـــا يتأرجحان يمنة ويســـرة فوق الأرض الوعـــرة ويقتربان من الثور المنطلق بخط مســـتقيم وخطى ثابتة ورقبة ثقيلة.

صارا خلفه وكان ماكومبر يذخر بندقيته فتســـقط الطلقات منه على الأرض، وتستعصي البندقية، فيفك الاستعصاء. وعندما كادا يلحقان بالثور، صاح ولســـن «قف!» فانزلقت الســـيارة حتى كادت تنقلب، وقفـــز ماكومبر إلى الأمام، ورفع الرتاج إلى الأمام بقوة وراح يطلق النار على ظهر الثور الأســـود المســـتدير الهارب أمامه. سدد ثم أطلق ثانية، وثانية، ولم ير لرصاصته التي أصابت هدفهـــا جميعا أي أثر في الثور. ســـدد ماكومبر بعناية ثم أطلق النار ثانية فرأى الثور ينطرح أرضا على ركبتيه.

«رائع»، قال ولسن. «عمل رائع. قتلنا الثلاثة».

سَكِر ماكومبر من فرط الفرح.

«كم مرة أطلقت؟» سأل.

«ثلاثـــا فقط»، قال ولســـن. «أنـــت قتلت الثـــور الأول. الثور الأكبر. وأنا ســـاعدتك في القضاء على الاثنين الآخرين. خشيت

أن يحتميـــا بملاذ آمن. لكنك أنت الذي قتلتهما كليهما. أنا كنت أنظف وراءك فقط. لقد كنت راميا رائعا».

«دعنا نذهب إلى السيارة»، قال ماكومبر «أريد أن أشرب».

«علينـــا أن ننتهي من هذا الجاموس أولا»، قال ولســـن. كان الثور على ركبتيه، فهز رأسه بغضب وأطلق خوارا مدويا واتسعت عيناه كعيني خنزير من الغضب عندما توجها نحوه.

«حـــذار من أن ينهض»، قال ولســـن. ثـــم أردف قائلا، «خذه مجانبة وسدد على رقبته خلف الأذن مباشرة».

ســـدد ماكومبر بعناية على منتصـــف الرقبة الهائلة المنتفضة غضبا وأطلق النار، فمال الرأس إلى الأمام.

«قضي الأمر»، قال ولســـن. «لقد أصبت العمود الفقري. إنها مخلوقات رائعة، أليس كذلك؟».

«دعنا نتناول الشراب»، قال ماكومبر. لم يشعر في حياته قط بمثل هذا الرضا.

كانت زوجة ماكومبر تجلس في الســـيارة شاحبة الوجه جدا. «لقد كنت رائعا، يا حبيبي»، قالت لماكومبر. «يا لها من رحلة!».

«هل كانت قاسية؟» قال ولسن.

«كانت مخيفة. لم أشعر في حياتي بمثل هذا الرعب».

«دعونا نتناول الشراب جميعا»، قال ماكومبر.

«ولم لا؟».

قال ولســـن، «أعطه للممصاحب». شـــربت الشـــراب الأنيق من الزجاجة وارتعشـــت قليلا عندمـــا تجرعته. ناولت الزجاجة لماكومبر الذي ناولها بدوره لولسن.

«كان الأمـــر مثيرا إلـــى درجة مرعبة»، قالـــت. «لقد أصبت بصداع رهيب من جراء ذلك. لكني لم أكن أعلم أنه يحق لكم أن تصيدوهما من السيارة».

«لم يطلق أحد منا النار من السيارة».

«في العادة لا نفعل»، قال ولســـن. «لقـــد بدا الأمر ممتعا لي ونحـــن في غمرته. كنا نخاطر أكثر والســـيارة تعبر بنا الســـهل الممتلئ بالحفر وسواها مما لو كنا نصيد راجلين. كان في إمكان الجاموس أن يهجم علينا كلما أطلقنا عليه لو شـــاء. أعطيناه كل فرصة. لكن علينا ألا نذكر هـــذا الأمر لأحد. فهو محرم قانونا إن كان هذا ما تقصدين».

«لقد بدا لي أنه من الجور أن تطاردوا بسيارتكم تلك المخلوقات الضخمة وهي بلا حول أو قوة».

«حقا؟» سألها ولسن.

«ماذا سيحدث لو علموا بذلك في نيروبي؟».

«أولا ســـأفقد رخصتي، فضلا عـــن المنغصات الأخرى»، قال ولسن وهو يأخذ جرعة من الزجاجة. «سأصبح بلا عمل».

«حقا؟».

«نعم، حقا».

«حسن»، قال ماكومبر وابتسم لأول مرة في ذلك اليوم. «لديها الآن ما تقوله عنك».

«فرانسس، لديك أسلوب رائع في التعبير عن الأشياء»، قالت مارغو ماكومبر. نظر ولســـن إلى كل منهما، وقال في ســـره، إذا تزوج رجل بذيء من امرأة تفوقه بذاءة، فما نصيب أولادهما من

البــذاءة؟ لكنه علانية قال، «لقد فقدنا أحد حاملي البنادق. هل انتبهتما إلى ذلك؟».

«يا إلهي، لا!»

«ها هو يأتي»، قال ولسن. «إنه بخير. لا بد أنه سقط عندما تركنا الثور الأول».

كان الرجــل، الذي يبلغ من العمر أوســطه، يقترب منهم وهو يعرج، معتمرا قبعة منســوجة، ويرتدي سترة وبنطالا قصيرا من الكاكي، وصنــدلا مطاطيا، مكفهر الوجــه قرفا. وعندما وصل نادى على ولســن بالســواحلية، فرأى الجميع كيــف تغير وجه الصياد الأبيض.

«ماذا يقول؟» سألت مارغو.

«يقول إن الثــور الأول نهض واختفى بين الشــجيرات»، قال ولسن بصوت يخلو من أي تعبير.

«أوه»، قال ماكومبر مرتبكا.

«إذن، ســيكون ثور اليوم كأســد البارحة»، قالت مارغو وهي مفعمة بالترقب.

«لا، لن يكون الأمر كذلك على الإطلاق»، رد عليها ولسن.

«هل تريد جرعة أخرى يا ماكومبر؟»

«نعــم، شــكرا»، قــال ماكومبــر. كان يتوقع أن تعــاوده تلك القشــعريرة التي أثارها فيه الأســد، لكنها لم تعاوده. لأول مرة في حياته شــعر حقا أنه بلا خوف. بل كان يشعر بالابتهاج الذي لا لبس فيه.

«سنذهب ونلقي نظرة إلى الثور الثاني»، قال ولسن. «سأقول

للسائق أن يضع السيارة في الظل».

«ماذا ستفعلان؟» سألت مارغرت ماكومبر.

«سنلقي نظرة على الجاموس»، قال ولسن.

«سآتي معكما».

«هيا بنا».

سار الثلاثة إلى حيث كان الثور الثاني يرقد بجثته السوداء المنتفخة في العراء، ورأسه إلى الأمام في العشب، وقرناه الهائلان ملتويان.

«له رأس جيد جدا»، قال ولسن. «يبلغ عرضه خمسين بوصة تقريبا».

كان ماكومبر ينظر إليه بابتهاج.

«إنه كريه المنظر»، قالت مارغو «ألا يمكننا أن نقف في الظل؟».

«طبعا»، قال ولسن. «انظر»، قال لماكومبر وأشار بيده.

«هل ترى تلك الرقعة المشجرة؟».

«أجل».

«هناك راح الثور الأول. يقول حامل البنادق إنه عندما سقط من السيارة كان الثور طريحا على الأرض. كان يراقبنا ونحن نطارد الثورين الآخرين مطاردة جنونية. وعندما رفع ناظريه رأى الثور واقفا يتطلع إليه. ركض حامل البنادق كالمسعور وتوارى الثور على مهل في تلك الشجيرات».

«هل في إمكاننا أن نتعقبه الآن؟» سأله ماكومبر متلهفا.

نظر إليه ولسن نظرة متفحصة. عليّ اللعنة إن لم يكن هذا

المخلوق غريــب الأطوار، قال في ســره. البارحة كان يرتعد من الخوف، واليوم يتلهف للقتال.

«لا، سنعطيه قليلا من الوقت».

«أرجوكما، دعونا نذهب إلى الظل»، قالت مارغو. كان وجهها شاحبا وبدت كأنها مريضة.

شــقوا طريقهم إلى الســيارة التي كانت تقف تحت شــجرة منفردة واسعة في امتداد أغصانها، وصعدوا إليها جميعا.

«ربما مات هناك»، قال ولسن. «سنلقي نظرة بعد قليل».

أحس ماكومبر بسعادة مفرطة تفوق التصور، سعادة لم يحس بها من قبل.

«قســما، لقد كانت مطاردة رائعة. لم أشعر بهذا الشعور في حياتي. ألم تكن رائعة يا مارغو؟».

«لقد كرهتها»، قالت بمرارة. «لقد كرهتها».

«هل تعلم أنني لا أظن أنني سأخاف من أي شيء بعد اليوم»، قال ماكومبر لولســن. «حدث شــيء في داخلي بعد أن شاهدنا الجاموس في البداية ورحنا نطارده. كأنه سد ينفجر. كانت إثارة خالصة».

«تطهر كبدك»، قال ولسن. «أمور مضحكة تحدث للبشر».

كان وجه ماكومبر يشــع إشــعاعا. «أنت تعلم أن شيئا حدث لي»، قال. «أشعر أنني شخص آخر تماما».

لم تقل زوجته شــيئا، بل رمقته باستغراب. انزوت إلى أقصى ما تســتطيع في مقعدها الخلفي بينمــا كان ماكومبر يميل نحو الأمام ويتحدث مع ولسن الذي كان يلتفت يمينا وشمالا ليتجاذب

أطراف الحديث مع ماكومبر من فوق ظهر المقعد الأمامي.

«هـــل تعلم أنني أريـــد أن أجرب حظي مع أســـد آخر؟» قال ماكومبـــر. «في الحقيقة أنا الآن لم أعد خائفا منها. في النهاية ماذا يمكنها أن تفعل؟».

«تماما»، قال ولســـن. «أســـوأ ما في الأمر أنها تســـتطيع أن تقتلك. ماذا يقول شكسبير؟ لديه قول رائع. لنر إن كنت أتذكره. أوه، إنه قول رائع. كنت أستشـــهد به لنفســـي في يوم من الأيام. دعنا نر. أقسم إنني لا أبالي، فالمرء لا يموت إلا مرة واحدة. إننا مدينون لله بميتة واحدة، ولتكن بأي شـــكل تشاء. فمن يمت هذه السنة ينج في القادمة(٩)، قول رائع، أليس كذلك؟».

شعر بحرج شـــديد بعد أن أفصح عن هذا المبدأ الذي عاش بموجبه، لكنـــه رأى رجالا ينضجون من قبـــل وكان دائما يتأثر. فالأمر لا يتعلق بعيد ميلادهم الحادي والعشرين.

لكـــي يتحقق هــــذا عند ماكومبر اســـتلزم الأمر فرصة صيد غريبـــة وانخراطا مفاجئا في ســـاحة المعركة من دون أن تتاح له فرصة للقلق مســـبقا، لكن المهم هو أنه تحقق فعلا وبغض النظر عـــن الكيفية التي تحقق فيها. انظـــر إلى هذا البائس الآن، قال ولسن في سره. المسألة هي أن بعضهم يبقون فتيانا صغارا لفترة طويلة. طـــوال حياتهم أحيانا. هيئتهم تبقـــى صبيانية وهم في الخمسين. ها هم الرجال - الصبيان الأمريكيون العظماء. أناس غريبو الأطـــوار. لكنه الآن يحب ماكومبر هذا. شـــخص غريب

(٩) هذا الاقتباس الذي لا يورده ولســـن حرفيا هنا مأخوذ من الجزء الثاني من مسرحية «الملك هنري الرابع». انظر الفصل الثالث، المشهد الثاني من هذه المسرحية [المترجم].

جــدا. لعل ذلك يعني أنه لن يكون ديوثا بعد اليوم. لا بأس، ففي هـــذا خير. فيه خير كبير. ربما كان التعيس خائفا طوال حياته. لا يعرف كيــف بدأ الأمر لكنه انتهى الآن. لــم يكن لديه الوقت ليخـــاف من الجواميس. هـــذا فضلا عن الغضب. أو الســـيارة أيضا. السيارات تضفي شيئا من الألفة. فليكن مقاتلا مشاكسا الآن. لقد رأى أن الحرب تصنع الشـــيء ذاته. إنه تغيير أكثر مما هـــو فقدان للبراءة. يزول الخوف كما في عملية جراحية، فينمو شيء آخر في مكانه. وهذا أهم ما يملكه الرجل: أن يكون رجلا. النساء تعرف هذا. وداعا أيها الخوف المقيت.

مـــن زاوية مقعدها البعيدة نظـــرت مارغرت ماكومبر إلى كل منهما. لم يطرأ تغيير على ولسن. كان كما رأته في اليوم السابق عندما أدركت للمرة الأولى سر موهبته العظيمة. لكنها رأت الآن أن فرانسس ماكومبر قد تغير.

«هل تحس بالسعادة وأنت تترقب ما سيحدث؟» سأل ماكومبر وهو لا يزال يستكشف ثروته الجديدة.

«لا يفترض أن تتحدث عنها»، قال ولســـن وهو يتفحص وجه ســـائله. «الدارج أكثر أن تقول إنك خائف. وليكن في علمك أنك ستخاف أيضا، كثيرا من الأحيان».

«لكنك تغتبط للمعركة المقبلة، أليس كذلك؟».

«بلى»، قال ولســـن. «لا شـــك في ذلك. لكـــن الحديث كثيرا عن هذا لا يجدي. يفقده متعته. لا متعة في شـــيء تتحدث عنه كثيرا».

«أنتما الاثنان تتحدثان هراء»، قالت مارغو. «لأنكما طاردتما

حيوانات لا حول لها ولا قوة بالسيارة تتحدثان كالأبطال».

«آســـف»، قال ولسن. «كنت أتبجح كثيرا». إذن، هي قلقة منذ الآن، قال في سره.

«إذا كنت لا تعلمين عما نتحدث، لماذا تحشـــرين أنفك؟» قال ماكومبر لزوجته.

«لقد أصبحت شجاعا مهابا فجأة؟» ردت عليه زوجته بازدراء، لكن ازدراءها لم يكن قويا. لقد كانت تخشى شيئا ما.

قهقه ماكومبر قهقهة طبيعية خارجة من أعماقه وقال، «أنت تعلمين أنني أصبحت كذلك. لقد صرت كذلك بالفعل».

«ألم يأت ذلك متأخرا إلى حد ما؟» قالت مارغو بمرارة. لأنها بذلت في الماضي أقصى ما في وســـعها لعدد من الســـنين، فلا يوجد شخص بمفرده يتحمل مســـؤولية كيف آلت الحال بينهما الآن.

«ليس بالنسبة إلي»، قال ماكومبر.

لم تقل مارغو شيئا، لكنها انزوت في مقعدها.

«هل تعتقد أننا أعطيناه ما يكفي من الوقت؟» ماكومبر ســـأل ولسن بمعنويات عالية.

«ســـنلقي نظـــرة»، قال ولســـن. «هـــل بقيت لديـــك طلقات مصمتة؟».

«عند حامل البنادق بعض منها».

نادى ولسن بالســـواحلية فاعتدل حامل البنادق الأكبر، الذي كان يســـلخ أحد الرأسين، وأخرج علبة طلقات مصمتة من جيبه وناولهـــا لماكومبر الذي مـــلأ مخزن بندقيته ووضـــع الباقي في

جيبه.

«يجدر بك أن تستخدم بندقية سبرنغفيلد»، قال ولسن. «فأنت معتاد عليها. وسنترك بندقية مان لكر في السيارة عند المصاحب. يستطيع حامل بنادقك أن يحمل بندقيتك الثقيلة. أنا عندي هذا المدفع اللعين. والآن دعني أخبرك عن الجواميس».

لقد أجل هذا حتى اللحظة الأخيرة لأنه لم يرد أن يقلق ماكومبر.

«عندما يقبل الثور يقبل ورأسه مرفوع وممدود إلى الأمام بشكل مستقيم. تشكل قاعدة القرنين درعا ضد أي إصابة في الدماغ. لذلك فإن خيارك الوحيد هو أن تطلق على خطمه. خيارك الثاني أن تطلق على زوره أو، إن جئته مجانبة، على رقبته أو كتفيه. ليس قتله بالأمر السهل بعد إصابته الأولى. لا تحاول أي شيء من قبيل الاستعراض. اغتنم أسهل الفرص. لقد انتهيا من سلخ ذلك الرأس الآن. هل نبدأ؟».

نادى على حاملي البنادق، فجاءا وهما يمسحان أيديهما، وصعد أكبرهما إلى مؤخرة السيارة.

«سآخذ كونغوي فقط»، قال ولسن. «أما الآخر فسيبقى للحراسة وإبعاد الطيور».

كانت السيارة تسير ببطء عبر الفضاء المفتوح نحو جزيرة من الأشجار الكثيفة الأغصان والأوراق بمحاذاة مجرى مائي جاف يخترق المنخفض الفسيح. شعر ماكومبر بأن نبضات قلبه تتسارع وريقه يجف مرة أخرى، لكن بسبب الإثارة لا الخوف.

«لقد توارى هنا»، قال ولسن. ثم قال لحامل البنادق

بالسواحلية، «اتبع أثر الدم».

وقفت السيارة بموازاة بقعة الأشجار، وترجل ماكومبر وولسن وحامل البنادق. تطلع ماكومبر إلى الوراء ورأى زوجته تتطلع إليه والبندقية بجانبها. لوح إليها بيده لكنها لم تلوح له.

كانت الأغصان المقطعة كثيفة أمامهم وكانت الأرض جافة. كان حامل البنادق المتوسط العمر يتصبب عرقا غزيرا وكانت قبعة ولسن مسدلة فوق عينيه ورقبته الحمراء بادية أمام ناظري ماكومبر. فجأة قال حامل البنادق شيئا بالسواحلية لولسن وراح يعدو.

«إنه ميت هناك»، قال ولسن. «عمل رائع»، ثم التفت ليمسك بيد ماكومبر. وبينما هما يتصافحان ويبتسمان صاح حامل البنادق باهتياج وشاهداه يخرج من الأجمة على جنبه بسرعة. انقض عليهم ممدود الخطم، مزموم المشفرين، نازفا، هائل الرأس، أحمر العينين، صغيرهما. كان ولسن في الطليعة يطلق النار وهو جاث، وكان ماكومبر يطلق لكنه لا يسمع صوتا لرماياته بسبب دوي مدفع ولسن، بل يرى شظايا تتطاير كندف الثلج من قاعدة القرنين الهائلة والرأس يرتج. أطلق ثانية على المنخارين المتسعين ورأى القرنين يرتجان ثانية والشظايا تتطاير. لم يعد يرى ولسن، فسدد بعناية وأطلق ثانية عندما كاد جسد الثور يدركه واستوت بندقيته مع رأس الثور وخطمه المنقضين. صار في مقدوره أن يرى عينيه الصغيرتين الشريرتين عندما راح رأس الثور ينخفض، وشعر بشيء ملتهب ينفجر داخل رأسه فجأة ويلتمع التماعا يعمي الأبصار. كان هذا آخر ما شعر به.

راوغ ولســـن إلى أحد الجانبين لعله يسدد طلقة في كتفه. وقف ماكومبر ثابتا يســـدد على الخطم، وفي كل مرة ترتفع رمايته قليلا، فيصيب القرنين الهائلين ويشظيهما كأنه يصيب سقفا أردوازيا[١٠]. كانت السيدة ماكومبر تجلس في السيارة، وعندما رأت أن الثور على وشك أن يبقر بطن زوجها تناولت بندقية مان لكر ذات العيار ٦,٥ وأطلقت النار على الثور فأصابت زوجها في أسفل جمجمته[١١].

رقد فرانسس ماكومبر الآن مكبا على وجهه على مسافة أقل من ياردتين من الثور، فانحنت زوجته عليه جاثية وإلى جانبها ولسن.

«يجدر بك ألا تقلبيه»، قال ولسن.

كانت المرأة تنتحب بصورة هستيرية.

«عودي إلى السيارة»، قال ولسن. «أين البندقية؟».

هزت رأســـها والألم يعتصـــر وجهها. التقط حامـــل البنادق البندقية من الأرض.

«اتركها كما هي»، قال ولسن، ثم أردف، «اذهب وأحضر عبد الله كي يكون شاهدا على الحادثة».

جثـــا على ركبتيه وأخرج منديلا من جيبـــه، وألقاه على رأس فرانســـس ماكومبر الحليق على طريقة العســـكر. غار الدم في الأرض الهشة الجافة.

وقف ولســـن فرأى الثور إلى جانبه، ممدود الأرجل، والقراد يزحـــف على بطنه الخفيفة الشـــعر. «إنه ثـــور رائع»، خطر في

---

(١٠) الأردواز صخر يسهل تقطيعه إلى ألواح تكسى بها السقوف [المترجم].

(١١) مـــن الواضح أن همنغواي يوظف المدلولات الصوتية الكامنة في لفظ اســـم هذه البندقية النمســـاوية توظيفا موفقا، حيث إن قارئ الإنجليزية عندما يســـمع كلمة «مان لكر» هذه (وهي لفظـــة ألمانيـــة)، يفهم أنها «صائدة الرجال»، ولو أرخى العنـــان لخياله قليلا، وبدل موقعي اللام والكاف بحيث تصبح «مان كلر»، فإنه سيفهم أنها «قاتلة الرجال» [المترجم].

باله تلقائيا. «خمسون بوصة تامة أو أحسن. أحسن». نادى على السائق وأمره بأن يغطي الجثة ببطانية ويبقى إلى جانبها ثم ذهب إلى السيارة حيث كانت المرأة تنزوي باكية.

«خير ما فعلت»، قال في صوت خال من النبرة. «كان سيتركك هو أيضا».

«كفى»، قالت.

«طبعا، كانت تلك مجرد حادثة غير مقصودة. أنا أعرف هذا».

«كفى»، قالت.

«لا تقلقي»، قال. «لن يخلو الأمر من بعض المنغصات، لكني سألتقط بعض الصور التي ستفيدك أثناء التحقيق. وسيكون حاملا البنادق والسائق شهودا أيضا. ستكونين على خير ما يرام».

«كفى»، قالت.

«أمامنا شغل كثير»، قال لها. «وعلي أن أرسل شاحنة إلى البحيرة لتبرق إلى طائرة كي تقلنا نحن الثلاثة إلى نيروبي. لماذا لم تسمميه؟ هذا ما يفعلنه في إنجلترا».

«كفى. كفى. كفى»، قالت المرأة وهي تنتحب.

نظر إليها ولسن بعينيه الزرقاوين الباهتتين.

«لقد اكتفيت الآن»، قال لها. «لقد غضبت قليلا، إذ بدأت أحب زوجك».

«أوه، أرجوك أن تتوقف»، قالت له. «أرجوك كف عن هذا».

«هذا أفضل»، قال ولسن. «كلمة أرجوك أفضل بكثير. والآن سأتوقف».

عاصمة الدنيا
[١٩٣٦]

مدريد ممتلئة بالصبيان الذين يدعون پاكو، وهو تصغير لاسم فرانسسكو، وهناك نكتة مدريدية تقول إن والدا وضع إعلانا في باب الإعلانات الشخصية في صحيفة «إل ليبرال» يقول: «پاكو، قابلني في فندق مونتانا منتصف نهار الثلاثاء، وعفا الله عما مضى، بابا».

وهكذا استُدعيت سَرية من الحرس المدني لتفريق ثمانمائة شاب لبى نداء والده. لكن پاكو هذا، الذي يعمل نادلا في فندق لواركا، ليس لديه والد يصفح عنه، ولم يرتكب شيئا يستوجب صفح والده. كان لديه أختان أكبر منه وتعملان خادمتين في الفندق ذاته، وقد حصلتا على عملهما بمساعدة خادمة قبلهما من قريتها الصغيرة، وكانت تعمل بجد ونزاهة أكسبت قريتها وكل ما تنتجه سمعة حسنة. دفعت هاتان الأختان له أجرة الباص الذي نقله إلى مدريد كي يعمل نادلا متدربا. تقع قريته في ناحية من نواحي إكستراماديورا(١٢)، حيث الأوضاع بدائية تفوق التصور، والطعام شحيح، والرفاهية معدومة، وكان يعمل بجد منذ نعومة أظفاره.

كان سليم البنية له شعر أسود مجعد نوعا ما، وأسنان سليمة، وبشرة تحسده عليها أختاه، وكان دائم الابتسامة. كان سريع الحركة، يعمل بإتقان، ويحب أختيه اللتين كانتا تتمتعان بشيء

---

(١٢) تقع منطقة إكستراماديورا في أقصى الجنوب الإسباني (أو ما يعرف بمنطقة الأندلس) [المترجم].

من الجمال والذوق الرفيع. أحب مدريد، وكانت لاتزال ضربا من الخيـال، وأحب عمله الذي بدا له رومانسـيا جميلا في جو من الأضواء البراقة والبياضات النظيفة والملابس المسائية والطعام المتوافر بكثرة في المطبخ.

كان عـدد النزلاء في الفندق يتراوح بين ثمانية واثني عشـر وكانوا يتناولون طعامهم في صالة الطعام، لكن پاكو، وهو أصغر الندل الثلاثة، لم يشعر إلا بوجود مصارعي الثيران.

كان مصارعـو الثيران من الدرجة الثانية ينزلون في هذا الفندق بسبب موقعه في زقاق سان خيرونيمو، ونوعية طعامه الممتازة، ورخص الإقامة فيه(١٣). ومن الضروري لمصارع الثيران أن يبدو محترما على الأقل، إن لم يكن ميسـورا، إذ إن الذوق والوقار هما أسمى الفضائل في إسبانيا ويتفوقان على الشجاعة. وكان مصارعو الثيران يقيمون في لواركا حتـى ينفقوا آخر بيزيتا في جيوبهم. ولا يذكر التاريخ أن مصارعا غادر لـواركا إلى فندق أفضل أو أعلى. فمصارعو الدرجة الثانية لم يصبحوا قط مصارعين من الدرجة الأولى، لكن النزول من لواركا كان سـريعا ما دام في إمكان أي شـخص مهما كان دخله أن يقيم هنا، وما دامت الفاتورة لا تقدم إلى النزيل من دون طلبه، حتى تجزم مديرة الفندق أن الوضع ميؤوس منه.

في هذا الوقت كان ينـزل في لواركا ثلاثة ماتادورات كاملين وپيكادوران جيدان جدا وقاذف سهام ممتاز(١٤)، كانت الإقامة في

---

(١٣) يقع شارع سان خيرونيمو قريبا من ميدان «بوابة الشمس» في وسط مدريد [المترجم].

(١٤) الماتـادور هو المصارع الذي يقتل الثور، بينما الپيـكادور هو فارس يفتتح مصارعة الثيران بتهييـج الثور بوخز الرماح ليوهن عضلات عنقه وكتفيه: أما قاذف السـهام فيقتصر دوره على قذف السهام في أثناء المصارعة، ويكون راجلا [المترجم].

لواركا ضربا من الترف بالنسبة إلى البيكادورات وقاذفي السهام الذين كانت عائلاتهم تسكن في إشبيلية، وكانوا في حاجة إلى مسكن في مدريد خلال موسم الربيع. لكنهم كانوا يتلقون رواتب جيدة ووظيفتهم ثابتة لدى مصارعين لديهم عقود وفيرة خلال الموسم المقبل، وقد يجني كل واحد من هؤلاء الردفاء الثلاثة أكثر مما يجنيه أي من الماتادورات الثلاثة. كان أحد الماتادورات مريضا ويحاول إخفاء مرضه، والثاني عفا عليه الزمن، والثالث كان جبانا.

كان الجبان في يوم من الأيام يتمتع بشجاعة استثنائية ومهارة فائقة. كان ذلك قبل أن يطعنه قرن ثور طعنة شنيعة جدا في أسفل بطنه. وهو لا يزال يحتفظ بكثير من عبارات اللباقة والكياسة من أيام تفوقه. كان محبا للمرح إلى حد الإفراط، وكان دائم الضحك بسبب وبلا سبب. وكان مدمنا، أيام نجاحه، على الاستهزاء بالآخرين، لكنه أقلع عن هذه العادة الآن.

بلغ استهزاؤه حد الوقاحة لكنه لم يشعر بذلك. كان لهذا الماتادور وجه ينم عن الذكاء والانفتاح التام، كما كان يحرص على الترفع والتأنق.

كان الماتادور المريض حريصا على إخفاء مرضه وعلى تناول القليل من كل الأطعمة على المائدة. كان لديه عدد كبير من المناديل وكان ينظفها بنفسه في غرفته، وقد راح أخيرا يبيع ما يملك من بذلات رياضية. لقد باع واحدة بثمن بخس قبل عيد الميلاد وأخرى في الأسبوع الأول من أبريل. كانتا بذلتين غاليتين جدا وكان يعتني بهما جيدا، ولم يبق لديه الآن سوى واحدة. كان

قبل مرضه مصارعا واعـدا جدا بل مثيرا، وعلى الرغم من أنه كان لا يقرأ بيد أنـه كان يحتفظ بقصاصات من الصحف تقول إنه في ظهوره الأول كان أفضل من بلمونتيي(١٥)، كان يأكل وحده على مائدة صغيرة ولا يرفع ناظريه إلا قليلا.

أما الماتادور الذي كان بدعة زمانه، فقد كان قصيرا جدا، داكن البشرة، ووقورا جدا. كان أيضا يتناول طعامه على طاولة منفردة، لا يبتسم إلا نادرا جدا، ولا يضحك قط. إنه من بايدوليد(١٦) التي يعرف أهلها بالجدية الصارمة، وكان ماتدورا كفؤا. لكن أسـلوبه سـرعان ما تقـادم عليه الزمن حتى قبـل أن ينجح في اجتذاب النـاس إليه من خلال فضيلتي الشـجاعة والكفاءة الهادئة، ولم يعد اسـمه على الملصقات يجتذب أحـدا إلى حلبة المصارعة. أما سـر البدعة فيـه فيكمن في كونه قصيرا جـدا إلى درجـة أنه لا يسـتطيع أن يرى أعلى من سـنام الثـور، لكن كان هناك مصارعون قصار آخرون، فلم يفلح في استمالة أهواء الجمهور.

كان أحـد البيكادورين رجلا نحيفا، أشـيب الشـعر، له وجه صقر، رقيق البنية لكن سـاقيه وذراعيـه كالحديد، وكان دائما ينتعل أحذية الرعاة تحت سـراويله، ويشـرب كثيرا كل مسـاء، ويهيم بكل امرأة في الفندق. أما الآخر فقد كان ضخما، أسـمر الوجه، وسيما، ذا شعر أسود كالهنود، وله يدان هائلتان. كان كل منهمـا بيكادورا عظيما، على الرغم مـن أن الأول معروف بأنه فقد كثيرا من كفاءته بسـبب الشـرب والمجون، والثاني مشهور

(١٥) خوان بلمونتيي مصارع ثيران إسباني (١٨٩٢ - ١٩٦٢) [المترجم].

(١٦) بايدوليد مدينة إلى الشـمال من العاصمة مدريد، وهي النطق الإسباني الحديث والمحرف عن الأصل العربي «بلد الوليد». وهنا أود أن أسـجل شـكري للصديق الأسـتاذ الدكتور أحمد عبدالعزيز، أستاذ الأدب المقارن في جامعة القاهرة، على هذه المعلومة [المترجم].

بالعناد والمشاكسة إلى درجة أنه لا يستطيع البقاء مع أي ماتادور أكثر من موسم واحد.

كان قاذف السهام متوسط العمر، أشيب الشعر، سريعا كالقطط رغم سنه، وكان عندما يجلس إلى المائدة يوحي بأنه رجل أعمال ميسور الحال. كانت ساقاه لا تزالان صالحتين لهذا الموسم، وإن ذهبت قوتهما فلديه من الدهاء والخبرة ما يزكيه لإيجاد عمل دائم لوقت طويل. لكن إن ذهبت رشاقة قدميه، فلن يكون كما هو الآن آمنا مطمئنا داخل الحلبة وخارجها، بل خائفا.

في هذا المساء غادر الجميع صالة الطعام ما عدا الپيكادور الذي له وجه صقر ويشرب كثيرا، ودلال له وَحْمَة في وجهه يبيع الساعات في مهرجانات إسبانيا وأعيادها، وهو سكير أيضا، وقسان من غاليسيا[١٧] كانا يجلسان في ركن ويشربان، إن لم يكن كثيرا فبلا شك ما يكفي. في ذلك الزمان، كان المشروب مشمولا في ثمن الإقامة في لواركا، وقد أحضر النُّدّل زجاجات جديدة من مشروب بالديبنياس[١٨] إلى مائدة دلاّل الساعات، ثم إلى مائدة الپيكادور، وأخيرا إلى مائدة القسّين.

وقف النُّدّل الثلاثة في طرف الصالة. كانت قواعد الفندق تقضي بأن يبقى جميع النُّدّل مناوبين إلى أن يغادر جميع رواد الصالة الذين تقع خدمتهم على عاتق هؤلاء النُّدّل. لكن نادل

(١٧) غاليسيا منطقة في الشمال الغربي من إسبانيا [المترجم].

(١٨) بالديبنياس مشروب إسباني ويبدو أنه سمي على اسم مدينة تقع إلى الجنوب من مدريد. [المترجم].

القسين لديه موعد لحضور اجتماع يعقده النقابيون والفوضويون، فوافق پاكو على أن ينوب عنه.

كان الماتادور المريض مكبا على وجهه في سرير غرفته في أحد الطوابق العليا. بينما الماتادور الذي عفى عليه الزمن كان جالسا يتطلع من نافذته استعدادا للذهاب إلى المقهى. وأما الماتادور الجبان فقد كان في غرفته مع أخت پاكو الكبرى يحاول إقناعها بفعل شيء ترفضه وهي تضحك. كان هذا الماتادور يقول لها، «هيا أيتها الهمجية الصغيرة»، فترد عليه:

«لا، لماذا أفعل ذلك؟».

«منة».

«بعد أن تعشيت، تريد أن تتحلى بي».

«وأي ضير في ذلك؟ هي مرة واحدة فقط».

«دعني وشأني. دعني وشأني، أقول لك».

«إنه أمر تافه للغاية».

«دعني وشأني، أقول لك».

في صالة الطعام، قال أطول النُّدّل الذي تأخر عن الاجتماع، «انظر إلى هذين الخنزيرين الأسودين وهما يسكران».

«عيب عليك هذا الكلام»، قال النادل الثاني. «إنهما زبونان محترمان وهما لا يشربان كثيرا».

«بل هذا هو خير الكلام بالنسبة إليّ»، رد النادل الطويل. «الثيران والقساوسة هما لعنتان اُبتليت بهما إسبانيا».

«هذا لا يصح على الثور الفرد ولا على القس الفرد»، قال النادل الثاني.

«بل يصح»، قال النادل الطويل. «إذ لا يمكنك أن تهاجم الطبقة إلا من خلال الفرد. ومن الضروري أن تقتل الثور الفرد والقس الفرد. بلا استثناء. عندها لن يبقى أحد».

«وفر هذا الكلام للاجتماع»، قال النادل الآخر.

«انظر إلى همجية مدريد»، قال النادل الطويل. «صارت الساعة الحادية عشرة والنصف وهؤلاء لا يزالون يغبون المشروب».

«لقد بدأوا تناول طعامهم في العاشرة»، قال النادل الآخر. «وكما تعلم، هناك أطعمة عديدة. وهذا المشروب رخيص وقد دفعوا ثمنه. إنه ليس مشروبا قويا».

«كيف للعمال أن يتضامنوا بوجود حمقى مثلك؟» سأله النادل الطويل.

«اسمع»، قال النادل الثاني الذي يبلغ الخمسين من عمره. «لقد عملت طوال حياتي. وسأظل أعمل فيما تبقى لي من العمر. لا اعتراض لي على العمل. العمل سنة الحياة».

«أجل، ولكن قلة العمل تقتل».

«لم أشكُ من قلة العمل يوما»، قال النادل الأكبر. «اذهب إلى الاجتماع. لا حاجة إلى بقائك».

«أنت رفيق صالح»، قال النادل الطويل. «لكنك تفتقر إلى الأيديولوجيا».

«هذا خير لي من افتقاري إلى العمل»، قال النادل الأكبر. «هيا اذهب إلى الاجتماع».

لم يقل پاكو شيئا. كان لا يزال غرا في السياسة لكنه كان دوما يتشوق إلى سماع النادل الطويل وهو يتحدث عن ضرورة

قتل القساوسة والحرس المدني[١٩]. كان النادل الطويل يمثل الثورة بالنســبة إليه، وكان للثورة ســحرها أيضا. أما هو فيود لو يكون كاثوليكيا صالحــا وثائرا، ولديه عمل ثابت كعمله هذا، ومصارع ثيران في الوقت ذاته.

«اذهب إلى الاجتماع، يا إغناثيو، وسأنوب عنك»، قال پاكو.

«عنا نحن الاثنين»، قال النادل الأكبر.

«لا يوجد ما يشــغل نادل واحد»، قــال پاكو. «هيا، اذهبا إلى الاجتماع».

«إذن، سأذهب»، قال النادل الطويل. «وشكرا».

في هذه الأثناء اســتطاعت أخت پاكــو أن تتملص من قبضة الماتادور بمهارة لا تعهدها إلا في مصارع روماني وهو يفك تثبيت خصمه له، وقالت له غاضبة، «هكذا هم الجائعون. مصارع ثيران فاشــل. يرزح تحت وطأة خوفه. إذا كان لديك كــل هذا، فلـماذا لا تستخدمه في الحلبة؟».

«هكذا تتكلم العاهرة تماما».

«صحيح أن العاهرة امرأة، لكنني لست عاهرة».

«ستكونين كذلك».

«ليس على يديك».

«اتركيني»، قال الماتادور وهو يشــعر بعودة جبنه السافر، بعد أن صد ورفض.

«أتركك؟ ما الذي لم يتركك؟» قالت له أخت پاكو. «ألا تريدني

---

(١٩) كان رجال الكنيســة خلال الحرب الأهلية الإســبانية (١٩٣٦ - ١٩٣٩) من ضمن المعسكر اليميني الموالي للملكية، أما الحرس المدني فهو البوليس المرعب الذي كان الفوضويون والشيوعيون وبقية المعسكر اليساري يطالبون بحله [المترجم].

أن أرتب لك السرير؟ فهذا واجبي الذي أقبض ثمنه».

«اتركيني»، قال الماتادور والألم يعتصر وجهه الوسيم كأنه يريد البكاء. «أيتها العاهرة. أيتها العاهرة الصغيرة القذرة».

«أمرك»، قالت وهي تغلق الباب. «أمرك، سيدي».

جلس الماتادور في غرفته على السرير. ظل العبوس يخيم على وجهه، هذا العبوس الذي كان يحوله في الحلبة إلى ابتسامة دائمة كانت تدخل الرعب إلى قلوب الجالسين في المقاعد الأولى لأنهم كانوا يعرفون ما يشاهدون. «وهذه»، قال بصوت عال. «وهذه. وهذه».

تذكر الأيام الخوالي، أيام العز، التي لم يمض عليها سوى ثلاث سنين. وتذكر ثقل السترة المقصبة بالذهب على منكبيه في عصر أحد الأيام القائظة في مايو عندما كان صوته هو ذاته في الحلبة كما هو في المقهى، وكيف كان يسدد سيفه المدبب على نقطة فوق الكتفين حيث تكتنز كتلة عضلية سوداء، قصيرة الشعر، مغبرة وراء قرنين تشظى رأساهما من نطح السياجات الخشبية، وكيف كان هذان القرنان ينخفضان عند الانقضاض وسيفه ينغرز بسهولة كأنه ينغرز في كتلة من الزبدة الصلبة، بينما يضغط براحة يده على عجرة السيف، ويده اليسرى إلى أسفل خاصرته، وكتفه اليسرى مائلة نحو الأمام، يضع ثقله كله على ساقه اليسرى ولا يشعر به. كان ثقله يرتكز على أسفل بطنه، وعندما رفع الثور رأسه غاب القرن في بطنه وتأرجح عليه مرتين قبل أن يخرجوه من بطنه. لذلك عندما يستعد الآن للمنازلة، وهذا أمر نادر، لم يعد في

إمكانه أن ينظر إلى تلك القرون. ثم ماذا تعرف العاهرات عما يقاسيه قبل النزال؟ وماذا تعرف الساخرات منه عن مرارة المعاناة؟ إنهن جميعا عاهرات وجميعهن يعرفن ماذا يمكنهن أن يفعلن بهذا.

كان البيكادور يجلس في صالة الطعام ويتطلع إلى القسين. وإن دخلت امرأة الصالة حدق فيها. وإن لم يجد امرأة حدق باستمتاع في أجنبي، إنجليزي، لكنه الآن، وفي غياب النساء، أو الأجانب، راح يحدق باستمتاع ووقاحة في القسين. بينما كان هو يحدق، نهض الدلال ذو الوحمة، وطوى منديله، وخرج، تاركا أكثر من النصف في آخر زجاجة طلبها. لو أن حساباته سددت في لواركا لأنهى زجاجته.

تجاهل القسان تحديقات البيكادور. كان أحدهم يقول، «أنا أنتظر منذ عشرة أيام لأراه، أجلس سحابة يومي في حجرة الانتظار ولا يستقبلني».

«وما العمل؟»

«لا شيء. ماذا يمكن لأي منا أن يفعل؟ إنه لا يستطيع أن يخالف السلطات».

«أنا أنتظر منذ أسبوعين ولا شيء. أنتظر ولا أحد يراني».

«نحن من البلاد المنسية. عندما ننفق نقودنا يمكننا أن نعود».

«إلى البلاد المنسية. ما الذي يهم مدريد في غاليسيا؟ نحن منطقة فقيرة».

«يستطيع المرء أن يتفهم ما يقوم به أخونا باسيليو».

«ومع ذلك لا أثق بنزاهة باسيليو ألفارز»[٢٠].
«في مدريد يتعلم المرء الفهم. مدريد تقتل إسبانيا».
«لو أنهم على الأقل يقابلوننا ثم يرفضون».
«لا. يجب أن تتحطم وترهق من الانتظار».
«حسن، سنرى. سأنتظر مثل غيري».

في هذه اللحظة نهض البيكادور على قدميه، ثم توجه نحو مائدة القسين، ووقف، شائب الشعر، عابس الوجه، يحدق فيهما ويبتسم.

«مصارع ثيران»، قال أحد القسين للآخر.

«ومصارع جيد»، قال البيكادور وخرج من الصالة أهيف الخصر، أحنف الساقين، يرتدي سترة رمادية وبنطالا ضيق الساقين فوق حذائه الرعوي ذي الكعب العالي الذي كان يطرق الأرض طرقا وهو يتبختر بثبات ويبتسم لنفسه. كان يعيش في عالم صغير ضيق من محترفي الكفاءة الشخصية والتباهي بشرب المسكرات ليلا، والوقاحة. أشعل سيجارا وأمال قبعته بشكل حاد في الممر وخرج إلى المقهى.

ما إن أحس القسان أنهما آخر من بقي في صالة الطعام، حتى غادرا بعد البيكادور مباشرة. لم يبق في الصالة سوى پاكو والنادل المتوسط العمر. نظفا الموائد وحملا الزجاجات إلى المطبخ.

في المطبخ كان هناك الغلام الذي يغسل الصحون. كان يكبر پاكو بثلاث سنين وكان مفعما بالمرارة والتشكك.

---

(٢٠) هذه شخصية خيالية لا وجود لها في الواقع، فيما يبدو [المترجم].

«خذ هذه»، قال النادل المتوسط العمر، وصب كأسا من مشروب بالدينياس وناولها له.

«لم لا؟» قال الغلام وهو يأخذ الكأس.

«وأنت يا پاكو؟» سأل النادل الأكبر.

«شكرا»، قال پاكو. شرب الثلاثة.

«علي أن أذهب»، قال النادل المتوسط العمر.

«تصبح على خير»، قالا له.

خرج وبقيا وحدهما. أخذ پاكو منديلا كان أحد القسين قد استخدمه ووقف منتصبا، وكعباه مغروزان في الأرض، ثم أنزل المنديل ورأسه يتابع حركة المنديل، ثم لوح بذراعيه محاكيا حركة الورنيقة البطيئة[٢١]، التفت وهز المنديل ثانية، بعد أن تقدم بقدمه اليمنى قليلا، واحتل قليلا من أرض الثور المتخيل، ثم هز منديله مرة ثالثة هزا بطيئا رقيقا جيد التوقيت، ثم خطف المنديل نحو خاصرته وقفز مبتعدا عن الثور بمقدار نصف ورنيقة.

كان غاسل الصحون الذي يدعى إنريك يراقبه بانتقاد وازدراء.

«كيف وجدت الثور؟».

«شجاعا جدا»، قال پاكو. «انظر».

وقف ممشوق القامة منتصبا، ثم قام بأربع تمريرات غاية في السلاسة والأناقة والرشاقة.

---

(٢١) تشير الورنيقة (أو فيرونيكا باللاتينية) في المعتقد المسيحي إلى المنديل الذي مسحت به القديسة فيرونيكا وجه السيد المسيح المدمى وهو يسير إلى مكان صلبه على تل الجلجلة غرب مدينة القدس، ومن باب توسيع الدلالة، أصبحت الكلمة في عرف مصارعي الثيران تشير إلى تمرير المنديل الأحمر تمريرا لطيفا رشيقا على رأس الثور بينما يتخذ الماتادور وقفة تحد واعتداد، ويضع يده الحرة على خاصرته [المترجم].

«والثور؟» سأل إنريك وهو يستند إلى المجلى، حاملا كأس شرابه، مرتديا مئزره.

«لا يزال لديه كثير من الطاقة»، قال باكو.

«أنت مقرف».

«لماذا؟».

«انظر».

نزع إنريك مئزره ودعا الثور المتخيل للنزال، فابتدأ بأربع ورنيقات غجرية في غاية الكمال والهدوء وانتهى بسحبة سريعة مرتدة جعلت المئزر يرتد على هيئة قوس متصلب فوق خطم الثور أثناء ابتعاده عنه.

«انظر إلى ذلك»، قال. «وما أنا إلا غاسل صحون».

«لماذا؟»

«الخوف»، قال إنريك. «ذات الخوف الذي يتملكك داخل الحلبة في مواجهة الثور».

«لا»، قال باكو. «لن أخاف».

«غر مسكين»، قال إنريك. «الكل يخاف، لكن مصارع الثيران يسيطر على خوفه كي يستطيع التعامل مع الثور. لقد شاركت في صراع للهواة وخفت كثيرا حتى أنني لم أتمالك نفسي من الهرب. ظن الجميع أن ذلك كان مضحكا جدا. لذلك ستخاف. لولا الخوف لأصبح كل ماسح أحذية في إسبانيا مصارع ثيران. وأنت، أيها الولد الريفي، ستخاف أكثر مني».

«لا»، قال باكو.

لقد تدرب على الأمر مرات عديدة جدا في خياله، لقد رأى في مرات عديدة جدا قرني الثور وخطمه المبتل وأذنيه المرتعشتين، وكيف يخفض الثور رأسه لينقض، وحوافره تدوي، فيتجاوزه الثور عندما يختطف المنديل من أمامه، فيعود لينخفض ثانية وهو يختطف المنديل ثانية، ثم ثانية، ثم ثانية، ثم ثانية إلى أن يصبح الثور يدور حوله كأنه مروحة عظيمة، فيبتعد متمايلا وقد علقت شعرات من الثور في زينة سترته الذهبية من جراء الاحتكاك القريب، ويقف الثور مذهولا والجمهور يصفق. لا، لن يكون خائفا، سيخاف غيره، نعم. أما هو فلا. كان يعرف أنه لن يخاف، وحتى لو كان خائفا، فهو يعلم أن بإمكانه خوض التجربة مهما كان، كان واثقا. «لن أخاف»، قال.

«مسكين»، قال إنريك مرة أخرى. ثم أردف، «هل نجرب؟».

«كيف؟».

«اسمع»، قال إنريك. «أنت تفكر في الثور ولكنك لا تفكر في القرنين. للثور قوة تجعل قرنيه يخترقان كالمدية، ويطعنان كالحربة، ويقتلان كالعصا. انظر»، ثم فتح سحابا وأخرج سكيني قصاب. «سأشد هاتين إلى ساقي كرسي. سأقوم بدور الثور لك وأنا أمسك بالكرسي أمام رأسي. السكينان هما القرنان. إن استطعت أن تقوم بهذه التمريرات، فلهذا دلالته».

«أعطني مئزرك»، قال پاكو. «سنتصارع في صالة الطعام».

«لا»، قال إنريك وقد ذهبت منه المرارة فجأة. «لا تفعل يا پاكو».

«بل سأفعل»، قال پاكو. «لست خائفا».

«ستخاف عندما ترى السكينين».

«سنرى»، قال پاكو. «أعطني المئزر».

في هذه الأثناء وبينما كان إنريك يحكم وثاق سكينين حادتي الشفرة ثقيلتين إلى ساقي الكرسي بمنديلين متسخين يمسكان كل سكين من منتصفها، ثم يلفهما بإحكام ويعقدهما، كانت الخادمتان، أختا پاكو، في طريقهما إلى السينما لتشاهدا غريتا غاربو في فيلم «آنا كريستي»[٢٢]، كان أحد القسين يقرأ كتابا للأدعية اليومية وهو جالس بلباسه الداخلي، بينما كان الآخر يرتدي قميص نومه ويسبّح بحمد الله. كان جميع مصارعي الثيران، ما عدا المريض، قد تقاطروا على مقهى فورنوس هذا المساء، حيث كان الپيكادور الضخم ذو الشعر الأسود يلعب البلياردو، بينما الماتادور القصير الرزين كان يتناول القهوة مع الحليب على طاولة مزدحمة مع قاذف السهام المتوسط العمر وغيره من العاملين الرزينين.

كان الپيكادور الأشيب السكير يحدق باستمتاع، وأمامه قدح من المشروب المحلى، إلى مائدة يجلس إليها الماتادور الجبان مع ماتادور آخر تخلى عن السيف ليعود قاذف سهام مرة أخرى، ومعهما مومسان ضجرتان.

كان الدلال يقف عند زاوية الشارع يتحدث مع بعض الأصدقاء، وكان النادل الطويل في اجتماع النقابيين الفوضويين ينتظر فرصة للحديث. وكان النادل المتوسط العمر يجلس على مصطبة مقهى ألفاريز يتناول كأسا صغيرة من المشروب، أما صاحبة فندق لواركا فقد كانت نائمة في سريرها، مستلقية

(٢٢) غريتا غاربو (١٩٠٥ - ١٩٩٠) ممثلة أمريكية مشهورة من أصل سويدي، صدر فيلمها «آنا كريستي» بجزأيه الأول والثاني العام ١٩٣٠ [المترجم].

على ظهرها، والوسادة بين ساقيها: امرأة ضخمة، بدينة، نزيهة، نظيفة، لينة العريكة، متدينة جدا، لم تكف قط عن افتقاد زوجها أو الدعـــاء له يوميا منذ وفاته قبل عشـــرين عاما. أما الماتادور المريـــض فقد كان في غرفته، وحيدا، مكبا وجهه على ســـريره، ويضع منديلا على فمه.

في صالـــة الطعام المهجورة، قام إنريك بربط العقدة الأخيرة في المنديلين اللذين شدا السكينين إلى ساقي الكرسي ثم رفعه. صوب ساقي الكرســـي نحو الأمام، ثم وضع الكرسي فوق رأسه مصوبا السكينين المحيطتين برأسه إلى الأمام.

«إنه ثقيل»، قال. «اســـمع يا پاكو. المســـألة خطيرة. لا داعي لتجربتها». وكان عرقه يتصبب.

وقف پاكو قبالته، ممســـكا المنديل المنشور بكلتا يديه، مصوبا إبهاميه نحو الأعلى وســـبابتيه نحو الأسفل على نحو متباعد كي يسترعي انتباه الثور.

«اهجم بشـــكل مستقيم. اســـتدر كالثور. اهجم بعدد ما يحلو لك»، قال له پاكو.

«كيف ســـتعرف متى يجب عليك أن تقطع التمريرة؟» ســـأله إنريـــك. «مـــن الأفضـــل أن تقوم بثـــلاث تمريرات ثـــم ورنيقة متوسطة».

«حســـنا»، قال پاكو. «لكن اهجم بشـــكل مســـتقيم. هيا، أيها الثور الصغير!».

انقـــض إنريك نحوه، مطأطئ الـــرأس وخطف پاكو المئزر من أمام شـــفرة السكين التي مرت قريبا من بطنه، ولم تكد تتجاوزه

حتـــى تراءت له قرنا حقيقيا، أســـود، أملـــس، ذا رأس أبيـض. وما إن تجاوزه إنريك واســـتدار لينقض ثانية، حتى تراءى له ثور هائج دامي الخاصرتين تدوي حوافره من حوله، يســـتدير كقط وينقض ثانية، فيخطف مئزره ببطء من أمامه. عندئذ اســـتدار الثـــور وانقض مرة أخرى، وبينما كان پاكو يراقب رأس الســـكين المنقضة، قدم قدمه اليسرى مسافة بوصتين، فلم تجتزه السكين، بـــل انغرزت في بطنه كأنها تنغرز في قربة للخمر، فأحس بدفق حـــارق يرافق الفولاذ المتصلب فجـــأة، وكان إنريك يصيح، «آي، آي، دعنـــي أخرجها! دعني أخرجها!» كبا پاكـو على الكرســـي، وهـو لا يزال ممسكا بالمئزر، وكان إنريك يحاول سحب الكرسي والسكين تفتل داخله، داخل پاكو.

أخرج السكين وجلس على الأرض وسط بركة دافئة آخذة في الاتساع.

«ضـــع المنديل على الجرح وأمســـكه»، قال إنريك. «أمســـكه بإحكام. ســـأركض لاســـتدعاء الطبيب. عليـــك أن تمنع خروج النزيف».

«هذا يتطلب رأسا مطأطئا»، قال پاكو، وكان قد رآه يستخدم في حلبة المصارعة.

«لقد هجمت هجوما رأســـيا»، قال إنريك وهو يبكي. «كل ما أردته هو أن أبين خطورة الأمر».

«هون عليك»، قال پاكو وكأن صوته يأتي من أعماق ســـحيقة. «لكن أحضر الطبيب».

في الحلبـــة يحملونك راكضين إلى غرفـــة العمليات. أما إذا

أفرغ الشــريان الفخذي ذاته قبل أن تبلغ غرفة العمليات فإنهم يحضرون القس.

«أخطر أحد القساوســة بما جرى»، قال باكو وهو يضغط بالمنديــل على أســفل بطنه. لم يكن في وســعه أن يصدق ما جرى له.

لكــن إنريك كان يركض في زقاق ســان خيرونيمو إلى عيادة الإســعاف الأولي الليلية. ظل باكو وحيــدا، يجلس على الأرض تارة، ثم يتكوم على نفسه، ثم يسترخي متمددا على الأرض حتى انتهى الأمر عندما أحس بروحه تخرج من جسده كما يخرج الماء الوسخ من حوض الحمام عندما تسحب السدادة. أحس بالرعب والوهــن، فحــاول أن يردد دعــاء التوبة وتذكــر مطلعه، وحاول أن يقول بأقصى ســرعة، «إلهي، إنني نــادم ندما مخلصا لأنني أذنبــت في حقك، أنــت الجدير بكل محبتي، وأقســم إنني...»، لكن وهنا شديدا أصابه، فانكب على وجهه على الأرض، وانتهى الأمر بســرعة كبيرة. فالشريان الفخذي يفرغ نفسه بأسرع مما تتصور.

عندما صعد طبيب الإســعاف الأولي الدرج يرافقه شــرطي يمســك بذراع إنريك، كانت أختا باكو لا تزالان في سينما غران بيا تشــاهدان فيلــم غريتا غاربو الذي خيــب آمالهما كثيرا، إذ ظهرت النجمة العظيمة في محيط شديد البؤس والوضاعة وقد اعتادتا علــى رؤيتها محاطة بالبريق والرفاهيــة. لم ينل الفيلم إعجاب المشــاهدين، فعبروا عن احتجاجهــم بالتصفير وضرب الأرض بأقدامهم. أما البقية المتبقية من نزلاء الفندق فقد كانوا

يقومون تقريبا بما اعتادوا عليه عندما وقعت الحادثة، باستثناء أن القسين أنهيا صلواتهما وكانا يستعدان للنوم، والپيكادور الأشيب حمل شرابه وانتقل إلى طاولة المومسين الضجرتين. وبعد هنيهة غادر المقهى برفقة إحداهما، وكانت تلك التي وقع الماتادور في غرامها وراح يشتري لها المشروب.

لم يعرف الصبي پاكو أي شيء من هذا ولا ما سيفعله هؤلاء الناس في اليوم التالي أو في الأيام القادمة. لم تكن لديه أي فكرة عن الكيفية التي عاشوا بها ولا عن المصير الذي آلوا إليه. بل لم يكن يعلم أنهم انتهوا. لقد مات مملوءا بالأوهام، كما تقول العبارة الإسبانية. لم يكن لديه الوقت في حياته لأن يخسر أيا منها، ولا حتى أن يكمل دعاء التوبة عندما انتهت. لم يكن لديه حتى الوقت ليشعر بخيبة الأمل التي شعرت بها مدريد مدة أسبوع من جراء فيلم غريتا غاربو.

ثلوج كليمنجارو
[١٩٣٦]

كليمنجارو جبل تكلله الثلـوج ويبلغ ارتفاعه ١٩,٧١٠ أقدام، ويقال إنـه أعلى جبل في أفريقيا. تدعى قمته الغربية المسـاي «نغاجي نغاي»، أي بيت الله. وقريبا من هذه القمة الغربية توجد جثة فهد جافة ومتجمدة. لم يفسر أحد ما الذي كان يبغيه هذا الفهد على هذا الارتفاع.

«العجيب في الأمر أنها بلا ألم. هكذا تعرفين أنها بدأت».

«هل هي كذلك حقا؟».

«بلا شك. لكني آسف بشأن الرائحة. لا بد أنها تزعجك».

«لا عليك، أرجوك».

«انظري إليها»، قال. «ترى، ما الذي يجلبها بهذا الشكل، أهي الرؤية أم الرائحة؟»

كان السـرير الذي يستلقي عليه الرجل في ظل وفير لشجرة سـنط، ولما نظر إلى السهل المتوهج رأى ثلاثة طيور كبيرة تقعي بصورة فاحشـة قذرة، بينمـا كانت مجموعة أخـرى تحلق في السماء وتلقي بظلالها السريعة على الأرض.

«صار لها هناك منذ أن تعطلت الشـاحنة»، قال. «وهذه أول مرة تحط فيها علـى الأرض. لقد راقبت كيف كانت في البداية تحلق بحذر خشـية أن يخطر في بالي أن أستخدمها في إحدى قصصي. يبدو الأمر مضحكا الآن».

«أتمنى ألا تفعل»، قالت.

«أنا أتكلم فقط»، قال. «الأمــر أهون علي إن تكلمت. لكـنـي لا أريد إزعاجك».

«أنــت تعلم أن هذا لا يزعجني، كل ما هنالك هو أنني متوترة جــدا من عجزي عن القيام بأي شــيء. أظــن أن علينا أن نهون الأمر قدر استطاعتنا إلى أن تأتي الطائرة».

«أو إلى ألا تأتي الطائرة».

«أرجــوك قل لي ماذا يمكنني أن أفعل. لا بد أن هناك شــيئا يمكنني القيام به».

«يمكنك أن تبتري ســاقي، فربما ذلــك يوقفها، وعلى الرغم من أنني أشــك في ذلك. أو بإمكانك أن تطلقي علي النار. أنت صيادة ماهرة الآن. لقد علمتك الرماية، أليس كذلك؟».

«أرجــوك أن تكف عن مثل هذا الحديث. ألا يمكنني أن أقرأ لك؟».

«وماذا ستقرئين؟».

«أي شيء في حقيبة الكتب لم نقرأه».

«لا يمكننــي الإصغاء»، قال لها. «الحديث أســهل. نتخاصم، وهكذا يمضي الوقت».

«أنــا لا أخاصم. لا أريــد أبدا أن نتخاصــم. دعنا نكف عن الخصام. مهما توترنا. قد يعودون بشــاحنة أخرى اليوم. وربما تأتي الطائرة».

«لا أريــد أن أتزحــزح، لأنــه لا معنى لذلك ســوى أنه يهون عليك».

«هذا جبن».

«ألا يمكنك أن تسمحي لرجل بأن يموت كما يحلو له من دون أن تبزيه بالألقاب؟ وأي فائدة في تعبيري؟».

«لأنك ستنجو من الموت».

«لا تكوني سخيفة. إنني أحتضر الآن. اسألي أولاد الحرام أولئك». جال بناظريه إلى حيث تجثو تلك الطيور الهائلة القذرة ورؤوسها العارية غائصة في ريشها المنفوش المحدودب. يهبط رابع، فيسعى سريع الخطى، ثم يتهادى في مشيته نحو الآخرين.

«إنها تحيط بكل مخيم. أنت لا تنتبه إليها أبدا. لا يمكنك أن تموت ما لم تستسلم».

«أين قرأت ذلك؟ أنت حمقاء مخزية».

«قد تظنني امرأة أخرى».

«أرجوك بحق الله، هذه مهنتي».

عندئذ استلقى والتزم الصمت مدة ثم صوب نظره عبر الهجير المنبعث من السهل إلى حافة الأجمة، كانت هناك بضع قطط تبدو صغيرة وبيضاء ومتنافرة مع محيطها الأصفر، وبعيدا عنها رأى قطيعا من حمر الوحش البيضاء المتباينة مع فضاء الأجمة، كان هذا مخيما رائعا تظلله أشجار كبيرة قبالة هضبة، وفيه ماء صالح، وقريبا منه هناك ساقية ماء شبه جافة تطير منها أسراب القطا في الصباح.

«ألا تريدني أن أقرأ لك؟» سألته. كانت تجلس على كرسي من القنب بجانب سريره. «هناك تباشير نسائم».

«لا، شكرا».

«ربما ستأتي الشاحنة».

«لا يهمني إن جاءت أم لا».

«لكن يهمني أنا».

«أنت تهتمين بأمور كثيرة لا أهتم بها».

«لا، ليس بأمور كثيرة، يا هاري».

«وماذا عن المشروب؟».

«إنــه يضر بصحتك. ينصــح دليل بلاك الطبــي بتجنب كل المشروبات الكحولية. يجب ألا تشرب».

«مولو!» صاح.

«نعم، سيدي».

«يجب ألا تشــرب»، قالت له. «هذا ما أعنيه بالاستسلام. إنه مضر بصحتك. أنا أعرف أنه مضر بصحتك».

«لا، بل مفيد لصحتي».

خطر له أن كل شيء قد انتهى. إذن، لن تتاح له الفرصة لإنهاء الأمر. إذن، هكذا تنتهي! في مشــاحنة على جـرعة مشــروب. منــذ أن أصابت الغنغرينا ســاقه اليمنى لم يشــعر بالألم، ومع الألم ولّى الرعب وكل ما يشــعر به الآن هو وهن شديد وغضب ممــا آلت إليه الأمور، كان فضوله تجاه هذا الشــيء القادم الآن ضعيفا. لقد استحوذ عليه لعدد من السنين، لكنه لم يعد يعني له شيئا الآن، الغريب أن الوهن جعله سهلا.

الآن لــن يكتب الأشــياء التي كان يدخـرها إلــى أن يعـرف ما يكفــي لكتابتها جيدا. حســنا، إنه من ناحية أخرى لن يفشــل في محاولــة كتابتها. ربما لم يكن باســتطاعتك أن تكتبها أبدا، ولهذا

ظللت تسـوف وتؤجل الشـروع فيها. على أي حـال، إنه لن يعرف الآن.

«ليتنـا لم نأت»، قالـت المرأة. كانت تنظر إليـه والكأس في يدها، وتعض على شفتها. «ما كان لهذا الشيء أن يحدث لك في باريس. كنت دائما تقول إنك مولع بباريس. كان بإمكاننا أن نبقى في باريس أو أن نذهب إلى أي مكان. ما كنت لأمانع الذهاب إلى أي مكان تشاء. إن كنت تريد الصيد، كان بإمكاننا أن نذهب إلى هنغاريا ونكون على خير ما يرام».

«اللعنة على مالك، فهو السبب»، قال لها.

«هذا كلام باطـل»، قالت له. «لقد كان دائما لك كما هو لي. لقد تركت كل شـيء وذهبت حيث شئت، وفعلت ما يحلو لهواك، لكن ليتنا لم نأت إلى هنا».

«لقد قلت إنك أحببت مجيئنا إلى هنا».

«أحببـت ذلك عندما كنت بخيـر، لكنني الآن أكرهه. لا أفهم لماذا حدث هذا لساقك. ما الذي فعلناه كي نستحق هذا؟»

«أظن أنني نسـيت أن أضع عليها اليود عندما خمشـتها أول مرة. لم أعرها اهتماما في حينه لأنني لا أصاب بالجراثيم أبدا. ثم عندما ازداد الأمر سوءا فيما بعد، ربما كان استخدام محلول الكربوليـك غير المركز عندما نفدت المطهرات الأخرى هو الذي شـل الأوعية الدموية الدقيقة وسـبب الغنغرينا». ثم نظر إليها وقال، «وماذا أيضا؟».

«أنا لا أقصد هذا».

«لو أننا استأجرنا ميكانيكيا جيدا بدلا من سائق من الكيكويو

لا خبرة له، لتفقد الزيت ولما أحرق ناقل الحركة في الشاحنة»[٢٣].

«أنا لا أقصد ذلك».

«لو لم تتركي أهلك، لو لم تتركي من هم في مستواك، أوباش أولد وستبري، وسراتوغا، وبالم بيتش لتأخذيني...»[٢٤].

«لكنني أحببتك. هذا إجحاف. إني أحبك الآن. وسأحبك دائما. ألا تحبني؟».

«لا»، قال الرجل. «لا أظن ذلك. لم أفعل قط».

«هاري، ماذا تقول؟ هل جننت؟».

«لا. لم يكن لدي عقل لأجنّ؟».

«لا تتناول ذلك المشروب. حبيبي، أرجوك ألا تشربه. علينا أن نفعل ما في وسعنا».

«ما في وسعك أنت. أما أنا فمنهك».

لقد تراءى له الآن أنه في محطة للسكك الحديد في قرة أغاتش[٢٥]، وأنه كان يقف حاملا صرته، وأن المصباح الرأسي لقطار الشرق السريع هو الذي يشق الظلام الآن وأنه كان يغادر تراقيا[٢٦] بعد تقهقر القوات عنها، كان هذا واحدا من الأشياء

---

(٢٣) الكيكويو شعب ناطق بلغة البانتو، يعملون بالزراعة، ويقطنون المرتفعات في الشمال الشرقي من نيروبي، العاصمة الكينية [المترجم].

(٢٤) أولد وستبري مدينة تاريخية في ولاية نيويورك؛ بالم بيتش مدينة الأثرياء في ولاية فلوريدا؛ أما سراتوغا فهناك عدد من المدن في الولايات المتحدة تحمل هذا الاسم، لكن السياق يشير إلى مدينة سراتوغا سبرنغز، في شرقي ولاية نيويورك، وهي من أرقى المنتجعات السياحية في الولايات المتحدة، ومعروفة بمياهها المعدنية [المترجم].

(٢٥) قرة أغاتش مدينة تنازعت تركيا واليونان حول السيادة عليها، لكن معاهدة لوزان (١٩٢٣) أقرت بسيادة تركيا عليها، وبموجب المعاهدة اتفقت الدولتان على «تبادل للسكان» بحيث يجري إجلاء الجالية اليونانية في تركيا إلى اليونان، والجالية التركية في اليونان إلى تركيا [المترجم].

(٢٦) تراقيا إقليم يضم الشمال الشرقي من اليونان وجنوبي بلغاريا وغربي تركيا، يحده البحر الأسود من الشمال الشرقي، ومن الجنوب بحر مرمرة وبحر إيجة [المترجم].

التي ادخرها للكتابة، إضافة إلى حادثة نظره من النافذة، وهو يتنــاول الإفطار ذات صباح، ورؤيته للثلــج يكلل جبال بلغاريا، وسؤال سكرتيرة نانسن[٢٧] العجوز إن كان ما تراه ثلجا، فينظر العجوز ويقول، لا إنه ليس ثلجا. فالوقت لا يزال مبكرا لهطول الثلج. وتردد السكرتيرة للفتيات الأخريات، ليس ثلجا، ألم أقل لكنّ؟ ويقلن جميعا، إنه ليس ثلجا، لقد كنا مخطئات. لكنه كان الثلج بعينه الذي دفعهن إليه عندما ابتكر فكرة تبادل السكان. وكان الثلــج هو ما ظلت أقدامهن تطأه إلى أن متن جميعا ذلك الشتاء[٢٨].

* * لقــد كان ثلجا الذي هطل طوال أســبوع عيد الميلاد في تلك الســنة في غاورتال[٢٩]، تلك السنة التي عاشوا فيها في بيت الحطاب حيث كانت مدفأة البورســلان المربعة تحتل نصف الغرفة، وكانوا ينامون على مفارش محشوة بورق الزان، يوم جاء الفار (من الخدمة العسكرية) وقدماه تنزفان في الثلج، وقال إن الشــرطة في إثره، فأعطوه جــوارب صوفية وظلوا يتحدثون مع المسلحين إلى أن غطى الثلج آثار أقدامه.

---

(٢٧) فريدتيوف نانســن (١٨٦١ - ١٩٣٠) عالم ومستكشف نرويجي، حاول الوصول إلى القطب الشــمالي بين العامين ١٨٩٣ و١٨٩٦، لكنه فشــل. فاز بجائزة نوبل للسلام العام ١٩٢٢ لعمله في الأمم المتحدة مفوضا ساميا لحقوق اللاجئين [المترجم].

(٢٨) بــدءا من هذه الفقرة وحتى الفقرة الســابعة التي تليها يقطع همنغواي التسلســل الزمني للقصة، حيث ينقلنا بوساطة أسلوب الارتجاع (أو الفلاش باك) إلى التجارب التي خاضها الكاتب الفاشل هاري وكان ينوي أن يكتب عنها لكنه لم يفعل. ولكي يميز همنغواي هذه الارتجاعات عن بقية السرد في القصة، فهو يلجأ إلى استخدام الخط المائل. يتكرر هذا الأمر أربع مرات أخرى فــي القصة. لذلك حيث توجد فقرة مكتوبة أصلا بالخــط المائل، عمدت في هذه الترجمة إلى وضع ثلاث نجمات (* * *) في بداية كل الفقرات المعنية، وكذلك أختتم الفقرة الأخيرة بثلاث نجمات [المترجم].

(٢٩) غاورتال منطقة جبلية في ولاية فورالبيرغ، غربي النمسا [المترجم].

* * فــي يوم عيد الميلاد في شــرونتس كان الثلج ناصعا إلى درجة تؤذي عينيك عندما تنظر من الفاينزتوبا وترى الجميع عائديــن إلى بيوتهم من بيت العبــادة[٣٠]، هناك صعدوا الطريق التي ســوتها عربات الجليد واصفرت مــن البول بمحاذاة النهر وتلال الصنوبر الشاهقة، يحملون زلاجاتهم الثقيلة على أكتافهم. وهناك انحــدروا انحدارهم العظيم يتزلجــون على نهر الجليد المطــل على مادلنر هاوس[٣١]، والثلج يبــدو صقيلا ناعما كزينة الحلوى وخفيفا كالطحين، وتذكر الاندفاع الذي أحدثته السرعة بلا ضجيج بينما كنت تنقض كطائر.

ظلوا حبيسي العاصفة الثلجية مدة أسبوع في مادلنر هاوس، وكانــوا يلعبون الــورق على ضوء المصباح وســط الدخان وكانت الرهانــات تعلو كلما خســر الهير لنت أكثر. وأخيرا خســر كل شــيء - كل شيء، مدرسة التزلج، ونقوده، وكل أرباح الموسم، ثم رأســماله. استطاع أن يراه ويرى أنفه الطويل، وهو يلتقط الورق ثــم يفتتح اللعب من غير أن ينظر. كان القمار متواصلا في ذلك الحــين. عندما ينقطع الثلج تقامر، وعندما يهطل بغزارة تقامر. فكر في كل ما أمضاه من حياته مقامرا.

* * لكنه لم يكتب سطرا واحدا من ذلك، ولا عن يوم عيد الميــلاد البارد الناصع حيث كانت الجبال تبدو من وراء الســهل الذي عبره باركر[٣٢] بطائرته خلف خطوط الجبهة ليقصف قطار

---

(٣٠) شرونتس مدينة في دولة لختنشتاين، أما فاينزتوبا فتعني بالألمانية «الحانة» [المترجم].

(٣١) مادلنر هاوس اسم فندق في منطقة سلفريتا النمساوية [المترجم].

(٣٢) وليم جورج باركر (١٨٩٤ - ١٩٣٠) من ألمع الطيارين الكنديين خلال الحرب العالمية الأولى [المترجم].

الضباط النمساويين الذين كانوا في إجازة، فراح يمطرهم بوابل من رشاشه وهم يتراكضون ويتفرقون. تذكر كيف دخل باركر بعد ذلـك صالة الطعام وراح يروي لهم ما فعل. ثم كيف ران الصمت الذي قطعه أحدهم قائلا، «يا لك من قاتل غدار وابن حرام».

* * كان أولئـك هم النمساويين أعينهم الذين قتلوهم بالأمس واليوم يتزلج معهم. لا، ليسوا هم بالذات. كان هانز، الذي ظل يتزلج معه طوال السنة في فرقة قيصر ياغرز، وعندما ذهبا لاصطياد الأرانب البرية في ذلك الوادي الصغير فوق المنشرة تحدثا عن القتال في باسوبيو والهجوم على بريتيكارا وأسالونا[٣٣]، ولم يكتب سطرا واحدا عن ذلك. ولا عن مونتي كورنا ولا عن ستا كميوني ولا عن آرسييرو[٣٤].

* * كم شتاء عاش في فورالبيرغ وآرلبيرغ؟ عاش أربعة شتاءات، ثم تذكر الرجل الذي كان عنده ثعلب للبيع عندما عبروا بلودنتس[٣٥] لشراء الهدايا، وتذكر طعم نواة الكرز في ذلك العصير اللذيذ المسكر، وتطاير غبار الثلج وأنت تقطع المرحلة الأخيرة، تغني «هاي، هو، قال رولي!»[٣٦] قبل الهاوية

---

(٣٣) فرقة قيصر ياغرز هي فرقة الوحدات الخاصة في الجيش النمساوي، باسوبيو هي سلسلة جبلية في الشمال الشرقي من إيطاليا وقد شهدت هذه المنطقة معارك طاحنة بين الجيشين الإيطالي والنمساوي العام ١٩١٧، بريتيكارا: مدينة في شمالي إيطاليا تشتهر بمناجم الكبريت، أسالونا: جبل في شمالي إيطاليا وكان مسرحا لمعارك دموية بين الجيشين الإيطالي والنمساوي في العامين ١٩١٧ و١٩١٨ [المترجم].

(٣٤) مونتي كورونا جبل في الجنوب الشرقي من إسبانيا، ستا كوميوني هي الكميونات السبعة (وهذا ما تعنيه العبارة الإيطالية) التي تحيط بوادي «آلتوبيانو» (الوادي العالي) في الشمال الإيطالي، آرسييرو: إحدى الكميونات في الشمال الإيطالي [المترجم].

(٣٥) فورالبيرغ وآرلبيرغ وبلودنتس أسماء ولايات ومناطق في النمسا [المترجم].

(٣٦) «هاي، هو، قال رولي» خرجة غنائية في أغنية شعبية مشهورة في بريطانيا والولايات المتحدة عنوانها «زواج ضفدع» [المترجم].

السحيقة التي تنحدر نحوها بشكل مستقيم، قاطعا البستان في ثلاثة انعطافات ثم تخلفه وراءك لتعبر الخندق وتسلك الطريق الجليدي خلف الفندق. تحل أربطتك وتتخلص من الزلاجات وتركنها على السور الخشبي للفندق الذي ينبعث من نافذته ضوء مصباح حيث كانوا يعزفون الأوكرديون في الداخل الذي يعبق بالدخان ودفء محمل برائحة نبيذ جديد * * *.

«أين كنا نقيم في باريس؟» سأل المرأة التي كانت تجلس بجانبه على كرسي من القنب في أفريقيا الآن.

«في فندق كريون. أنت تعلم ذلك».

«ولماذا أعلم ذلك؟».

«لأننا كنا دائما نقيم هناك».

«لا، ليس دائما».

«هناك وفي مقصورة هنري الرابع. كنت تقول إنك تحب باريس».

«الحب مزبلة»، قال هاري. «وأنا الديك الذي يرتقيها ليصيح».

«إذا كان لا بد من موتك، فهل تجد من الضروري أن تقتل كل شيء تخلفه وراءك؟ أقصد هل يجب أن تأخذ كل شيء معك؟ هل يجب أن تقتل حصانك وزوجتك وتحرق سرجك ودرعك؟».

«أجل»، قال. «لقد كان مالك اللعين هو درعي، بكرتي ودرعي».

«كفى».

«حسنا، سأتوقف. لا أريد أن أجرح مشاعرك».

«لقد سبق السيف العذل».

«حسنا إذن سأتابع جرح مشاعرك. فهذا أكثر متعة. وأنا الآن عاجز عن ممارسة الشيء الوحيد الذي كنت أحب ممارسته معك».

«لا، هذا ليس صحيحا. لقد كنت تحب ممارسة كثير من الأشياء وقد فعلت كل ما كنت تريده مني».

«أستحلفك بحق الله أن تكفي عن التبجح».

نظر إليها ورآها تبكي، فقال لها:

«هل تظنين أنني أستمتع بجرح مشاعرك؟ أنا لا أعرف لماذا أقوم بهذا، أظن أن البقاء على قيد الحياة يتطلب قتل الآخرين. لقد كنت على ما يرام عندما بدأنا التحدث. لم يكن في نيتي أن أسير في هذه الطريق. انظري إليّ الآن، مجنون كطائر الغراء وأقسو عليك قدر استطاعتي. لا تكترثي بما أقوله يا حبيبتي. إني أحبك حقا. أنت تعرفين أنني أحبك. لم أحبب قط واحدة غيرك كما أحببتك».

عاد إلى كذبه المعهود الذي كان يكسب من خلاله قوت يومه.

«أنت رقيق معي».

«أيتها العاهرة»، رد عليها. «أيتها العاهرة الغنية. هذا هو الشعر. أنا طافح بالشعر الآن، بالعفن والشعر، بالشعر العفن».

«كفى. ما الذي يدفعك لتكون شيطانا رجيما الآن؟»

«لا أريد أن أُبقي على شيء»، قال الرجل. «لا أريد أن أخلف شيئا ورائي».

الوقت الآن هو المساء وقد مضى على نومه وقت لا بأس به.

غربت الشــمس خلف الرابية وكان ظل طويل يخيم على السهل برمتــه، وكانــت الحيوانات الصغيــرة ترعى قريبا مــن المخيم: رؤوس ســريعة تنخفض وذيول تسوط الهواء. راقبها وهي تحاذر الاقتــراب من الأجمة الآن. لم تعد الطيور تحط على الأرض، بل تجمعت بكثافة في شــجرة، وكان لا يزال منها المزيد، كان غلامه الشخصي يجلس بجانب سريره.

«ذهبت المصاحــب للصيد»، قال الغــلام. «هل يريد مولانا شيئا؟».

«لا، لا شيء».

لقد ذهبت بحثا عن قطعة لحم، ولما كانت تعرف مدى ولعه بمراقبــة الطرائد فقــد ابتعدت كثيرا لكيــلا تعكر صفو هذا الجيب الصغير من الســهل الذي كان يــراه. إنها دائما تراعي مشـــاعره، قال في سره. تحســـن الانتباه إلى ما تعلم، أو تقرأ، أو تسمع به.

لم يكن ذنبها أنه كان قد انتهى ســلفا عندما ذهب إليها. أنى لامــرأة أن تعرف أنــك لا تعني ما تقــول؟ أو أنك لا تتحدث إلا بحكم العادة ولكي تكون مرتاحا؟ عندما أصبح لا يعني ما يقول، أصبحــت أكاذيبه تلاقــي نجاحا أكبر عند النســاء مما لو قال الحقيقة.

لم تكن المســألة مســألة أنه يكذب، بل لم تكن هناك حقيقة يقولها. لقد كانت له حياة عاشــها وانتهت ثم راح يعيشــها ثانية مع أناس مختلفين يملكون أموالا أكثر، وفي أفضل الأماكن ذاتها وبعض الأماكن الجديدة.

لقـــد أحجمت عـــن التفكير وصار كل شــــيء علـــى ما يرام. كنت تتمتع بأحشـــاء متينة حصنتك من التمزق كما تمزق معظم الآخرين. أما وقد أصبحت الآن عاجزا عن القيام بما كنت تقوم به من عمل، فقد تبنيت موقف اللامبالي. لكنك في قرارة نفسك قلت إنك ســتكتب عن هـــؤلاء الناس، عن الأغنيـــاء جدا، وأنك لســـت واحدا منهم بل جاســـوس في بلادهم، وأنك ستغادر هذه البلاد وســـتكتب عنها ولأول مرة سيكون هناك كاتب يعرف عما يكتـــب. لكنه لن يفعل، لأنه في كل يوم يمر عليه بلا كتابة، فضلا عـــن الراحة واحتقاره لذاته، كانت إرادته للعمل تضعف ومقدرته تتبلد، وهكذا فـــي نهاية المطاف لم يعمل أبدا. كان جميع الناس الذيـــن يعرفهم الآن أكثر ارتياحـــا عندما لا يعمل. كانت أفريقيا أســـعد لحظات حياته، لهذا جاء إلى هنا لكـــي يبدأ ثانية. قاما بهذه الرحلة بأدنى حد من الراحة. لم تكن هناك مشاق، لكن لم توجد رفاهية، وكان يظن أن بإمكانه أن يزيل الشحم الذي تراكم حول روحه، كما يزيل مقاتل الشـــحم من جســـمه بالذهاب إلى الجبال للعمل والتدرب.

لقد أعجبتها. قالت إنها أحبتها. أحبت كل شـــيء مثير، وكل ما فيه تغيير للمشـــاهد، وأناس جدد وأشـــياء ممتعة. وقد توهم أن قوة الإرادة للعمل تعود إليه. وإذا كان الأمر سينتهي على هذا النحـــو، وكان يعلم أنه انتهى، فعليه ألا ينقلب كحية تلدغ نفســـها لأن ظهرها كســـر. لم يكن ذلك ذنب هذه المرأة. لو لم تكن هي، لكانت غيرها. إذا كان يعيش في الأكاذيب، فعليه أن يموت فيها. سمع صوت طلق ناري خلف الرابية.

صيادة ماهرة هذه العاهرة الطيبة الغنية، هذه المرأة الحانية اللطيفة والمدمرة لموهبته. هراء. هو الذي دمر موهبته بنفسه. لماذا يلوم هذه المرأة التي رعته رعاية جيدة؟ لقد دمر موهبته لأنه لم يستخدمها ولأنه خان نفسه وخان معتقداته. دمر موهبته لأنه كان يشرب حتى تتبلد أحاسيسه، ودمرها بالكسل، بالتراخي، بالعجرفة، بالكبرياء، بالتجني، بكل ما أوتي من وسائل. وماذا كانت موهبته؟ قائمة بالكتب القديمة؟ ماذا كانت موهبته في كل الأحوال؟ لقد كانت موهبة حقيقية، لكنه بدلا من أن يستخدمها، راح يتاجر بها. لا تقاس موهبته بما أنجزه، بل بما كان يمكن أن ينجزه. وبدلا من أن يعيش من قلمه أو ريشته، اختار أن يعيش من شيء آخر. ألم يكن من المستغرب أنه كلما وقع في غرام امرأة، يجب أن تكون هذه المرأة أغنى من سابقتها؟ أليس من المستغرب أنه عندما لم يعد مغرما بهذه المرأة، بل كان يكذب عليها فقط، هذه المرأة التي تملك مالا أكثر من عشيقاته السابقات، بل التي تملك كل ما يمكن امتلاكه من مال، المرأة التي كان لها زوج وأولاد، المرأة التي اتخذت العشاق وسئمتهم، المرأة التي عشقته كاتبا، ورجلا، ورفيقا، وكنزا تتباهى به، أليس من المستغرب أنه، عندما لم يعد مغرما بها إطلاقا بل يكذب عليها، استطاع أن يعطيها مقابل مالها أكثر مما استطاع يوم كان مغرما بها؟

خطر له أننا جميعا مؤهلون لما نقوم به، لا محالة. وموهبتك تكمن حيثما تكسب عيشك. لقد تاجر بحيويته، بشكل أو بآخر، طيلة حياته، وعندما تظل مشاعرك بعيدة، تستطيع أن تقدر قيمة المال بشكل أفضل بكثير. لقد اكتشف ذلك، لكنه الآن لن

يكتب عن ذلك أيضا. لا، لن يكتب ذلك، على الرغم من أنه جدير بالكتابة.

صارت الآن على مرمى بصره تسير نحو المخيم. كانت ترتدي بنطالا لركوب الخيل وتحمل بندقيتها. كان الغلامان يحملان كبشا من كباش الجبال ويسيران خلفها. خطر له أنها لا تزال امرأة مليحة القوام، لها موهبة عظيمة في المعاشرة وتقدرها حق قدرها، لم تكن جميلة لكنه أحب وجهها. كانت تقرأ بنهم، وتحب ركوب الخيل والصيد، كما كانت مدمنة على الشراب. مات زوجها وهي لا تزال شابة نسبيا، فكرست نفسها لبعض من الوقت لرعاية طفليها اللذين شبا عن الطوق ولم يعودا في حاجة إليها وخجلا من وجودها حولهما، كما كرست نفسها أيضا لخيولها، وكتبها، وزجاجاتها. كانت تحب أن تقرأ مساء قبل العشاء وكانت تشرب المشروب الاسكتلندي مع الصودا وهي تقرأ. وعندما يحين وقت العشاء، تكون شبه ثملة، وبعد زجاجة نبيذ على العشاء يكون السكر قد بلغ منها مبلغا يأخذها إلى النوم.

كان هذا قبل العشاق. وبعد العشاق لم تعد تشرب كثيرا لأنها لم تعد في حاجة إلى السكر كي تنام. لكنها ملت العشاق. كانت متزوجة من رجل لم تملّه إطلاقا، وهؤلاء مملون جدا.

بعد ذلك قتل أحد ولديها في حادث تحطم طائرة، وعندما انتهى ذلك لم تعد تريد العشاق. ولأن المشروب فقد مفعوله التخديري، صار لزاما عليها أن تبحث عن حياة جديدة. فجأة انتابها خوف شديد من الوحدة، لكنها كانت تريد رفيقا تكنّ له الاحترام.

كانت البداية غاية في السهولة. كانت تحب ما يكتب وكانت دائما تحسده على الحياة التي يعيشها. ظنت أنه يفعل ما يحلو له بالضبط. كانت الخطوات التي اتبعتها لكسبه والطريقة التي وقعت بموجبها أخيرا في غرامه كلها جزءا من تدرج مطرد بنت فيه لنفسها حياة جديدة، ولم يمانع هو أن يعطيها ما تبقى له من أرذل العمر.

قايض حياته بالطمأنينة، وبالراحة أيضا، إذ لا مجال لإنكار ذلك، ثم ماذا؟ لم يكن يعرف. كانت مستعدة لأن تشتري له ما يحلو له. وكان يعلم ذلك. كانت امرأة رقيقة أيضا. فلماذا لا يعاشرها دون غيرها؟ ألم تكن أغنى وألطف وأكثر امتنانا وأقل غضبا؟ وهذه الحياة التي بنتها ثانية تشرف على نهايتها لأنه لم يستخدم اليود عندما انغرزت شوكة في ركبته قبل أسبوعين بينما كانا يحاولان التقاط صورة لقطيع من ظباء الماء التي كانت تنتصب مشرئبة الأعناق والآذان وأنوفها تشوم الهواء تحسبا لأدنى ضجة كفيلة بجعلها تندفع نحو الأجمة. وقد فرت فعلا قبل أن يلتقط الصورة.

ها هي تأتي الآن.

أدار رأسه على السرير لينظر نحوها وقال «مرحبا».

«لقد اصطدت كبشا»، قالت له. «سنصنع لك منه حساء جيدا، وسأجعلهم يهرسون لك البطاطا مع الحليب. كيف أصبحت الآن؟»

«أفضل بكثير».

«أليس هذا رائعا؟ ظننت أنك ستتحسن. لقد كنت نائما عندما

غادرت».

«لقد نمت جيدا. هل ذهبت بعيدا؟»

«لا، فقط وراء الرابية، كانت رمايتي على الكبش موفقة».

«رمايتك رائعة، كما تعلمين».

«إني أحبها. لقــد أحببت أفريقيا حقا. لو كنت على ما يرام، لكانت هذه أكبر متعة في حياتي. أنت لا تعلم كم اســتمتعت في الصيد معك. لقد أحببت هذه البلاد».

«وأنا أحبها أيضا».

«حبيبي، ما أروع أن أراك تتحســن. لم أتحمل وأنا أراك في تلك الحال. لن تتحــدث معي بتلك الطريقة ثانية، أليس كذلك؟ هل تعدني؟»

«لا»، قال. «لا أذكر ما قلته لك».

«ليس لزاما عليك أن تدمرني. أليس كذلك؟ فما أنا إلا امرأة متوســطة العمر تحبك وتريد أن تلبــي لك كل ما يحلو لك. لقد دمرت مــرة أو مرتين من قبل. لا تريــد أن تدمرني مرة أخرى، أليس كذلك؟».

«أود أن أدمرك في الفراش بضع مرات»، قال لها.

«أجل، هذا هو التدمير المرغوب. فلهذا الدمار خلقنا. ستأتي الطائرة إلى هنا غدا».

«كيف علمت ذلك؟».

«أنا متأكدة. لا بد لها أن تأتي. لقد أعد الغلمان الحطب والأعشاب لإشعال نار داخنة. لقد نزلت اليوم لأتفقدها. هناك متسع من الأرض للهبوط، وقد أعددنا النيران الداخنة في كلا الطرفين».

«ما الذي يجعلك واثقة بأنها ستأتي غدا؟».

«أنا واثقة بأنها ستأتي. لقد تأخرت عن موعدها. وبعدها سيصلحون ساقك، عندها سيدمر كلانا الآخر تدميرا جيدا. لقد اكتفينا من ذلك الحديث المريع».

«ما رأيك لو تناولنا كأسا من الشراب؟ لقد غربت الشمس».

«هل تظن ذلك ضروريا؟».

«أنا سأتناول كأسا».

«سنتناول كأسا واحدة معا. مولو، هات كأسا من المشروب»، نادت عليه.

«حبذا لو لبست جزمتك الواقية من البعوض»، قال لها.

«سأنتظر إلى أن أستحم...».

بينما كان الظلام يحل راحا يشربان، وقبيل أن يحل الظلام ولم يعد هناك ضوء كاف لإطلاق النار، مر من أمامهما ضبع يعبر السهل الفسيح في طريقه إلى ما وراء الرابية.

«هذا اللعين يمر من أمامنا كل ليلة»، قال الرجل. «كل ليلة منذ أسبوعين».

«إنه هو الذي يصدر الضجيج ليلا. لكني لا أكترث له. الضباع حيوانات قذرة».

وهما يشربان معا، وقد زال الألم الآن ولم يعد يشعر إلا بالانزعاج من الاستلقاء في وضعية واحدة، والغلمان يشعلون النار التي راحت ظلالها تتقافز على الخيام، أحس بعودة الرضا بحياة الاستسلام الجميل هذه. لقد أحسنت معاملته. أما هو فقد كان قاسيا عليها وظالما لها عصر هذا اليوم.

كانت امرأة رائعة حقا. وفي تلك اللحظة بالذات خطر له أنه سيموت.

جـــاء هذا الخاطر دافقا، لا كدفق الماء أو الريح، بل كدفق من الفراغ المفاجئ الكريــه الرائحة، وأغرب ما في الأمر أن الضبع كان ينسل بخفة بمحاذاته.

«ما الأمر يا هاري؟» سألته.

«لا شـــيء»، قال لها. «حبذا لو انتقلت إلى الطرف الآخر. إلى الجهة التي تهب منها الريح».

«هل غير مولو الضماد؟».

«أجل، أنا لا أستخدم إلا حمض البوريك الآن».

«كيف تشعر؟».

«أشعر برعشة خفيفة».

«أنا ذاهبة للاستحمام. لن أتأخر. سآكل معك وبعدها سندخل السرير داخل الخيمة».

خطـــر له أنهما أحســـنا صنعا عندما كفا عـــن التخاصم. لم يتخاصم كثيرا مع هذه المرأة، بينما كان يتخاصم كثيرا مع النساء اللاتي أحبهن إلى درجة أنهم قتلوا بتأثير الخصام المدمر ما كان بينهم. لقد أحب كثيرا، وكان قاســيا كثيــر المطالب، حتى اهترأ حبه ومطالبه معا.

* * *

* * عاد بذاكرته إلى يوم كان وحيدا في إســـطنبول، بعد خروجـــه مـــن باريس على إثر خصام. لقد أمضـــى وقته كله في اللهو، ولما انتهى ذلك وفشـــل في قتل وحدتـــه، بل فاقمها، كتب

إليها، إلى تلك الأولى التي تركته، كتب إليها رسـالة يخبرها فيها عن فشله الذريع في قتل وحدته. كما أخبرها عن حادثة ظن فيها أنه رآها خارج فندق ريجنس، فشـعر بالوهن والغثيان، وكيف كان يلاحق امرأة تسير في البوليفار وتشبهها في شيء ما، ويخشى ألا تكون هي، وأن يفقد الإحسـاس الذي كان يشعر به، وأن كل امرأة عاشرها لم تفلح إلا في زيادة شوقه إليها، وأن ما فعلته لم يعد يهم إطلاقا بعد أن عرف أن حبه لها لا شفاء منه. كتب هذه الرسالة في النادي، وهو بكامل صحوه، وأرسـلها إلى نيويورك وقد طلب منها أن تراسـله على عنوان المكتب في باريس. فهذا أسلم. في تلك الليلة اشـتاق إليهـا كثيرا إلى درجة أنه شـعر بالفراغ في داخله، فراح يتجول حتى تجاوز مقهى مكسـيم، فتعرف إلى فتاة ودعاها إلى العشـاء. ثم ذهب معها بعد ذلك إلى مرقص، لكنها كانت راقصة سـيئة، فتركها من أجل مومس أرمنية ماهرة كانت تلـزّ بطنها عليه وتتمايل حتـى كادت تحرقه. انتزعها من معاون رامي مدفعية بريطاني بعد عراك. طلب منه المحارب البريطاني أن يخرجا إلى الشـارع، فتقاتلا في الظلام على حجارة الشارع المرصوفة. صـفعه بشـدة مرتين علـى فكه، ولما رأى أن خصمه لم يسـقط أرضا أدرك أن أمامه معركة حقيقية. ضربه المحارب على جسـمه ثم بجانب عينه. طوح بيده اليسرى ثانية فأصابت هدفها، وانقض عليه المحارب وأمسك به من معطفه ومزق ردنه، فضربه خلف أذنيه مرتين ثم صفعه بيده اليمنى وهو يدفعه عنه. سقط المحارب وكان رأسه أول ما ارتطم بالأرض، فراح يعدو مع الفتاة، إذ سـمعا الشرطة العسكرية قادمة. استقلا سيارة أجرة

وانطلقا نحو رملي حصا بمحاذاة البوسفور[٣٧] ودارا حوله ثم عادا في الليلة المعتدلة البرودة، وتوجها نحو السرير. كانت، كما تبدو، شديدة النضج، لكنها ناعمة الملمس كتويج الزهرة، حلوة المذاق، تركها قبل أن تستيقظ، وكانت متوردة حتى مع خطوط الفجر الأولى، وحضر إلى بيرا بالاس[٣٨] بعينه السوداء، يحمل معطفه المقطوع الردن.

* * في تلك الليلة غادر إلى الأناضول وتذكر في مرحلة لاحقة رحلته التي قضاها طوال النهار عبر حقول الخشخاش التي كانوا يزرعونها من أجل الأفيون، وذلك الشعور الغريب الذي ينتابك حيث تبدو كل المسافات مغلوطة في نهاية المطاف. ذهب إلى حيث شنوا الهجوم بقيادة ضباط إسطنبول الذين وصلوا من فورهم والذين كانوا يجهلون كل شيء، إلى حيث أطلقت المدفعية النار على القوات وكان المراقب البريطاني يبكي كطفل.

* * كان ذلك أول يوم يرى فيه رجالا موتى يلبسون تنورات باليه بيضاء وأحذية مقلوبة إلى الأعلى ومزينة بكرات من الريش. كان الأتراك يتقدمون بثبات كالأمواج المتلاطمة ورأى ذوي التنورات يتراكضون والضباط يطلقون النار عليهم ثم يتراكضون بدورهم، فركض هو والمراقب البريطاني حتى آلمته رئتاه وامتلأ فمه بطعم القروش وتوقف خلف بعض الصخور، وكان الأتراك

---

(٣٧) التسمية الصحيحة هي «روميلي حصار» وهو اسم حصن روميلي التاريخي الذي بناه السلطان محمد الثاني العام ١٤٥٢، استعدادا لمحاصرة القسطنطينية (إسطنبول لاحقا)؛ أما البوسفور فهو مضيق بحري يفصل بين الشطرين الأوروبي والآسيوي لمدينة إسطنبول [المترجم].

(٣٨) بيرا بالاس: فندق بني العام ١٨٩٢ في مدينة إسطنبول بغرض استضافة مسافري قطار الشرق السريع [المترجم].

لا يزالون يتقدمون كالأمواج المتلاطمة. رأى لاحقا الأشـياء التي لـم تخطر على باله قط، وفيما بعد ذلك رأى فظائع أكبر. لذلك عندما عاد إلى باريس في ذلك الوقت لم يسـتطع الحديث عنها أو أن يتحمـل ذكرها. وبينما كان يمر بالمقهى رأى ذلك الشـاعر الأمريكي يكدس أمامه عددا من صحائف الفناجين ونظرة بلهاء تعلو وجهه الذي يشـبه البطاطا ويتحدث عن الحركة الدادائية مع روماني يقول إن اسـمه هو تريسـتان تزارا كان دائما يرتدي نظارة بعدسـة واحدة ويعاني من صـداع مزمن[٣٩]، وعندما عاد إلى الشـقة وإلى زوجته التـي يحبها الآن بعد أن انتهى الخصام وانتهى الجنون، وفرحا بعودته إلى بيته، أرسـل المكتب بريده إلى شـقته. هكذا إذن وصلت الرسـالة الجوابية على الرسالة التي كان قد كتبها من قبل: وصلت على طبق ذات صباح، وعندما رأى الخط سرت قشعريرة في سائر جسده وحاول أن يدس الرسالة تحت أخرى. لكن زوجته قالت، «ممن تلك الرسـالة، يا عزيزي؟» فكانت هذه نهاية البداية لتلك.

* * تذكـر أوقات الصفاء معهن جميعا، وكذلك الخصام. كن دائما يخترن أجمل الأمكنة لإثارة الخصومات. ولماذا كن دائما يخاصمنه عندما يكـون على خير ما يرام؟ لم يكتب أيا من هذا لأنه في البداية لم يكن يريد أن يجرح مشـاعر أي واحدة منهن، ثم إنه بـدا له أن لديه ما يكفي غير ذلك. لكنه كان دائما يعتقد أنه سيكتب ذلك في نهاية المطاف. كان لديه كثير مما يكتبه. لقد

(٣٩) تريسـتان تزارا (١٨٩٦ - ١٩٦٣): شـاعر وكاتب مقالات فرنسي من أصل روماني، وواحد من أقطاب المدرسـة الدادائية في الفن، وهو صاحب «البيان الدادائي» (١٩١٨) و«محاضرة في الدادائية» (١٩٢٢) [المترجم].

رأى العالم يتغير، ليس الأحداث فقط، على الرغم من أنه رأى كثيرا منها وراقب الناس، لكنه رأى التغير الأقل وضوحا وكان يتذكر كيف كان الناس في الأزمنة المختلفة. لقد كان جزءا من هذا العالم وكان يراقبه، وكان لزاما عليه أن يكتب عنه، لكنه الآن لن يتسنى له ذلك * * *.

«كيف تشعر الآن؟» سألته، وقد خرجت من فورها من الخيمة بعد الاستحمام.

«بخير».

«هل بإمكانك أن تأكل الآن؟» كان مولو يسير وراءها حاملا مائدة قابلة للثني بينما الغلام الآخر يحمل الأطباق.

«أريد أن أكتب»، قال لها.

«عليك أن تتناول بعض الحساء كي تحافظ على قوتك».

«سأموت الليلة، ولا أحتاج إلى المحافظة على قوتي».

«كفاك تمثيلا، يا هاري، أرجوك»، قالت له.

«لماذا لا تستخدمين أنفك؟ لقد تعفن نصف فخذي الآن. فما حاجتي إلى العبث بهذا الحساء؟ مولو، أحضر المشروب».

«أرجوك، تناول الحساء»، قالت له برقة.

«حسن».

كان الحساء شديد السخونة، لذلك اضطر لحمله في الفنجان حتى برد، ثم جرعه دون أن يتقيأ.

«أنت امرأة رائعة»، قال لها. «لا تكترثي لما أقول».

نظرت إليه بذلك الوجه الذي ألفه جدا وأحبه جدا من مجلتي «سبير» و«تاون آند كنتري»، لولا أنه تغضن قليلا بسبب الشراب

وخفـت جاذبيته. ولما نظر إليها ورأى ابتسـامتها الأليفة الرائعة أحس بالموت يداهمه ثانية. لكنه هذه المرة لم يأت دافقا، بل أتى كهبة ريح تجعل نور الشمعة يضطرب ثم يتطاول لهبها.

«يمكنهم أن يخرجوا ناموسـيتي لاحقا ويعلقوها في الشجرة ويشـعلوا النـار. لن أدخل الخيمـة الليلة. لا يسـتحق الأمر أن أتزحزح. والسماء صافية، ولن تمطر الليلة».

إذن، هكذا تموت، بهمسـات لا تسمعها. حسن، لا خصام بعد اليوم. يمكنه أن يعد بذلك. لن يفسـد التجربة الوحيدة التي لم يمر بها من قبل. لكنه قد يفعلها. لقد أفسـدت كل شـيء. لكنه قد لا يفعل.

«لا طاقة لك على الإملاء، أليس كذلك؟».

«لم أتعلم ذلك أبدا»، قالت له.

«لا بأس».

لم يعد هنـاك وقت بالطبع، على الرغم من أنه بدا منضغطا إلى حد يمكنك أن توجزه في فقرة واحدة لو عرفت ذلك.

* * كان هناك بيت مصنوع من جذوع الأشـجار، مسدودة شـقوقه بملاط أبيض، على قمة رابيـة تطل على البحيرة. وكان هناك جـرس مثبت على عمود بجانب البـاب لدعوة الناس إلى طعامهـم في الداخل. خلف البيت تقع حقول وخلف الحقول تقع الغابات. كان صف من أشـجار حـور اللومباردي يمتد من البيت إلى رصيف الميناء، بينما كانت أشجار حور أخرى تمتد على طول الرأس البحري. كان هناك طريق يمتد إلى التلال بمحاذاة الغابة، وكان يقطـف ثمار العليق على طول ذلك الطريق. ثم احترق ذلك

البيت الخشبي واحترقت كل البنادق التي كانت معلقة على علاقات مصنوعة من أقدام الظباء فوق الموقد المفتوح، وبعد أن ذاب الرصاص في المخازن واحترقت مقابض البنادق، تكومت مواسيرها على الرماد الذي استخدم لصناعة المحلول القلوي من أجل مراجل الصابون الحديدية الكبيرة، وسألت جدك إن كان باستطاعتك أن تأخذها لتلعب بها، لكن جدك قال لا. فهي لا تزال بنادقه ولم يشتر غيرها أبدا، ولم يعد يصطاد بها. أعيد بناء البيت في ذات المكان، لكن بألواح خشبية هذه المرة وطلاء أبيض، وكنت تطل من شرفته لترى أشجار الحور والبحيرة وراءها، لكن لم تعد هناك بنادق، وظلت مواسير البنادق التي كانت معلقة على أقدام الظباء المثبتة على جدار البيت المصنوع من جذوع الأشجار، ظلت مكومة على كومة الرماد ولم يلمسها أحد أبدا.

* * بعد الحرب، استأجرنا جدولا في الغابة السوداء[٤٠] فيه سمك السلمون المرقط، وكان هناك طريقان للوصول إليه على الأقدام. كان الأول بالنزول إلى الوادي من تريبيرغ[٤١] والالتفاف مع طريق الوادي في ظل الأشجار المحاذية للطريق الأبيض، ثم تصعد طريقا جانبيا يمر بين التلال ويتجاوز عددا من المزارع الصغيرة وفيها بيوت كبيرة إلى أن يتقاطع ذلك الطريق مع الجدول. هنا كان صيدنا يبدأ.

* * أما السبيل الأخرى فكانت أن تصعد صعودا شاهقا إلى حافة الغابة، ثم تعبر رؤوس التلال عبر غابات الصنوبر حتى

---

(٤٠) الغابة السوداء أو (شفارتس فالد) منطقة جبلية في الجنوب الغربي من ألمانيا [المترجم].
(٤١) تريبيرغ مدينة في منطقة الغابة السوداء الألمانية [المترجم].

تبلغ حافة مرج تمر بوسـطه نزولا إلى الجسـر. تنتصب أشجار البتـولا على طول الجدول الذي لم يكن كبيرا بل ضيقا، صافيا، سـريعا، تقوم على جانبيه برك تشـكلت من جراء مرور الجدول من تحت جذور البتولا. كان الموسـم بالنسبة إلى صاحب الفندق في تريبيرغ موسـما جيدا. كانت الأمور تسير على ما يرام، وكنا جميعا أصدقاء. في السـنة التالية حـل التضخم، ولم يكن المال الذي جمعه في السنة السابقة كافيا لشراء المؤن لافتتاح الفندق فشنق نفسه.

* * يمكنك أن تملي ذلك، لكنك لا تستطيع أن تملي ساحة كونتريسكارپ[٤٢]، حيث كان بائعو الأزهار يصبغون أزهارهم في الشارع، وكان الصباغ يسـيل على حجارة الرصيف حيث ينطلق الأتوبيس، والعجائز، رجالا ونسـاء، يسـكرون على النبيذ وثفل الفاكهة الرديء، والأطفال تسيل أنوفهم في البرد، ورائحة العرق المتعفن والفقر والسـكر في كافيه ديزاماتور والعاهرات في بال ميوزيت فوق المقهى[٤٣] والناظرة التي كانت تستضيف أحد فرسان الحرس الجمهوري في مقصورتها بينما خوذته المزركشـة بشعر الخيل موضوعة على الكرسي. المستأجرة في الطرف الآخر من الصالة، زوجة أحد المشاركين في سباق الدراجات وفرحتها ذلك الصبـاح في مصنع الألبان عندما فتحت جريدة «لوتو» فرأت أن زوجهـا حل في المركز الثالث في سـباق باريـس، وهذا هو أول

---

(٤٢) ساحة كونتريسكارپ ساحة مشهورة في باريس [المترجم].

(٤٣) كافيـه ديزاماتور (مقهى الهواة) مقهى معروف في باريس كان يرتاده همنغواي منذ وصوله إليها العام ١٩٢٢، أما بال ميوزيت فيبدو أنه محل لبيع الأسطوانات الموسيقية كما تشير إلى ذلك المواقع المتعددة على الإنترنت [المترجم].

ســباق كبير يشترك فيه[٤٤]، توردت ثم ضحكت ثم صعدت الدرج باكيــة، والجريدة الرياضية الصفراء فــي يدها[٤٥]، زوج مديـرة بال ميوزيت كان ســائق تاكســي، ويوم كان على هاري أن يسافر باكرا بالطائرة، طرق الزوج بابه ليوقظه ثم تناول كل منهما كأسا من الشراب على حافة المقهى قبل أن ينطلقا. كان يعرف جيرانه في ذلك الحي في تلك الأيام، لأنهم كانوا جميعا فقراء.

* * كان نوعــان من البشــر يتجمعون في تلك الســاحة: السكارى والرياضيون. كان السكارى يقتلون فقرهم بتلك الطريقة، أمــا الرياضيون فقد كانوا يقتلونه بالتدريب. كانوا يتحدرون من الكميونار ولم يجدوا كبير عناء في معرفة الأمور السياســية[٤٦]، كانوا يعرفون مــن قتل آباءهم وأقرباءهم وإخوانهم وأصدقاءهم عندما دخلت قوات ڤرساي واستولت على البلدة بعد أن استولت علــى الكميون فأعدمت كل من ألقت القبــض عليه وكانت يداه متيبستين أو كان يلبس قبعة، أو كان يحمل أي علامة أخرى تدل علــى أنه عامل[٤٧] في ذلك الفقر، وفــي ذلك الحي في الجانب الآخر من الشارع المواجه لبوشــري شوڤالين[٤٨] ومخزن تعاوني

---

(٤٤) جريدة رياضية تأسست العام ١٩٠٣، متخصصة في إقامة سباق الدراجات الطويل المعروف باسم «تور دو فرانس» [المترجم].

(٤٥) يشــير همنغــواي هنا إلــى حقيقــة أن الجريدة كانت تطبــع على ورق أصفــر، ليس إلا [المترجم].

(٤٦) الكميونار هو كل من اشترك في كميون باريس، وهي حكومة اشتراكية استولت على السلطة بــين ١٨ مــارس و٢٧ مايو من العام ١٨٧١، وقــد قامت هذه الحكومة على إثــر هزيمة القوات الحكومية أمام القوات البروسية وتوقيع معاهدة صلح مع المحتلين [المترجم].

(٤٧) اقتحمت قوات ڤيرساي الحكومية العاصمة الفرنسية في ٢ أبريل ١٨٧١، وسحقت كميون باريس بوحشــية في عملية عرفت لاحقا باسم «الأسبوع الدامي» التي راح ضحيتها نحو عشرين ألفا [المترجم].

(٤٨) بوشري شوڤالين: دكان جزارة يُباع فيه لحم الخيول [المترجم].

للشراب كتب بداية كل ما كان يخطط للقيام به. لم يحب قط جزءا من باريس كما أحب هذا الجزء بأشجاره الممتدة وبيوته القديمة المكسوة بالجص الأبيض والمطلية بالبني من الأسفل، واللون الأخضر الطويل لباصاته في تلك الساحة المستديرة، وصباغ زهوره الأرجواني السائل على حجارة الرصيف، والنزول المفاجئ لشارع كاردينال ليموان من رأس الرابية إلى النهر، وعكس ذلك بالنسبة إلى شارع موفيتار بعالمه الضيق المزدحم. الشارع الذي يمتد باتجاه البانتيون(٤٩) وذاك الآخر الذي كان دائما يسلكه بدراجته، وهو الشارع الوحيد المعبد في كل ذلك الحي الأملس تحت العجلات، ببيوته الشاهقة الضيقة وفندقه العالي الرخيص الذي مات فيه بول فيرلان(٥٠). كانت هناك غرفتان فقط في الشقق التي كانوا يسكنون فيها، فاستأجر غرفة في آخر طابق في ذلك الفندق بمبلغ ستين فرنكا في الشهر، حيث كان يكتب ومنها كان يطل على الأسطح والمداخن وكل تلال باريس.

* * *

من الشقة لا تستطيع أن ترى سوى الغابة وكوخ الفحام. كان يبيع الشراب أيضا، الشراب الرديء. رأس الحصان الذهبي خارج دكان بوشري شوفالين حيث كانت الجثث تتدلى ذهبية صفراء وحمراء من النافذة المفتوحة، والمخزن التعاوني المطلي بالأخضر الذي كانوا يشترون منه شرابهم، الجيد والرخيص. البقية كانت

---

(٤٩) البانتيون هو مدفن العظماء الفرنسيين في مدينة باريس [المترجم].

(٥٠) بول فيرلان (١٨٤٤ - ١٨٩٤) شاعر فرنسي، سجن لمدة عامين لإطلاقه النار على صديقه الشاعر الشاب آرتر رامبو وإصابته، وكان قد ارتبط معه في علاقة شاذة. واتسمت المرحلة الأخيرة من حياة فيرلان باللهو [المترجم].

جدرانا جصية ونوافذ الجيران. الجيران الذين كانوا يفتحون نوافذهم ليلا ثم همهمات أحاديثهم عندما يسمعون سكيرا يئن ويتأوه بتلك الثمالة المعهودة عند الفرنسيين التي يدعي الجميع أنها غير موجودة.

* * «أين الشرطي؟ لا يغيب السافل أبدا إلا عندما تريده. لا بد أنه يغازل إحدى حارسات المباني. اتصل بالوكيل». حتى يرشق أحدهم سطلا من الماء من إحدى النوافذ ويتوقف الأنين. «ما هذا؟ ماء. آه، هذه فكرة ذكية!» والنوافذ تغلق. تقول ماري، مدبرة منزله، محتجة على العمل ثماني ساعات، «إذا عمل الزوج حتى السادسة، فإنه لا يسكر إلا قليلا في طريقه إلى البيت ولا يبذر كثيرا. أما إذا عمل حتى الخامسة فإنه يسكر كل ليلة وتذهب فلوسه. إن زوجة العامل هي التي تعاني من تخفيض ساعات العمل هذه».

«ألا تريد مزيدا من هذا الحساء؟» سألته المرأة الآن.

«لا، شكرا جزيلا لك. إنه رائع جدا».

«جرب قليلا فقط».

«أريد مشروبا».

«إنها مضرة بصحتك».

«أعرف أنها مضرة بصحتي، أجل. كتب كول بورتر الكلمات والموسيقى[٥١]، ما يضر بصحتي هو هذه المعرفة أنك تفقدين صوابك من أجلي».

«أنت تعلم أنني أريدك أن تشرب».

---

(٥١) كول پورتر (١٨٩١ - ١٩٦٤) مؤلف موسيقي وكاتب أغان أمريكي [المترجم].

«طبعا. لولا أن الشرب يضر بصحتي».

خطر له أنها عندما تذهب سيتناول كل ما يريد. لا، ليس كل ما أريد بل كل ما هو موجود. آه، إنه متعب، متعب للغاية. سينام قليلا. استلقى بلا حراك ولم يأته الموت. لا بد أنه عرج على شارع آخر. كان يسير زوجا زوجا، على دراجات هوائية، ويتنقل بمنتهى الهدوء في الشوارع.

* * *

* * لا لم يكتب قط عن باريس التي كانت تشغل باله. لكن ماذا بشأن البقية التي لم يكتبها قط؟

* * ماذا عن المزرعة وأغصان المريمية الرمادية الفضية والماء الصافي الذي يهدر متسارعا في سواقي الري ونبات الفصة ذات اللون الأخضر الغامق؟ كان الدرب يتسلق التلال وكانت القطعان في الصيف خجولة كالغزلان. الزعيق والضوضاء الثابتة الوتيرة والكتلة البطيئة الحركة تثير الغبار بينما كنت تقودها إلى الشلال. وراء الجبال تتضح معالم القمة بصفاء حاد في ضوء المساء وبيضاء ناصعة على الطرف الآخر للوادي وأنت تسلك الدرب نزولا في ضوء القمر، راكبا حصانك. تذكر الآن أنه مر في الغابة وهو يمسك بذيل حصانه في الظلام الدامس وكل القصص التي كان ينوي كتابتها.

عن الخادم المعتوه الذي ترك في المزرعة وقتها وأوصي بعدم السماح لأي كان أن يأخذ البرسيم، وذلك الوغد العجوز من فوركس[٥٢] الذي أوسع الغلام ضربا عندما كان يعمل لديه،

---

(٥٢) فوركس: مدينة في الشمال الغربي من ولاية واشنطن الأمريكية [المترجم].

ويتوقف الآن ليأخذ بعـض العلف. الولد يرفض والعجوز يهدده بالضرب ثانيـة. تناول الغلام البندقية مـن المطبخ وأطلق النار عليـه عندما حـاول اقتحام مخـزن العلف وعندمـا عادوا إلى المزرعة وجدوه ميتا منذ أسـبوع، متجمدا في الزريبة وقد أكلت الكلاب جزءا منه. وما تبقى حزمته على مزلجة ولففته بغطاء ثم ربطته بحبل وجعلت الغلام يساعدك على رفعه، حيث أخرجتماه كلاكما إلى الطريق على الزلاجات، ثم السـير سـتين ميلا إلى البلدة لتسـلم الصبي. لم يخطر بباله أنه سـيعتقل. ظن أنه قام بواجبه وأنك صديقه وأنه سـينال مكافأة. لقد ساعد في إدخال العجوز لكي يعرف الجميع أي لص كان ذلك العجوز وكيف حاول أن يسـرق علفا ليس له، وعندما وضع عمدة البلدة يدي الغلام في القيد لم يستطع تصديق ذلك. عندئذ بدأ بالبكاء. كانت تلك قصة احتفظ بها كي يكتبها. كان يعرف على الأقل عشرين قصة جيدة من هناك ولم يكتب واحدة منها قط. لماذا؟ * * *

«أنت قولي لهم لماذا؟» قال لها.

«عم تتحدث، يا عزيزي؟».

«لا شيء».

لم تعد الآن في حاجة إلى الإسراف في الشراب، بما أنه أصبح ملكهـا. لكن إذا عاش، فلن يكتـب عنـها، لـقد أدرك ذلـك الآن، ولا عن أي منهم. الأغنياء بليدون ويسكرون كثيرا أو يلعبون النرد كثيرا. بليدون ويكررون أنفسـهم. تذكر جوليان المسكين وخوفه الوهمي منهم وكيف شرع ذات مرة في كتابة قصة يقول مطلعها: «الأغنيـاء يختلفـون جدا عني وعنك». فقال لـه أحدهم، أجل،

لديهم مال أكثر. لكن جوليان لم يجد هذا القول مضحكا[٥٣]، كان يظن أنهم سلالة مميزة وساحرة، وعندما اكتشف أنهم ليسوا كذلك أصابه اكتشافه بالإحباط أيما إحباط.

كان يحتقر المحبطين. لم يكن لزاما عليك أن تقع في غرام الشيء لأنك فهمته. ظن أنه قادر على التغلب على كل شيء لأنه لا يمكن لشيء أن يؤذيه ما لم يعبأ به.

لا بأس. لن يكترث بالموت الآن. الشيء الوحيد الذي يخافه دائما هو الألم. كان قادرا على تحمل الألم كأي إنسان إلا إذا استمر الألم طويلا وأرهقه، وها هو الآن يكابد ألما مرعبا، وعندما شعر بأنه يحطمه توقف الألم.

* * تذكر زمنا غابرا ليلة أصيب وليامسن، ضابط القنابل، بقنبلة ألقاها عليه أحد أفراد دورية ألمانية، وكان يتسلل عبر الأسلاك في تلك الليلة وهو يصرخ ويتوسل إلى الجميع أن يقتلوه. كان رجلا بدينا، شديد البأس، وضابطا جيدا، لكنه كان مدمنا على الاستعراضات الوهمية. بيد أنه علق في تلك الليلة بين الأسلاك، وقد أحرقه انفجار واندلقت أحشاؤه على الأسلاك، لذلك اضطروا إلى قصها لتحريره من الأسلاك. أحضروه حيا وهو يقول، أطلق علي النار يا هاري. أطلق علي النار بحق الله. تجادلوا ذات مرة قائلين إن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها، وارتأى أحدهم أن ذلك يعني أن الألم يتجاوزك تلقائيا في لحظة ما. لكنه كان دوما يتذكر وليامسن وتلك الليلة. لم يتجاوزه شيء إلى

---

(٥٣) في الطبعات الأولى لهذه القصة، ورد اسم الكاتب الأمريكي سكوت فيتزجيرالد، الذي كان مسحورا بحياة الأغنياء، لكن عندما احتج فيتزجيرالد على ذكر اسمه صراحة، قام همنغواي باستبداله باسم جوليان في الطبعات اللاحقة [المترجم].

أن أعطـــاه كل ما لديه من أقراص الـــدواء التي كان يحتفظ بها لاستخدامه الشخصي، ولم تفعل مفعولها مباشرة. * * *

لكـــن ما لديـــه الآن غاية في الســـهولة، وإذا بقـــي على هذه الحـــال، فلا داعي للقلق. بيد أنه كان يفضل أن يكون في صحبة أفضل.

فكر قليلا في الصحبة التي يتمناها.

فخطر له أنه إذا كنت تستغرق وقتا طويلا في كل ما تفعل أو تتأخـــر في القيام به، فعليك ألا تتوقع أن تجد الناس بانتظارك. لقد ذهب الناس. انتهت الحفلة وبقيت مع مضيفتك الآن.

خطر له أنه مل الاحتضار كما مل كل شيء سواه.

«يا له من شيء ممل!» قال بصوت عال.

«ما هو يا عزيزي؟».

«كل ما يستغرق منك وقتا طويلا».

نظر إلى وجهها بينه وبين النار. كانت تســـتلقي في كرســـيها وضـــوء النار ينير وجهها المخدد الجميـــل، وقد داهمها النعاس. سمع الضبع يحدث جلبة قريبا من محيط النار.

«لقد كنت أكتب، لكنني تعبت»، قال لها.

«هل تعتقد أنك قادر على النوم؟».

«بلا شك. لماذا لا تدخلين خيمتك؟».

«أود أن أجلس معك هنا».

«هل تشعرين بشيء غريب؟».

«لا. أشعر بالنعاس فقط».

«لكنني أشعر به»، قال لها.

لقد شعر من فوره أن الموت قد مر به ثانية.

«هل تعلمين أن الشيء الوحيد الذي لم أفقده قط هو الفضول؟» قال لها.

«أنت لم تفقد شيئا قط. إنك أكمل الرجال الذين عرفتهم في حياتي».

«يا إلهي، ما أنقص عقل المرأة؟! ماذا تقولين؟ هل هذا هو حدسك؟».

لأنه في تلك اللحظة بالذات حضر الموت وأراح رأسه عند قدم السرير وكان بإمكانه أن يشم رائحته.

«لا تصدقي أبدا كل ذلك الحديث عن المنجل والجمجمة»، قال لها[٥٤]، «إذ يمكن بكل سهولة أن يكون شرطيين على دراجتين أو طائرا. أو قد يكون له خطم عريض كخطم الضبع».

لقد أحس بالموت الآن وهو يسري إلى أعلى كيانه، لكنه لم يعد له شكل. كان يحتل حيزا فقط.

«قولي له أن يبتعد».

لم يبتعد، بل اقترب قليلا.

«إن لك نفسا كريها أيها الوغد العفن»، قال له.

تابع تغلغله حتى لم يعد قادرا على الكلام، ولما رأى أنه كف عن الكلام دنا منه قليلا، فحاول أن يبعده عن نفسه من دون أن يتكلم، لكنه تابع غزوه حتى جثا بكامل ثقله على صدره فعطل حركته ولسانه، لكنه سمع المرأة تقول، «لقد نام بوانا الآن. احملوا السرير برفق وأدخلوه الخيمة».

---

(٥٤) يظهر الموت في المخيلة الشعبية الغربية على هيئة هيكل عظمي يرتدي ثوبا أسود ويحمل منجلا كبيرا [المترجم].

لـــم يســـتطع أن يتكلم ليطلب منها أن تبعـــده عنه، فجثا على صدره أثقل مـــن قبل حتى لم يعد قادرا علـــى التنفس. وفجأة، عندما حملوا الســـرير، صار كل شيء على ما يرام وانزاح الثقل عن صدره.

* * *

مضت على بداية الصباح فترة عندما ســـمع هدير الطائرة. بدت صغيـــرة جدا ثم حامت فـــي الجو مرة وتراكـــض الغلمان وأشـــعلوا النيران، مستخدمين الكيروســـين، وكوموا العشب كي يشـــعلوا نارين داخنتين كبيرتين في طرفي السهل، وحمل نسيم الصباح الدخـــان باتجاه المخيم، فحامت الطائرة مرتين أخريين، منخفضة هذه المرة، ثم انحدرت واســـتوت ثم هبطت بسلاســـة، فترجل منها العجوز كومبتون واتجه نحوه، مرتديا بنطالا وسترة صوفية وقبعة لباد بنية.

«ما الأمر، أيها الديك العجوز؟» قال كومبتون.

«ســـاقي مصابـــة»، قـــال لـــه. «هـــل تـــود أن تتنـــاول طعام الإفطار؟».

«لا، شكرا. سأشرب الشـــاي فقط. إنها فراشة كما تعلم[(٥٥)]، لـــن أتمكن من نقل المصاحب. هناك متســـع لشـــخص واحد. وشاحنتك في الطريق إلى هنا».

انتحـــت هيلين بكومبتون جانبا وتحدثـــت إليه. عاد كومبتون مبتهجا على نحو غير مسبوق.

«ســـننقلك فورا»، قال له. «سأعود من أجل المصاحب. لكن

---

(٥٥) هنا يتكلم الطيار بلغة المجاز، وهو يعني أن طيارته صغيرة [المترجم].

علينا أن نتوقف في أروشا[٥٦] للتزود بالوقود. علينا أن نسرع».

«والشاي؟».

«في الحقيقة، أنا لا يهمني الشاي، كما تعلم».

حمل الغلمان السرير وانعطفوا به وراء الخيام الخضراء، فنزلوا به بمحاذاة الصخرة باتجاه السهل مرورا بالنارين الداخنتين اللتين كانتا تتأججان بعد أن احترق العشب، والريح تزيد النار تأججا، إلى أن بلغوا الطائرة الصغيرة. لم يكن إدخاله إلى الطائرة بالأمر السهل، لكن لم يكد يدخل حتى استلقى في المقعد الجلدي، مادا ساقه بشكل مستقيم بجانب المقعد الذي سيجلس عليه كومبتون. شغل كومبتون المحرك وصعد إلى الطائرة. لوح بيده لهيلين والغلمان، وعندما تحول الضجيج إلى ذلك الهدير المألوف، استدار وكان كومبي يتحاشى جحور الخنازير البرية. هدرت الطائرة وانطلقت ترتطم بالطريق الوعرة بين النارين، ومع آخر ارتطام لها ارتفعت، ورآهم واقفين، ملوحين، ورأى المخيم بجانب الرابية التي تنبسط الآن، والسهل يمتد، وكتل الأشجار والغابات تنبسط مع الأرض، في حين بدت الدروب التي تسلكها الحيوانات تنساب بسلاسة إلى ينابيع الماء الجافة، فرأى ماء جديدا لم يعرفه من قبل. حمر الوحش، بظهورها المستديرة الصغيرة الآن، وثيران النو كأنها نقاط ذات رؤوس كبيرة صاعدة وهي تعبر السهل كأصابع طويلة، ثم تتبعثر عندما يتجه الظل نحوها، فتصغر الآن، وتسكن حركتها، ويبتعد السهل عنك على مد البصر، أصفر شاحبا، ولا ترى من كومبي

---

(٥٦) أروشا: مدينة في الشمال الشرقي من تنزانيا [المترجم].

العجوز أمامك سوى ظهره الصوفي وقبعة اللباد البنية. ثم طارا فوق أول التلال التي كانت ثيران النو تتقاطر عليها أرتالا أرتالا، ثم طـــارا فوق جبال ذات أعماق مفاجئة مــن الغابات الخضراء الصاعــدة ومنحدرات الخيزران الصلب، ثــم الغابة الكثيفة مرة أخــرى المقطعة على هيئة قمم وتجويفات، ثــم تلال تنحدر، ثم ســهل آخر، حار الآن، بني، أرجوانـــي، بمطبات حرارية، ويلتفت كومبي ليستطلع أمر صاحبه. وكانت لا تزال أمامهم جبال داكنة أخرى.

وبدلا من الذهاب إلى أروشـــا، انعطفا نحو اليســـار، بعد أن تبين أن لديه وقودا يكفي، ونظر إلى الأسفل فرأى غيمة قرنفلية اللون تتحرك نحو الأرض وفي الجو كتباشـــير الثلج في عاصفة لا يعرف مصدرها، فعرف أن أســـراب الجراد آتية من الجنوب. ثم بدأ بالارتفاع وبدا كأنهما يطيران شرقا، ثم أظلم الجو ودخلا فـــي عاصفة وكان المطـــر كثيفا كأنهما يطيران عبر شـــلال من المياه، ثم خرجا، فالتفت كومبي وابتسم وأشار أمامه، فلم يشاهد سوى قمة كليمنجارو المربعة، كبيرة بحجم العالم، هائلة شاهقة، تلتمع بيضاء في الشمس. فعرف عندئذ أنه يقصد تلك القمة.

في تلـــك اللحظة توقف الضبع عن الأنـــين ليلا وراح يصدر صوتا غريبا، بشـــريا، كأنه نشيج بكاء. ســـمعته المرأة فتحركت حركة ضئيلة قلقة. لم تستيقظ. رأت في المنام أنها في بيتها في لونـــغ آيلند[٥٧]، وكان ذلك في الليلة الســـابقة لظهور ابنتها الأول إلى عالم الفن. وبشكل من الأشكال كان أبوها حاضرا وكان فظا

---

(٥٧) لونــغ آيلنــد (الجزيــرة الطويلــة) جزيرة تشــكل أحد أحيــاء مدينة نيويورك الشــرقية [المترجم].

جدا. ثم استيقظت على صوت الضبع، وظلت لحظة لا تعرف أين هي، فخافت خوفا شديدا. ثم أخذت المشعل الكهربائي وسلطت نوره على السرير الآخر الذي كانوا قد أدخلوه بعد أن ذهب هاري لينام. اســتطاعت أن ترى كتلة جسمه داخل الناموسية لكنه كان يخرج ساقه من تحتها فتتدلى على جانب السرير. وانقشعت كل الضمادات، فلم تجرؤ على النظر إليها.

«مولو!» نادت. «مولو! مولو!»

ثم قالــت، «هاري! هاري!» ثم ارتفع صوتهــا مناديا، «هاري! أرجوك. أوه، هاري!»

لم تجد جوابا على ندائها ولم تتمكن من سماع أنفاسه.

أصدر الضبع خارج الخيمة ذات الصوت الغريب الذي أيقظها. لكنها لم تسمعه بسبب خفقان قلبها.

عجوز عند الجسر
[١٩٣٨]

جلس بجانب الطريق عجوز ذو نظارات لها إطار فولاذي ويرتدي ملابس معفرة جدا بالتراب. كان هناك جسر عائم يمتد فوق النهر وكانت العربات والشاحنات والرجال والنساء والأطفال يعبرونه.

كانت العربات التي تجرها البغال تصعد الضفة الشاهقة من الجسر متثاقلة بينما كان الجنود يساعدون في دفع عجلاتها، أما الشاحنات فقد شقت طريقها صعودا، مبتعدة عن الضفة مسرعة، بينما كان الفلاحون يخوضون في الغبار الذي بلغ كعوبهم. لكن العجوز ظل جالسا بلا حراك. لقد بلغ منه التعب مبلغا أقعده عن متابعة المسير.

لقد كانت مهمتي أن أعبر الجسر وأتفقد رأسه في الضفة الأخرى وأستطلع إلى أي نقطة تقدم العدو. لقد نفذت مهمتي وعدت فوق الجسر. لم يكن هناك كثير من العربات في هذا الوقت، وكان الراجلون قلة، لكن العجوز ظل ملازما مكانه.

سألته، «من أين أنت؟».

فقال مبتسما، «من سان كارلوس».

كانت سان كارلوس مسقط رأسه، ولهذا ابتسم لأن ذكرها يمتعه.

«لقد كنت أرعى الحيوانات»، قال شارحا.

«أوه»، قلت وأنا لا أفهم تماما ما قاله.

«نعم، لقد بقيت، كما تـــرى، لأرعى الحيوانات. كنت آخر من غادر بلدة سان كارلوس».

لــم يكن مظهره يوحي بأنه راع أو صاحب قطيع، فنظرت إلى ملابسه السوداء المغبرة ووجهه الشاحب المعفر بالتراب ونظارته ذات الإطــار الفولاذي، وســألته، «ما نــوع الحيوانات التي كنت ترعاها؟».

فقال وهو يهز رأسه، «عدة أنواع. وكان علي أن أتركها».

كنت أراقب الجســر ومروج دلتا الإيبرو[٥٨] الذي يشبه الريف الأفريقي وأتساءل كم سيطول انتظارنا قبل أن نرى العدو، وأسترق السمع لعلي أســمع بوادر الضجيج التي تأذن ببدء ذلك الحدث المبهم الذي يسمى الالتحام. وظل العجوز ملازما مكانه.

سألته، «أي نوع من الحيوانات كنت ترعى؟».

فقال «لقد كان مجموعها ثلاثة: عنزتان وقطة، بالإضافة إلى أربعة أزواج من الحمائم».

سألته «وكان عليك أن تتخلى عنها؟».

«نعم، بسبب المدفعية. قال لي الكابتن إنه يتعين علي أن أذهب بسبب المدفعية».

«وليس لديك أسرة؟» سألته وأنا أراقب الطرف البعيد للجسر حيث كانت آخر العربات تتدهده فوق منحدر الضفة.

فأجــاب، «لا. فقط الحيوانات التي ذكرتها. ســتكون القطة بطبيعة الحال بخير. فالقطط تستطيع أن تعتني بنفسها، لكنني لا أعرف ماذا سيحل بالبقية».

---

(٥٨) الإيبرو: نهر في الشمال الشرقي من إسبانيا [المترجم].

سألته «إلى أي الأحزاب تنتمي؟».

فقال، «لا أنتمي إلى أي حزب. لقد بلغت من العمر ستة وسبعين عاما، ومشيت اثني عشر كيلومترا الآن، ولا أعتقد أنني أستطيع أن أذهب أبعد من هذا».

فقلت له «ليس هذا مكانا مناسبا للتوقف. إذا كان بإمكانك أن تمشي، فهناك شاحنات عند الطريق الذي يتفرع باتجاه تورتوزا»(٥٩).

قال «سأنتظر لحظة، بعدها سأذهب. أين تذهب الشاحنات؟»

قلت له «باتجاه برشلونة».

فقال «لا أعرف أحدا في تلك الجهة، لكنني ممتن لك كثيرا. أقول لك مرة أخرى إني ممتن لك».

نظر إلي بخواء وتعب شديدين، فقال كأنه يريد أن يشرك غيره في همه، «ستكون القطة بخير بلا شك. ولا داعي للقلق بشأن القطة. لكن البقية. ماذا سيحل بالبقية برأيك؟».

«ربما ستنجو البقية من كل هذا على خير ما يرام».

«تعتقد ذلك؟»

«لِمَ لا؟» قلت وأنا أراقب الضفة البعيدة التي خلت الآن من العربات.

«ولكن ما الذي ستفعله تحت نار المدفعية؟ لقد أجبرت على الرحيل بسبب المدفعية!».

سألته «هل تركت باب القفص مفتوحا للحمائم؟».

---

(٥٩) تورتوزا: مدينة في الشمال الشرقي من إسبانيا [المترجم].

«نعم».

«إذن ستطير».

«أجل، ستطير بالتأكيد. لكن البقية. من الأفضل ألا أفكر في البقية».

قلت له أستحثه «إذا ارتحت فاذهب. انهض وحاول المسير الآن».

«شكرا»، قال وهو ينهض على قدميه، فتمايل يمينا وشمالا، ثم تهاوى على قفاه في التراب.

«كنت أرعى الحيوانات»، قال من غير هدى، لكن ليس لي. «لم أكن أفعل سوى رعي الحيوانات».

لم يكن هناك ما يمكن عمله من أجله. كان الوقت أحد الفصح وكان الفاشيون يتقدمون نحو الإيبرو(٦٠)، كان يوما رماديا مكفهرا منخفض الغيوم، ولهذا لم تحلق طائراتهم.

لم يكن للعجوز من حسن الحظ سوى هذه الحقيقة وأن القطط تعرف كيف تدبر أمرها.

---

(٦٠) الفاشيون هم غلاة القوميين الإسبان الذين تمردوا على النظام الجمهوري، والذين تزعم حكومتهم قائد أركان الجيش الجنرال فرانكو العام ١٩٣٦ بعد أن غزا إسبانيا من المغرب في أثناء الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦ - ١٩٣٩) [المترجم].

على رصيف الميناء في إزمير[٦١]
[١٩٣٠]

قال إن الشيء الغريب هو أنهم كانوا يصرخون كل ليلة عند منتصف الليل. لا أعرف لماذا كانوا يصرخون في ذلك الوقت. لقد كنا في الميناء وكانوا جميعا على الرصيف، وعند منتصف الليل، راحوا يصرخون. لقد كنا نسلط عليهم الأضواء الكاشفة لنُسْكِتهم. وكنا ننجح دائما في ذلك. كنا نسلط أضواءنا الكاشفة مرتين أو ثلاثا، صعودا ونزولا، إلى أن يتوقفوا. في إحدى المرات كنت أنا الضابط القائد على رصيف الميناء، فجاءني ضابطٌ تركي يكاد ينفجر من الغضب لأن أحد بحارتنا أهانه. فقلت له إننا سنرسل الجاني إلى السفينة حيث سينال عقابا قاسيا. وطلبت منه أن يدلني على من أهانه، فأشار إلى مساعد رامي المدفعية، وكان هذا شابا لا يؤذي أحدا. قال إنه أهانه عدة مرات وبشكل مريع، وكان يتحدث إليَّ من خلال مترجم. لم أستطع أن أتصور أن مساعد رامي المدفعية يعرف من التركية ما يؤهله إلى أن يوجه الإهانات بها. ناديته وقلت له: «هذا لمجرد أن تكون قد تحدثت مع أي من الضباط الأتراك».

«لم أتحدث إلى أي منهم، يا سيدي».

---

(٦١) تقع إزمير في غربي تركيا، على بحر إيجة، وهي ثاني أكبر ميناء تركي. بعد انهيار الدولة العثمانية العام ١٩١٨ تنازعت اليونان وتركيا على هذه المنطقة إلا أن معاهدة لوزان (٢٤ يوليو ١٩٢٣) أقرت بسيادة تركيا عليها، ما اضطر الجالية اليونانية فيها إلى الجلاء. والقصة هنا تحكي عن هذا الجلاء [المترجم].

قلــت له: «أنا متأكد من ذلك، لكن من الأفضل أن تذهب إلى السفينة وألا تأتي إلى الشاطئ ثانية فيما تبقى من اليوم».

ثم أخبرت التركي بأن الرجل قد أُرسِــل إلى الســفينة لينال جزاءه العادل. بل جزاءه القاســي. فشعر بالزهو، وأصبحنا من أحسن الأصدقاء.

قال إن أســوأ ما في الأمر هو أمهــات الأطفال الموتى. إذ لا يمكنــك أن تجعلهنّ يتخلّــينّ عن أطفالهن الموتــى. كنّ يحتفظن بأطفالهنّ الموتى لمدة ســتة أيام ولا يتخلين عنهم. وليس في اليد حيلــة. وفي النهايــة عليك أن تنزعهم منهــن انتزاعا. ثم هناك قصة تفــوق العادة عن امرأة عجوز. وعندما حكيت هذه القصة لأحــد الأطباء اتهمني بالكذب. كنا نُخلــي رصيف الميناء منهن، ومن الموتى، وكانت هذه العجوز مســتلقية على ما يشبه المِحَفّة. قلن: «ألا تنظر إليها يا سيدي؟» فنظرت إليها، وفي تلك اللحظة ماتت وتخشبت. انكمشت ساقاها ثم انكمشت من عند خصرها وتَصَلَّبت. تصلبت كما لــو كانت ميتة منذ ليلة أمس. كانت ميتة تماما ومتخشــبة. حكيت هذه القصة لمساعد طبيب فقال: هذا مستحيل.

كانــوا جميعا على رصيــف الميناء، ولم يكــن الأمر كالزلزال إطلاقــا أو ما شــابه؛ لأنهم لــم يكونوا يعلمون بوجــود التركي. لــم يكونوا يعلمون أبدا ماذا ســيفعل التركي. هــل تذكر عندما أمرونا بــألا نأتي لإخلاء المزيد؟ لقد كنــت خائفا عندما دخلنا ذلــك الصباح. كان لديه عدد من المدافع وكان بإمكانه أن يقذف بنا إلى اليابســة. كنا سندخل ونسير بمحاذاة الرصيف، ونقذف

المراسي الأمامية والخلفية في الماء، ثم نقصف الحي التركي من البلدة. كانوا سيقذفون بنا إلى اليابسة وكنا سنحول البلدة إلى جحيم، هكذا ببساطة. لكنهم أطلقوا علينا بضع طلقات خُلَّبيّة عندما دخلنا. ترجّل كمال وطرد القائد التركي، لأنه تجاوز صلاحياته أو شيئا من هذا القبيل. لقد تجاوز حدوده قليلا. كان الأمر سيتحول إلى كارثة.

أنت تذكر الميناء. كانت كثير من الأشياء الجميلة تطفو فيه جيئة وذهابا. وكان هذا كل ما تبقى لي من الحياة، لذلك رحت أحلم بالأشياء. ومشكلتك ليست مع النساء اللواتي كنّ يلدن، بل مع أمهات الأطفال الموتى. كنّ يلدنهم بيسرٍ وسهولة. والغريب أن قليلا منهم كانوا يموتون. كل ما عليك أن تفعله هو أن تغطيهنّ بشيء ما وتتركهنّ يتدبرن أمرهن. كنّ دوما ينتقين أشد الأماكن ظلمة في بطن السفينة ليلدن فيها. كنّ يتلقين كل شيء بصدرٍ رحب حالما ينزلن من رصيف الميناء.

كان اليونانيون أناسا رائعين أيضا. فعندما أُجلوا كسروا الأرجل الأمامية لدوابّهم التي كانوا ينقلون عليها أمتعتهم ولم يستطيعوا أن يأخذوها معهم، فألقوها في المياه الضحلة. كل تلك البغال التي كُسِرَت أرجلها الأمامية ألقي بعضها فوق بعض في المياه الضحلة. لقد كان كل هذا عملا رائعا. نعم، عملا رائعا جدا.

التعريشة الأولى

كان الجميع ثملا. كانت كتيبة المدفعية بأكملها ثملة وهي تسير في طريقها في الظلام. كنا ذاهبين إلى الشراب. ظل الملازم يركب حصانه في الحقول ويقول له، «أقول لك يا صديقي القديم، إني ثمل. آه، إني ثمل جدا». كنا نســير بمحــاذاة الطرق طوال الليل في الظلام، وظل معاون الضابط يسير بمحاذاة مطبخي ويقول: «عليك أن تطفئها. إنها خطرة. ســيراها العدو». كنا على مسافة خمسين كيلومترا من الجبهة، لكن ضابط الانضباط كانت تقلقه النار في مطبخي. كان المســير في ذلــك الطريق مضحكا. كان ذلك عندما كنتُ عريفَ إطعام.

المخيم الهندي
[١٩٢٥]

كان عند شـــاطئ البحيرة قارب تجديف آخر. وكان الهنديان يقفان منتظرين.

قفـــز نِك وأبوه إلى مؤخرة القارب الذي دفعه الهنديان، وقفز أحدهـــم ليجدّفه. جلـــس العم جورج في مؤخـــرة القارب التابع للمخيـــم. دفع الهندي الشـــاب القارب ثم صعـــد ليجدف بالعم جورج.

انطلق القاربان في الظلام. سمع نِك مجاديف القارب الآخر تضـــرب الماء على مســـافة أمامهم في الضبـــاب. كان الهنديان يجدفان بضربات ســـريعة قصيرة. استلقى نِك بينما كانت ذراع والده تطوقـــه. كان الماء باردا. كان الهندي الذي يجدف قاربهما يعمل بجد لكن القارب الآخر كان يسير بسرعة أكبر أمامهما في السديم.

سأل نِك، «إلى أين نذهب، يا بابا؟»

«إلى المخيم الهندي. هناك سيدة مريضة جدا».

«أوه»، قال نِك.

وجـــدا القارب الآخر على الضفة الأخـــرى للخليج. كان العم جورج يدخن ســـيجاره في الظلام. سحب الهندي الشاب القارب إلى الشـــاطئ. أعطى العم جورج ســـيجارا لكلٍّ مـــن الهنديين. ســـاروا من الشـــاطئ عبر مرج نديٍّ يتبعون الهندي الشاب الذي كان يحمل قنديلا. ثم دخلوا الغابة يسلكون دربا يؤدي إلى طريق

الحطّابـين الذي يصل إلى التــلال. كان الظلام أخف وطأة عند طريــق الحطابين، حيث اقتُطعت الأشــجار مــن كلا الجانبين. توقف الهندي الشــاب وأطفأ قنديله ثم تابعوا جميعا مســيرهم على الطريق.

انعطفــوا عند أحد المنحنيات فخرج كلب ينبح. وبدت أمامهم أضواء الأكواخ التي يعيش فيها قاشرو اللحاء الهنود[٦٢]، اندفعت نحوهـــم مزيد من الكلاب، لكن الهنديــين أعاداها إلى الأكواخ. فــي أقرب الأكواخ إلى الطريق كان هناك ضوءٌ في نافذة. وقفت عجوز في المدخل تحمل مصباحا.

في الداخل كانت شابة هندية تستلقي على سرير.

منذ يومين وهي تحاول أن تضع مولودها. وكانت جميع عجائز المخيم يســاعدنها. ابتعد الرجال إلى أعلى الطريق ليجلسوا في الظلام ويدخنوا بعيدا عن الصراخ الذي كانت تصدره. صرخت في اللحظة التي دخل نِــك وأبوه وعمه جورج إلى المخيم يتبعهم الهنديان. كانت تســتلقي على الســرير الأدنى ككتلةٍ كبيرة جدا تحت مِلْحَفتِها. كان رأســها مائلا إلى أحد الجانبين. كان زوجها في الســرير الأعلى، وكان قد جرح قدمه جرحا كبيرا بفأس قبل ثلاثة أيام. كان يدخن غليونا. وكانت رائحة الغرفة كريهة جدا.

أمر والد نِك أن يوضع قليل من الماء على الموقد، وراح يحدث ولده بينما الماء يسخن.

«ستضع السيدة مولودا، يا نِك».

---

(٦٢) يذكــر همنغــواي في قصة «آباء وأبناء»، وهي آخر قصة فــي المجلد الأول، أن الهنود كانوا يقشــرون لحاء الشــوكران ويبيعونه لمعمل الدباغة في بوين ســتي، في ولاية مشيغن التي تدور أحداث هذه القصة في إحدى مناطقها أيضا [المترجم].

«أعرف ذلك»، قال نِك.

«لا إنك لا تعرف»، قال أبوه. «استمع إليَّ. إن ما تمر به يسمى المخاض. يريد المولود أن يولد وهي تريده أن يولد. وجميع عضلاتها تحاول أن ينزل. وهذا ما يحدث عندما تصرخ».

«لقد فهمت»، قال نِك.

في تلك اللحظة صرخت المرأة، فسأل نِك:

«بابا، ألا يمكنك أن تعطيها شيئا يجعلها تتوقف عن الصراخ؟»

«لا. ليس لدي مخدر. لكن صراخها لا يهم. وأنا لا أسمعه لأنه لا يهم».

انقلب الزوج في سريره العلوي ليواجه الجدار.

أشارت المرأة في المطبخ إلى الطبيب بأن الماء أصبح ساخنا. دخل والد نِك إلى المطبخ وأفرغ ما يقرب من نصف الماء من الغلاية الكبيرة في حوض. ثم وضع في الماء المتبقي في الغلاية عدة أشياء كان يَصُرُّها في منديل.

«يجب أن تغلي هذه»، قال وراح يفرك يديه في الماء الساخن في الحوض بقطعة صابون جلبها معه من المخيم. كان نِك يراقب والده وهو يفرك يديه بالصابون. وكان يتحدث وهو يغسل يديه بعناية تامة.

«يُفترض، يا نِك، أن يولد الأطفال بخروج الرأس أولا، لكنهم أحيانا لا يفعلون. وعندما لا يفعلون، فإنهم يسببون الصعاب للجميع. قد يتعين عليّ أن أجري عملية لهذه السيدة. سنعرف ذلك بعد قليل».

عندما تأكد من نظافة يديه دخل الكوخ وانهمك في عمله.

«من فضلك يا جورج اسـحب تلك الملحفة إلـى الوراء. فأنا أفضل ألا ألمسها».

عندما بدأ يجري العملية فيما بعد أمسـك العم جورج وثلاثة رجال هنود المرأة. عضت العم جورج من ذراعه فقال العم جورج: «انظر إلى هذه العاهرة الهندية اللعينة!» فضحك الهندي الشاب الذي قاد قـارب العم جورج. كان نِك يمسـك بالحوض لوالده. اسـتغرق الأمر وقتا طويلا. التقط أبـوه المولود وصفعه ليجعله يتنفس ثم ناوله إلى المرأة العجوز.

«انظر، إنه صبي يا نِك. ما رأيك أن تكون طبيبا متمرنا؟»

«لا بأس»، قال نِك. كان يشيح بناظريه كي لا يرى ما يقوم به والده.

«حسـنٌ، يكفي هذا»، قال أبوه ثم وضع شيئا في الحوض لم ينظر نِك إليه.

«والآن لدي بعض القُطَب. يمكنك، يا نِك، أن تراقب أولا، وفق رغبتك. سأخيط الجرح الذي شققته».

لم يراقب نِك حيث إن فضوله قد ولّى منذ زمن.

انتهى والده ووقف. وقف العم جورج والرجال الهنود الثلاثة. وضع نِك الحوض في المطبخ.

نظر العم جورج إلى ذراعه، ابتسم الهندي الشاب ابتسامة من يتذكر الأيام الخوالي.

«سأضع شيئا من البيروكسيد عليه، يا جورج»، قال الطبيب. ثم انحنى فوق المرأة الهندية. لقد هدأت الآن وأغمضت عينيها.

كانت شـــاحبة جـــدا . لم تكن تـــدري ماذا حـــلَّ بمولودها أو أي شيء.

قـــال الطبيـــب وهو يقف: «ســـأعود فـــي الصباح. ســـتأتي الممرضة من ســـينت إغْنَس هنا قبل الظهر وستجلب معها كل ما نريد»[٦٣].

كان يشعر بالانتشاء وبرغبة في الحديث كأنه لاعب كرة قدم في غرفة الملابس بعد مباراة.

«هذه جديرة بالمجلة الطبية، يا جورج. إجراء عملية قيصرية بوساطة سكين جيب وتسع أقدام من فَتيلٍ رفيع».

كان العم جورج يستند إلى الجدار وينظر إلى ذراعه، فقال: «أوه، أنت إنسان عظيم، من غير شك».

«عليـــك أن تلقي نظرة إلى الوالـــد الفخور. في هذه القضايا الصغيرة عادة ما يكابد الآباء الأمرّين»، قال الطبيب.

«لكـــن الحق يقـــال إن هـــذا الرجل تعامل مـــع الأمر بمنتهى الهدوء».

ثم ســـحب الملحفة إلى الوراء، كاشـــفا عن رأس الهندي. لكن يده أصابها شـــيء من البلل. صعد على حافة الســـرير الأسفل والمصبـــاح بيده ونظر إلى الداخل. كان الهندي مســـتلقيا ووجهه نحـــو الجدار. كان مذبوحا من الوريـــد إلى الوريد. كان الدم قد شـــكل بركة تحت وطأة جســـمه المتثاقل على السرير. كان رأسه يتوسد ذراعه اليسرى. وكانت الشفرة المفتوحة في الملاحف.

قال الطبيب: «أخرج نِك من الكوخ، يا جورج».

(٦٣) تقع مدينة ســـينت إغنس في الشطر الشمالي من ولاية مشيغن على مضيق ماكيناك الذي يفصل بحيرة مشيغن عن بحيرة هوران [المترجم].

لـم تكن هناك حاجة إلى ذلك، حيث إن نِك نال من السـرير الأعلى نظرة كافية وهو يقف في باب المطبخ، عندما أمال والده رأس الهندي نحو الخلف، والمصباح بيده.

كان النهـار يرسـل خيوطه الأولى عندما قفلـوا راجعين إلى البحيرة، يسلكون طريق الحطّابين.

«أنا آسـف جدا، نِك، لأنني جئـت بك معي»، قال والده، وقد تلاشـى الانتشاء الذي أصابه بعد العملية. «كان خطأ فادحا أن أضعك في هذه الورطة».

«هل تعاني السيدات دائما الأمرّين عندما يلدن؟» سأل نِك.

«لا، فما حدث كان أمرا استثنائيا جدا».

«بابا، لماذا قتل نفسه؟»

«لا أعرف يا نِك. ربما لم يستطع التحمل».

«بابا، هل يقتل كثير من الرجال أنفسهم؟»

«لا، لا يقتل كثيرٌ منهم أنفسهم، يا نِك».

«وهل تقتل كثيرٌ من النساء أنفسهن؟»

«من النادر جدا».

«على الإطلاق؟»

«آه، طبعا. يقتلن أنفسهن أحيانا».

«بابا؟»

«نعم»

«أين ذهب العم جورج؟»

«سيكون على خير ما يرام».

«بابا، هل الموت صعب؟»

«لا. أعتقد أنه سهل جدا، يا نِك. هذا أمر نسبي».

كانـــا في القارب، نِك يجلس فــي المؤخرة، بينما أبوه يجدّف. كانت الشمس تبزغ من خلف الهضاب. قفزت سمكةٌ من نوع ذئب البحـــر، جاعلـــة دائرة في الماء. جرجر نِك يده في الماء، فشـــعر بالدفء رغم الطقس الصباحي القارس.

فـــي هذا الصباح الباكر في البحيـــرة وهو يجلس في مؤخرة القارب الذي يقوده أبوه، كان واثقا تماما بأنه لن يموت.

التعريشة الثانية

كانــت مآذن إديرنة[٦٤] تنتصب في المطر فوق البيوت الطينية. وكان طريــق قرة أغاتــش يغص بالعربات لمســافة ثلاثين ميلا. جواميــس الماء والدواب تجر العربــات في الأوحال. لا نهاية ولا بداية. فقط عربات محملة بكل شيء يملكونه. كان الشيوخ والنساء يســيرون، وقد ابتلّت ثيابهم جميعا، بمحاذاة العربات يستحثون دوابهم على المســير. اللون الأصفر يغطي نهر الماريتسا[٦٥] حتى الجسر تقريبا. كان ازدحام العربات فوق الجسر شديدا، وكانت الجِمــال تطوف بينها. كان الخيالة اليونانيون يســوقون الموكب. كانت النســاء والأطفال في العربات يجثمون مع المفارِش والمرايا وآلات الخياطة والصُّرر.

وكانت هناك امرأة تضع مولودها بينما صبيّة صغيرة تمسك بملحفة فوقها وتبكي. منظر يبعث على الغثيان. وظل المطر يهطل طيلة الإجلاء.

(٦٤) تقــع مدينة إديرنة (أو أدريانوبولِس باليونانية) فــي أقصى الغرب من تركيا (نحو ٢٧٠ كم غرب العاصمة إســطنبول). استولى عليها العثمانيون العام ١٣٦٢ هجرية، وجعلوها عاصمة لهم من ١٣٦٥ حتى ١٤٥٣، وفي العام ١٩١٢ شــكلت بلغاريا، وصربيا، واليونان، والجبل الأسود حِلفا لانتزاعها من تركيا، لكن حاميتها استبسلت في الدفاع عنها فأفشلت خطتهم [المترجم].

(٦٥) ينبع نهر ماريتســا من جنوبي بلغاريا ثم يتجه جنوبا عبر الشطر الأوروبي من تركيا ليصب في البحر الأبيض المتوسط [المترجم].

الطبيب وزوجته
[١٩٢٥]

جاء دِك بولتُن من المخيم الهندي لتقطيع زنود الخشــب لوالد نِك. جلب معه ولده إدي وهنديا آخر يدعى بِلي تابشـو. خرجوا من الغابة ودخلوا من البوابة الخلفية، وكان إدي يحمل منشــاره الطويل. كان المنشــار يرتفع وينخفض فــوق كتفه، محدثا صوتا موسيقيا عندما يمشــي. وكان بلي تابشو يحمل كُلاّبين كبيرين، بينما حمل دِك ثلاث فؤوسٍ تحت إبطه.

التفــت وأغلق البوابــة بينما تابع الآخــران طريقهما باتجاه شاطئ البحيرة حيث زنود الخشب مدفونة في الرمال.

كانت الزنــود قد فُقِدت من أطواف الأخشــاب الكبيرة التي كانت الســفينة ماجِك تجرها عبر البحيرة إلى المنشــرة. كانت قد جنحت إلى الشــاطئ، وإن لم يجرِ شــيء بشأنها فإن طاقم الســفينة ســيرتادون الشــاطئ آجلا أو عاجلا بقارب تجديف، فيرون الزنود، ويدقون مســمارا حديديا لــه حلقة في نهاية كل زند، ويجرونها إلى وسط البحيرة كي يصنعوا منها طوفا جديدا. لكنّ تجار الأخشــاب قــد لا يأتون؛ لأن بضعة زنود لا تســاوي الأجــرة التي يدفعونها لجمعها. وإن لم يأت أحد من أجلها فإنها ستُترك حتى تتشبع بالماء وتهترئ على الشاطئ.

هــذا ما توقعه والد نِك دائما، فاســتأجر الهنــود ليأتوا من المخيّم ويقطّعوا الزنود بمناشــيرهم وينصّفوها بوساطة إسفين ليصنعــوا منها أكــداس الحطب للموقد المفتــوح. دارَ دِك بولتُن

حــول الكوخ ثم تجاوزه باتجاه البحيــرة. كانت هناك أربعة زنود كبيرة من خشــب الزان تكاد تكــون مدفونة في الرمل. علّق إدي المنشار من أحد مقابضه في مُنفَرَج جذع شجرة. كان دِك مُوَلَّدا وكان كثيــرٌ مــن الفلاحين في محيط البحيــرة يعتقدون أنه في الحقيقة رجل أبيض. كان كســولا جدا، لكنه يعمل بجد إذا بدأ. أخرج قرص تبغ مضغوط من جيبه، فأخذ قضمة منه، ثم تحدث بلغة الأوجبواي إلى إدي وبلي تابشو.

غــرزوا نهايات كُلاّباتهم فــي واحد من الزنــود وهزوه بغية خلخلتــه من تحت الرمل. التفت دِك بولــتُن إلى والد نِك وقال: «هذه الكمية التي تسرقها من الخشب كبيرة، يا حكيم»(٦٦).

«إيّاكَ أن تتحدث بهذا الشــكل، يا دِك،» قــال الطبيب. «إنه خشب جرفه التيار».

فــي هذه الأثناء كان إدي وبلي تابشــو قــد خلَّصا الزند من الرمل الرطــب ودحرجاه باتجاه الماء، فصــاح فيهما دِك بولتُن، «غَطِّساه جيدا».

«لماذا تفعل ذلك؟» سأله الطبيب.

«لغســله وتنظيفه من الرمل تحضيرا لنشره. أريد أن أعرف إلى من تعود ملكيته»، قال دِك.

كان الزنــد تغمره ميــاهُ البحيرة. اتكأ إدي وبلي تابشــو على كُلاّبيهمــا وهما يتصببان عرقا تحت الشــمس. جثــا دِك على ركبتيــه في الرمل وراح ينظر إلى العلامــة التي تخلّفها مطرقة القَشر في الخشب في نهاية الزند.

---

(٦٦) استخدمتُ كلمة «حكيم» لكونها المرادف العامي لكلمة Doc المختصرة [المترجم].

وقف وهو ينفض الرمل عن ركبتي بنطاله ثم قال:

«تعود ملكيته إلى وايت ومكنولي».

شعر الطبيب بحرج شديد. ثم قال باختصار:

«إذن، من الأفضل ألاً تنشره، يا دِك».

فقـــال دِك، «لا تغضب يا حكيم، لا تغضب. أنا لا يهمني ممن تسرق. لا يهمني إطلاقا».

«إذا كنت تعتقد أن الزنود مسروقة، إذن فدعها وعد بأدواتك إلى المخيم»، قال الطبيب مُحْمَرَّ الوجه.

«لا تطلق النار وأنت في وضعية الإصلاء، يا حكيم»، قال دِك ثم بصق عصير التبغ على الزند. ســال ثم تلاشــى في الماء.

«أنا وأنت نعلم أنها مسروقة، والأمر سيّان عندي».

«حسن، إذا كنت تظن أنها مسروقة، فَخُذْ أدواتك واخرُج».

«اسمع، يا حكيم...»

«خذ أدواتك واخرج».

«اسمع، يا حكيم».

«إن ناديتني حكيما مرة أخرى، ســأجعل أســنانك في حلقك بلكمة واحدة».

«لا، لن تفعلها يا حكيم».

نظـــر دِك بولـــتن إلى الطبيب. كان دك رجـــلا ضخما وكان يعـــرف مدى ضخامته. وكان يحب المشـــاجرات. كان ســـعيدا. اتكأ إدي وبلي تابشـــو على كُلاّبيهما ونظرا إلى الطبيب. قضم الطبيب شـــعر لحيته النابت على شـــفته السفلى ونظر إلى دِك

بولتن. ثم أشاح بناظره بعيدا، وصعد الرابية باتجاه الكوخ. كان غضبــه باديا لهم من ظهره. راقبــوه جميعا وهو يصعد الرابية ويدخل الكوخ.

قال دِك شــيئا بلغة الأوجبواي. ضحك إدي لكن بلي تابشــو بدا جادا. لم يكن يفهم الإنجليزية، لكن عرقه ظل يتصبب طوال الشجار. كان سمينا وكان شارباه يتألفان من بضع شُعيرات كأنه رجل صيني. التقط الكُلاّبين، وحمل دِك الفؤوس بينما أنزل إدي المنشار من الشجرة.

انطلقوا وساروا متجاوزين الكوخ وخرجوا من البوابة الخلفية باتجاه الغابة. ترك دِك البوابة مفتوحة. رجع بلي تابشــو وأحكم إغلاقها. ثم مضوا في الغابة.

في الكوخ كان الطبيب يجلس على ســريره في غرفته، فرأى كومــة من المجلات الطبية علــى الأرض بجانب المكتب. كانت لا تزال ملفوفة، غير مفتوحة. لقد أغاظه الأمر.

«ألــن تعود إلى عملك يا عزيزي؟» ســألت زوجة الطبيب من غرفتها التي كانت تستلقي فيها والستائر مُسدلة.

«لا!»

«هل هناك من خطب؟».

«تشاجرتُ مع دِك بولتن».

«أوه، أرجــو ألا تكون قد فقدت أعصابــك، يا هنري»، قالت زوجته.

«لا»، قال الطبيب.

«تذكّر أن من يَتَحكَّم في هواه أعظم ممن يفتح مدينة»، قالت

زوجته. كانت من أتباع العلم النصراني[٦٧].

كان الكتاب المقدس ونسخة من كتاب «العلم والصحة» ومجلة «كوارترلي» الفصلية على مائدة بجانب سريرها في الغرفة المعتمة.

لم يُجب زوجُها. هو الآن جالس على سريره، ينظف بندقيته. ملأ المخزن بالطلقات الصفراء الثقيلة ثم أفرغه، فتناثرت على السرير.

«هنري»، نادت زوجته. ثم توقفت لحظة، «هنري!»

«نعم»، قال الطبيب.

«هل قلت شيئا يُغْضِبُ بولتن؟».

«لا».

«علامَ تشاجرتما، يا عزيزي؟».

«لا شيء يستحق الذكر».

«قل لي يا هنري. أرجوك ألا تخفي شيئا عني. علامَ تشاجرتما؟».

«حسنٌ، دِك مدين لي بمبلغ كبير من المال لأنني أنقذت زوجته من التهابٍ في الرئة، وأعتقد أنه افتعل هذه المشاجرة لكيلا يسدد ما لي عليه بالعمل عندي».

صمتت زوجته. مسح الطبيب بندقيته بِخِرْقَة.

ضغط على نابض المخزن كي يلقمه بالطلقات. جلس والبندقية على ركبتيه، وكان مولعا بها. ثم سمع صوت زوجته تناديه من غرفتها المعتمة.

---

(٦٧) هنا تستشهد الزوجة بالمثل السادس عشر من سفر الأمثال في العهد القديم، أما العلم النصراني فهو مذهب ديني يرى أن الموت والمرض والخطيئة يمكن التغلب عليها من خلال فهم الدين [المترجم].

«عزيزي، لا أظن، لا أظن حقا أن مخلوقا يفعل شيئا من ذلك القبيل إطلاقا».

«لا تعتقدين؟» سألها الطبيب.

«لا، لا أستطيع أن أصدق أن مخلوقا يفعل شيئا من ذلك القبيل عن قصد».

وقف الطبيب وركن البندقية في الزاوية خلف الخزانة.

«هل أنت خارجٌ، يا عزيزي؟» سألت الزوجة.

«أعتقد أنني سأخرج لأتمشى»، قال الطبيب.

«إذا رأيت نِك، يا عزيزي، هلاّ أخبرته أن أمه تريد أن تراه؟» قالت زوجته.

خرج الطبيب إلى الشرفة، فانصفع الباب وراءه. سمع زوجته تشهق عندما انصفع الباب.

«آسف»، قال قريبا من نافذتها ذات الستائر المُسدلة.

«لا بأس، يا عزيزي»، قالت.

سار في الهجير خارجا من البوابة، يشق طريقه عبر غابة الشوكران(٦٨)، كان الجو باردا في نهاية الغابة حتى في مثل هذا اليوم القائظ. وجد نِك يجلس مستندا إلى شجرة، ويقرأ.

«أمك تريدك أن تذهب إليها وتراها»، قال له الطبيب.

«أريد أن أذهب معك»، قال نِك.

رمقه والده بنظرة وقال:

«حسنٌ، هيا بنا. أعطني الكتاب. سأضعه في جيبي».

---

(٦٨) الشوكران شجر دائم الخضرة من الفصيلة الصنوبرية، يستخرج منه شرابٌ سام، ويُستعمل لحاؤه لأغراض الدباغة [المترجم].

قال نِك، «بابا، أعرف أين توجد السناجب السوداء».
قال أبوه، «حسنٌ، لِنذهبْ إليها».

التعريشة الثالثة

كنـــا في حديقة فـــي مونس[٦٩]، جاء بَكلي الشـــاب مع دوريته عبر النهر. أول ألماني رأيتُه تســـلَّق سور الحديقة. انتظرنا حتى وضع ساقه فوق السور ثم أطلقنا النار عليه. كان يحمل كثيرا من المُعِدّات وبدا مندهشا جدا فسقط داخل الحديقة.

وعلى مسافة أبعد تســـلق الجدارَ ثلاثةٌ آخرون. أطلقنا النار عليهم. لقد جاءوا جميعا على هذه الشاكلة.

---

(٦٩) مونس مدينة في بلجيكا قريبة من الحدود مع فرنسا [المترجم].

نهاية شيء
[١٩٢٥]

في سالف الأيام كانت هورتنز باي عبارة عن منشرة للأخشاب. لم يكن أيّ من ساكني البلدة بمنأى عن سماع أصوات المناشير الكبيرة في المنشرة قرب البحيرة. ثم جاءت سنة لم تعد هناك زنود للنشر. كانت المراكب الشراعية تدخل الخليج وتُحمّل بأكداس الخشب المقطوعة المكدسة في الساحة.

حُمِلَتْ جميعُ أكداس الخشب بعيدا. فكك العاملون في المنشرة الآلات القابلة للنقل من مبنى المنشرة الكبير وحملوها على متن أحد المراكب الشراعية. أبحر المركب من الخليج في عرض البحيرة يحمل المنشارين الكبيرين والعربة السيارة التي تُلَقِّم الزنود للمناشير الدائرة الدوّارة وكل المراديس والدواليب والسيور والحديد التي كوّمها العاملون فوق حمولة خشبية يبلغ ارتفاعها ارتفاع بَدَنِ السفينة. كان عنبرها المفتوح مغطى بقماش القنّب ومحزوما حزما محكما، وانتفخت أشرعة المركب الذي أبحر في عرض البحيرة، يحمل معه كل ما جعل من المنشرة منشرة ومن هورتنز بلدة.

ظلت بيوت العمال البسيطة ذات الطابق الواحد، والمطعم، والمخزن العائد للشركة، ومكاتب المنشرة، والمنشرة ذاتها، ظلت مهجورة وسط مساحات ممتدة من نشارة الخشب التي كانت تغطي المرج المستنقعي بجانب شط الخليج.

عندما حط نِك ومارجُري بقاربهما على الشاطئ بعد عشر

سنين لم يجدا من المنشرة سوى حجارة الأساس الكلسية البيضاء المكسرة البارزة من خلال أخلاف الأشجار المستقعية[٧٠]، كانا يطوفان بمحاذاة حرف ضفة القناة عندما انحدر القاع فجأة من مياه رملية ضحلة إلى اثنتي عشرة قدما من الماء الداكن. كانا يتجهان نحو اللسان البري لنصب صنارات الليل لاصطياد سمكات السلمون القُزَحية.

«تلك أطلالنا القديمة، يا نِك»، قالت مارجُري.

نظر نِك الذي كان يجدف القارب إلى الحجر الأبيض بين الأشجار الخضراء، وقال:

«أجل، هذه هي».

«أتذكر عندما كانت منشرة؟» سألته مارجُري.

«أجل أذكُر»، قال نِك.

«تبدو أشبه بقلعة»، قالت مارجُري.

لم يقل نِك شيئا. جدّفا مبتعدين عن مرأى المنشرة، يسيران بمحاذاة الشاطئ. ثم انحرف نِك بشكل متصالب مع الخليج قائلا:

«إنها لا تعض على الطُّعم».

«لا»، قالت مارجُري. كان بصرها مركزا على الصنارة طوال تطوافها، حتى وهي تتكلم. كانت تحب الصيد. كانت تحب الصيد مع نِك. على مقربة من القارب شقت سطحَ الماء سمكةُ سلمون كبيرة. جذب نِك أحد المجدافين بقوة كي يستدير القارب بحيث يسمح بمرور الطعم إلى حيث كانت سمكة السلمون تَطْعَم. عندما

---

(٧٠) الأخلاف هي ما ينمو من الأشجار بعد قطعها [المترجم].

برز ظهر السمكة من الماء تقافزت سمكات المِنَّوة[71] الصغيرة باهتياج شديد، متناثرة على سطح الماء حتى كأنه رُشَّ بحفنة من خُرْدُق. شقت سمكة سلمون أخرى سطح الماء وكانت تَطْعَم على الجانب الآخر للقارب.

«إنها تَطْعَم»، قالت مارجُري.

«لكنها لا تعض على الطعم»، قال نِك.

أدار القارب كي يبتعد عن السمكتين الطاعمتين، ثم اتجه به نحو اللسان البري. لم تشد مارجُري بكرة الصنارة حتى لامس القارب الشاطئ.

سحبا القارب إلى الشاطئ ثم انتشل نِك دلوا مملوءا بسمك الفرخ. كانت الأسماك تسبح في ماء الدلو. تناول ثلاثا منها، فقطع رؤوسها ثم سلخها بينما كانت يدا مارجري تطاردان الأسماك في الدلو إلى أن أمسكت بواحدة، فقطعت رأسها، ثم سلختها. نظر نِك إلى سمكتها وقال:

«لا تنزعي زعنفة البطن. إنها طعم لا بأس به، لكن الأفضل عدم نزعٍ زعنفة البطن».

شكَّ صنارة بكل واحدة من سمكات الفرخ المسلوخة عند ذيلها. كانت كل عصا مزودة بصنّارتين متصلتين بدليل[72]. عندئذٍ اتجهت مارجُري بالقارب نحو ضفة القناة، بينما كانت تمسك الخيط بين أسنانها وتنظر إلى نِك الذي بقي على الشاطئ ممسكا بالعصا تاركا الخيط يَكرُّ على البَكَرة.

---

(٧١) المِنُّوَة: سمك أوربي صغير [المترجم].

(٧٢) الدليل: شيء يقود الأسماك إلى الصنارة [المترجم].

«لا بأس هنا»، نادى عليها.

«هـل ألقيه هنا؟» سـألته مارجُري بعد أن أمسـكت الخيط بيدها.

«نعم، ألقيه». قذفت مارجُري الخيط من فوق القارب وراقبت الطعمين وهما ينزلان في الماء.

عادت إلى الشـاطئ بقاربها لتأخذ الخيط الثاني بالطريقة نفسها. ثبّت نِك العصا بوضع قطعة خشب ثقيلة فوق عُجيزتها ثم رفعها من الأسـفل بقطعة خشـب صغيرة. ثـم كرّ الخيط المرتخي على البكرة بحيث أصبح مشدودا إلى حيث كان الطعم يسـتقر على القاعِ الرملي للقناة، ثم وضع المزلاج على البكرة. عندما تبتلع سمكةُ سـلمون الطعمَ في القاع، فإنها ستهرب به سـاحبة الخيط من البكرة باندفاعٍ يجعـل البكرة تصدر طنينا بسبب المزلاج.

جَدّفت مارجُري باتجاه اللسـان البـري قليلا لكي لا تحرك الخيط. شدّت المجدافين بقوة فصعد القارب إلى الشاطئ تتبعه بعض المويجـات. قفزت مارجُري من القارب فسـحبه نِك فوق الشاطئ.

«ما الأمر، يا نِك؟» سألت مارجُري.

«لا أعرف»، قال نِك وهو يجمع حطبا كي يشعل نارا.

أشـعلا نارا من خشـب الطوف. ذهبت مارجُري إلى القارب وأحضرت بطانية. حملت نسـمات المساء الدخان باتجاه اللسان البري، لذلك مدَّت مارجُري البطانية بين النار والبحيرة.

جلسـت مارجري على البطانية تنتظر نك وظهرها إلى النار.

جاء ثم جلس بجانبها على البطانية. كانت الأخلاف النامية على اللســـان البري تتصب من ورائهما، ومـــن أمامهما يصب جدول هورتتـــز في الخليج. لم يكن الظلام قد حلَّ بعد. كان ضوء النار ينتشر حتى الماء. وكانت البكرتان تلتمعان في وهج النار.

فتحت مارجُري سلة العشاء.

«لا أشعر برغبة في الأكل»، قال نِك.

«هيّا كُل، يا نِك».

«حسنٌ».

أكلا بصمت وراقبا العَصَوَيْن ووهج النار ينعكس على ســـطح الماء.

«ستكون الليلة مقمرة»، قال نِك. نظر عبر الخليج إلى التلال التي بدأت معالمها تزداد حدة على صفحة السماء. كان يعرف أن القمر آتٍ من وراء التلال.

«أعرف ذلك»، قالت مارجُري بسعادة.

«أنت تعرفين كل شيء»، قال نك.

«أرجــوك نك أن تكــف عن هذا! أرجوك، أرجــوك ألا تكون هكذا!»

«لا أستطيع. أنت فعلا تعرفين. تعرفين كل شيء. وهنا تكمن المشكلة. وأنت تعلمين أنك تعرفين».

لم تقل مارجُري شيئا.

«لقد علمتكِ كل شيء. أنت تعلمين أنك تعرفين. قولي لي: ما الذي لا تعرفينه؟»

«أوه، اخرس!» قالت مارجُري. «ها قد طلع القمر».

جلسا على البطانية يرقبان القمر يرتفع من دون أن يتلامسا.

«ما لَكَ وهذا الكلام السخيف، ما الأمر؟» سألت مارجُري.

«لا أعرف».

«بالطبع تعرف».

«لا، لا أعرف».

«هيا، قل ما يجيش في صدرك».

نظر نك إلى القمر وهو يرتفع من وراء التلال.

«لم يعد في الأمر متعة».

كان يخشى أن ينظر إليها. ثم نظر إليها. كانت تجلس مديرة ظهرها نحوه. نظر إلى ظهرها. «لم يعد في الأمر متعة على الإطلاق».

لم تقل شيئا. تابع، «أشعر بأن كل شيء في داخلي قد ولّى إلى الجحيم. لا أعرف يا مارج. لا أعرف ماذا أقول».

ظل ينظر إلى ظهرها.

«أليس في الحب أي متعة؟» سألت مارجُري.

«لا»، قال نك. انتصبت مارجُري واقفة.

ظل نك جالسا وهو يمسك رأسه بين يديه.

«سآخذ القارب»، نادت عليه مارجُري: «يمكنك أن تسير عائدا إلى اللسان البري».

«حسنٌ»، قال نِك. «سأدفع لك القارب في الماء».

«لا داعي لذلك»، قالت له. ركبت قاربها في الماء وضوء القمر منعكس عليه. عاد نك واستلقى بجانب النار وهو يلف وجهه

بالبطانية. كان يستطيع أن يسمع صوت مجاديفها وهي تضرب الماء.

ظل مستلقيا هناك مدة طويلة. ظل مستلقيا عندما سمع بِل يدخل فُسحة الغابة ويشق طريقه عبر الأشجار. شعر به وهو يقترب من النار. لم يلمسه بِل بدوره.

«هل ذهبتْ بسلام؟» سأله بل.

«نعم»، قال نك، كاذبا، ووجهه ملتف بالبطانية.

«هل تشاجرتما؟»

«لا، لم نتشاجر»

«كيف تشعر؟»

«أوه، ابتعد عني يا بل! ابتعد عني قليلا»

انتقى بِل شطيرة من سلة العشاء ثم راح يلقي نظرة إلى الصنارات.

التعريشة الرابعة

كان يوما شديد الحرارة. نصبنا حاجزا رائعا فوق الجسر. كان بكل بساطة لا يُقدر بثمن. حاجز كبير وقديم من الحديد المشغول والمُشَبّك. كان ثقيلا وعصيا على الرفع ويمكنك أن تطلق النار من خلاله وعليهم أن يتسلقوه. كان غاية في الروعة. حاولوا أن يتسلقوه، فأطلقنا النار عليهم من مسافة أربعين ياردة. هاجموه وجاء ضباطٌ فُرادى وحاولوا معالجته. كان عائقا غاية في الروعة. كان ضابطهم من أفضل الضباط. أُصبنا بارتباك شديد عندما سمعنا أن أحد أجنحة جيشنا قد كُسِر، وكان علينا أن نتقهقر.

ثلاثة أيام من الهبوب
[١٩٢٥]

توقف المطر عندما انعطف نِك في الطريق الذي يمر عبر البستان. كانت الثمار قد التُقطت وكانت ريح الخريف تهب بين الأشجار العالية. توقف نِك ليلتقط تفاحة واغنر[٧٣] من جانب الطريق وكانت تلتمع من المطر بين الأعشاب البنية. وضع التفاحة في جيب معطفه الماكينو[٧٤].

كان الطريق يمر عبر البستان ويستمر حتى قمة الرابية. هنا الكوخ ذو الشرفة العارية والدخان يتصاعد من المدخنة. في الخلف يوجد موقفٌ للسيارة وقُنٌّ للدجاج وأخلاف الأشجار التي كانت تشكل حاجزا للغابات المحيطة. كانت الريح تهب، فتتمايل الأشجار الكبيرة فوق الأخلاف وهو يراقبها. هذه هي أولى العواصف الخريفية.

بينما كان نك يعبر الحقل الفسيح فوق البستان فُتح باب الكوخ وخرج بِل. وقف على الشرفة يتطلّع، فقال:

«حسنٌ، يا ويمجٌ»[٧٥].

«أهلا بك، يا بِل»، قال نِك وهو يصعد الدرجات.

وقفا معا يتطلعان إلى الريف الممتد أمامهم، إلى البستان، إلى ما وراء الطريق، إلى الحقول البعيدة، والغابات التي تغطي اللسان البري، وإلى البحيرة. بدأت الريح تهب بقوة فوق البحيرة.

---

(٧٣) تفاح واغنر هو تفاح جبلي أحمر اللون [المترجم].

(٧٤) معطف ماكينو معطف قصير مزدوج الصدر، يصنع من قماش صوفي [المترجم].

(٧٥) ويمج هو لقب التحبُّب الذي يُطلقه بِل على رفيقه نِك [المترجم].

كانا يستطيعان أن يريا الأمواج المتكسرة على طول اللسان البالغ عشرة أميال.

«إنها تَهُبُّ»، قال نِك.

«وستظل هكذا طوال ثلاثة أيام»، قال بل.

«هل أبوك موجود؟» سأله نِك.

«لا. خرج مع بندقيته. تفضل».

دخل نِك الكوخ. كانت نار كبيرة تشتعل في الموقد، وكانت تزأر بفعل الريح. أغلق بِل الباب.

«أتريد أن تشرب؟» سأله.

خـــرج إلى المطبخ ثم عاد بكأســين وإبريق من الماء. تناول نِك زجاجة المشروب من الرف فوق الموقد.

«لا بأس بهذه؟» سأله.

«لا بأس»، قال بِل.

جلسا أمام النار وشربا المشروب مخلوطا بالماء.

«له طعم دخاني رائع»، قال نِك ونظر إلى النار عبر الزجاج.

«هذا هو الخُثّ»[٧٦].

«ولكن الخث لا ينمو في المشروبات»، قال نِك.

«هذا لا يهم»، قال بل.

«وهل رأيت الخث؟» سأله نك.

«لا»، قال بل.

«ولا أنا»، قال نِك.

بدأ حذاؤه المرتكز على المُصطلى يتبخر أمام النار.

---

(٧٦) الخُث نسيج نباتي نصف متفحم يتكون بتحلل النباتات تحللا جزئيا في الماء [المترجم].

«من الأفضل أن تخلع حذاءك»، قال بل.

«ليس لدي أي جوارب».

«اخلعها وجففها وسآتيك بجوارب»، قال له بل، ثم صعد الدرج، وكان نِك يسمع وقع خطواته فوق رأسه. كان الطابق العلوي مفتوحا تحت السقف، وكان بِل وأبوه ونِك ينامون فيه أحيانا. في الخلف توجد غرفة للملابس. نقلوا الأسِرّة الخفيفة النقالة بعيدا عن رشق المطر وغطوها بأغطية مطاطية.

عاد بِل بزوج من الجوارب الصوفية الثقيلة.

«لقد تأخر الوقت ويجب ألا تذهب هنا أو هناك من دون جوارب»، قال بِل.

«أكره أن ألبسها ثانية»، ردَّ نِك. لبس الجوارب ثم عاد إلى كرسيه متراخيا، واضعا قدميه على الستار الواقي أمام النار.

«ستهشم الستار الواقي»، قال بل. أنزل نِك قدميه بسرعة عن الستار.

«هل لديك شيء أقرأه؟» سأله.

«الجريدة فقط».

«ما أخبار فريق الكاردز؟».

«انهزم في مباراتين أمام فريق جايَنْتس»[٧٧].

«هذا يُسهِّل الأمور على هؤلاء».

«إنها هدية»، قال بِل. «ما دام مَغْرو قادرا على شراء كل لاعب جيد في الفريق، فليست هناك مشكلة»[٧٨].

---

(٧٧) كاردز وجايَنْتس فريقان لكرة البيسبول في الولايات المتحدة [المترجم].

(٧٨) جون جوزف مَغرو (١٨٧٣ - ١٩٣٤) مدير نادٍ لكرة البيسبول [المترجم].

«لا يستطيع شراءهم جميعا»، قال نك.

«هو يشتري كل الذين يريدهم. أو يجعلهم يتذمرون إلى درجة تجعل إدارة الفريق تبيعهم له» قال بِل.

«مثل هايني زِم»، قال نِك موافقا[٧٩].

«سينفعه كثيرا هذا الأحمق العنيد».

وقف بل.

«إنه هدّاف بارع»، قال نك. كانت حرارة النار تشوي ساقيه.

«ولاقط كرة ممتاز أيضا»، قال بِل. «لكنه يخسر جميع الألعاب الكروية».

«ربما لهذا السبب يريده مَغْرو»، قال نك.

«ربما»، قال بل موافقا.

«إن ما يخفى علينا من الأمور دائما أكثر مما نعلمه».

«طبعا. لكن ما نعلمه لا بأس به قياسا إلى كوننا بعيدين جدا».

«إن الأمر أشبه بحسن اختيارك الموفق للخيول شريطة ألا تراها».

«تماما».

مدّ بِل يده إلى زجاجة المشروب. تلمّس الزجاجة بيده من كل الجهات. صب المشروب في الكأس التي أمسك بها نِك أمامه.

«كم تريد من الماء؟».

«الكمية نفسها».

جلس على الأرض بجانب كرسي نك.

---

(٧٩) هايني زِمَرمان (١٨٨٧ - ١٩٦٩): لاعب في فريق جايَنْتس [المترجم].

«أليس هبوب عواصف الخريف أمرا جيدا؟» سأل نِك.

«إنه رائع».

«إنه أفضل أوقات السنة»، قال نِك.

«لو كنا في المدينة أما كنّا في قمة التعاسة؟» سأله بِل.

«أود أن أرى مباريات الدوري في البيسبول»، قال نك.

«لكنهـــا دائما إما في نيويورك أو فيلادلفيا هذه الأيام. وهذا لا نفع لنا به».

«تُرى، هل سيربح فريق كاردز البطولة؟»

«ليس في حياتنا»، قال بِل.

«يا لطيف، لا بد أنهم سيُجنّون»، قال نِك.

«هل تذكر عندما بدأوا يتألقون قبل حادثة القطار؟»

«وكيف لا؟» قال نِك وهو يتذكر.

مـــدّ بل يده فـــوق الطاولة تحـــت النافذة ليتنـــاول الكتاب المقلـــوب على وجهـــه حيث كان قد وضعه هنـــاك عندما خرج ليفتح الباب.

أمســـك كأســـه بيد والكتاب باليد الأخرى، مسندا ظهره إلى كرسي نِك.

«ماذا تقرأ؟»

«ريتشارد فيڤرل».

«لم أستطع تحمله».

«إنه كتاب جيد. لا بأس به يا ويمج»، قال بل.

«هل لديك شيء لم أقرأه؟» سأل نِك

«هل قرأت «عشاق الغابة»؟

«نعـم، إنها قصة شـخصين يناماان كل ليلة في سـرير واحد ويضعان سيفا مجردا من غمده بينهما».

«إنه كتاب جيد، يا ويمج».

«كتاب رائع. لكن ما لم أفهمه هو أي نفع للسيف؟ إذ يجب أن يبقى حده واقفا على الدوام، لأنه لو نام علىً أحد جانبيه يمكنك أن تتدحرج فوقه ولن يؤذيك أبدا».

«إنه رمز»، قال بل.

«بكل تأكيد»، قال نك. «لكنه ليس عمليا».

«هل قرأت «الجَلَد»؟

«إنـه جميل»، قال نِك. «إنه كتابٌ يسـتحق اسـمه. قصة عجـوز يطارد ابنه طـوال الوقت. هل لديـك مزيد من كتب وَالْپول؟»[٨٠]

«الغابة المُظلمة» قال بِل. «إنها عن روسيا».

«وماذا يعرف عن روسيا؟» سأل نك.

«لا أعـرف. لا يعرف المرء كثيرا عـن هؤلاء الناس. ربما كان هناك عندما كان صبيا. لديه كمٌّ هائل من المعلومات عنها».

«أود أن ألتقيه»، قال نك.

«أود أن ألتقي تشِسْتَرتِن»، قال بل[٨١].

«أتمنـى لو كان هنا الآن»، قال نـك. «لأخذناه معنا لنصطاد السمك في ڤوا غدا»[٨٢].

---

(٨٠) الإشـارة هنا إلى الروائي البريطاني السـير هيو وَالْپول (١٨٨٤ - ١٩٤١) وجميع الروايات المذكورة هنا هي من تأليفه [المترجم].

(٨١) المقصود هنا هو الروائي البريطاني غِلبَرت كيث تشسترتن (١٨٧٤ - ١٩٣٦) [المترجم].

(٨٢) ڤوا (مختصر من تشارلڤوا) خليج في الشمال الغربي من ولاية مشيغن [المترجم].

«لا أعرف إن كان يحب صيد الأسماك»، قال بل.

«لا شـــك»، قال نك. «لا بد أنه أفضل مخلوق في الوجود. هل تذكر «الخان الطائر»؟ (٨٣)

«إذا أعطاك ملاكٌ من السماء

شيئا آخر لتشربه

اشكره على حسن نِيَّاته

ثم ادلُقه في البالوعة».

«هذا صحيح»، قال نك. «أعتقد أنه أفضل من وَالْپول».

«أوه، إنه أفضل من وَالْپول بلا شك»، قال بل.

«لكن وَالْپول كاتب أفضل».

«لا أعرف»، قال نك. «تشسترتن فنان من الطراز الأول».

«وَالْپول فنان من الطراز الأول أيضا»، أصر بل.

«أتمنـــى لـــو كان الاثنان هنا معنـــا»، قال نك. «لـــو كانا هنا، لأخذناهما غدا لنصطاد السمك في فْوا».

«دعنا نشرب»، قال بل.

«حسنٌ»، قال نك موافقا.

«لن يمانع أبي»، قال بل.

«هل أنت متأكد؟» سأل نك.

«متأكد»، قال بل.

«أنا ثملٌ قليلا الآن»، قال نك.

«لستَ ثملا»، قال بل.

---

(٨٣) «الخان الطائر» كتاب من تأليف غِلبرت تشسترتن نشِر العام ١٩١٤ [المترجم].

نهض عن الأرض وتناول زجاجة المشروب. مدّ نك كأسه، وظل يراقبها بعينه بينما كان بل يصب.

ملأ بل نصف الكأس.

«أضف ما تشاء من الماء»، قال. «بقيت جرعة واحدة فقط».

«ألم يبق غيرها؟» سأل نك.

«بلى، لكن أبي لا يريدني أن أشرب إلا ما هو مفتوح».

«طبعا»، قال نك.

«يقول إن فتح الزجاجات هو الذي يصنع السكّيرين»، قال بل.

«هذا صحيح»، قال نك. وقد أعجبه الكلام. لم يخطر هذا بباله من قبل. لقد كان دائما يظن أن ما يصنع السكّير هو شربه وحده.

«كيف حال أبيك؟» سأله باحترام.

«لا بأس، لكنه يخرج عن طوره أحيانا».

«إنه رجلٌ رائع»، قال نك. صب في كأسه ماء من الإبريق. اختلطت ببطء مع المشروب. كان المشروب أكثر من الماء.

«وهو فعلا كذلك»، قال بل.

«ووالدي لا بأس به أيضا»، قال نك.

«وهو كذلك»، قال بل.

«يدّعي أنه لم يشرب قط في حياته»، قال نك كأنه يعلن حقيقة علمية.

«طبعا، فهو طبيب. أما أبي فهو رسّام. وهذا أمر مختلف».

«لقد فاته كثير»، قال نك بحزن.

«وما أدراك؟ ففي كل مهنة ما يعوّض صاحبها»، قال بل.

«هو يقول قد فاته كثير»، اعترف نك.

«لقد مرَّت بأبي أوقات عصيبة»، قال بل.

«لقد تساوينا»، قال نك.

كانا جالسين يتطلعان في النار ويتأملان في هذه الحقيقة العميقة.

«سآتي بقرمة خشب من الشرفة الخلفية»، قال نك، وكان قد لاحظ عندما كانا يتطلعان إلى النار أنها كانت تخبو.

كما أنه أراد أن يُبَيِّن أنه يستطيع أن يشرب ويكون عمليا في الوقت نفسه. وحتى إذا كان أبوه لم يذق قطرة مشروب قط فلم يكن في نية بل أن يُسْكِرَه قبل أن يسكر هو.

«أحْضِر واحدة من قِرَم الزان،» قال بل. وكان يحاول عمدا أن يكون عمليا.

مرّ نك عبر المطبخ حاملا القرمة، فأوقع مقلاة عن مائدة المطبخ. وضع القرمة على الأرض ورفع المقلاة. وكانت تحوي مشمشا مجففا منقوعا في الماء. التقط جميع المشمشات بعناية عن الأرض، وكان بعضها قد اندس تحت الموقد، وأعادها إلى المقلاة. صبّ عليها مزيدا من الماء من سطلٍ بجانب المائدة. وشعر بالاعتزاز. فقد كان عمليا إلى حد الكمال.

دخل يحمل القرمة ونهض بل من كرسيه وساعده في وضعها في الموقد.

«إنها قرمة رائعة»، قال نك.

«لقد ادَّخَرْتُها للطقس السيئ،» قال بل. «فقرمة مثل هذه ستحترق طوال الليل».

«ستبقى بعض الفحمات لإشعال النار في الصباح»، قال نك.

«هذا صحيح»، وافق بل. كان حديثهما يتخذ مستوى أعلى.

«دعنا نتناول مشروبا آخر»، قال نك.

«أعتقد أن هناك زجاجة أخرى مفتوحة في الخزانة»، قال بل.

جثا في الزاوية أمام الخزانة وأخرج زجاجة ذات واجهة مربعة.

«إنه شراب اسكتلندي»، قال.

«سأجلب مزيدا من الماء»، قال نك. خرج إلى المطبخ ثانية. ملأ الإبريق بماء نبع بارد بمغرفة من السطل. وفي طريق عودته إلى غرفة المعيشة مرَّ بمرآة في غرفة الطعام ونظر إليها. بدا وجهه غريبا. ابتسم للوجه المنعكس على المرآة، فإذا به يرد عليه بتكشيرة. غمز له رمش عينه وتابع مسيره. لم يكن وجهه لكنه لم يكترث للأمر.

كان بل قد ملأ الكأسين شرابا.

«هذه جرعة هائلة»، قال نك.

«ليس لأمثالنا، يا ويمج»، قال بل.

«في صحة من سنشرب؟» سأل نك، وهو يرفع كأسه.

«دعنا نشرب بصحة صيد الأسماك»، قال بل.

«حسنٌ»، قال نك. «أيها السادة، أعطيكم صيد الأسماك».

«صيد السمك بأنواعه»، قال بل. «في كل مكان»

«صيد السمك هو ما نشرب في صحته»، قال نك.

«أفضل من أن نشرب في صحة البيسبول»، قال بل.

«لا مجال للمقارنة»، قال نــك. «كيف دخلنا في الحديث عن البيسبول؟»

«كان ذلك خطأ»، قال بل. «البيسبول لعبة تناسب المغفّلين».

شربا كل ما كان في كأسيهما.

«والآن، لنشرب في صحة تشسترتن».

«ووَالْپول أيضا»، أضاف نك.

صب نك المشروب، وصب بل الماء. نظر كلٌّ منهما إلى الآخر. كانا على خير ما يرام.

قال بل، «أيها السادة، أعطيكم تشسترتن ووَالْپول».

فرد نك، «هذا صحيح، أيها السادة».

شربا وملآ كأسيهما وجلسا في الكرسيين الكبيرين أمام الموقد.

«لقد كنت حكيما جدا، يا ويمج»، قال بل.

«ماذا تقصد؟» سأل نك.

«أقصد إنهاءك قضية مارج» قال بل(٨٤).

«أعتقد ذلك»، قال نك.

«لــم يكن هناك بديل آخر. فلو لــم تفعل ذلك، لكنتَ الآن في بيتك تحاول جاهدا توفير ما يكفي لنفقات الزواج».

لم يقل نك شيئا.

«متــى تزوج المــرء، فقد انتهى إلى الأبد. لا يعود لديه شــيء آخر. لا شــيء. لا شــيء يُذكر. انتهى. لقد رأيت الشباب الذين يتزوجون».

---

(٨٤) يتضح الآن أن هذه القصة هي تكملة لسابقتها «نهاية شيء». في قصيدة Swell الساخرة (٢٠٠٠) يجعل جون ماتياس العلاقة بين نك وويمج علاقة جنسية شاذة [المترجم].

«طبعا»، قال نك.

«يمكنك أن تميزهم»، قال بل. «إذ تبدو عليهم سمات الترهل الخاصة بالمتزوجين. لقد انتهوا».

«طبعا»، قال نك.

«ربما لم يكن من المستحسن تحطيم العلاقة»، قال بل. «لكن دائما تستهويك امرأة أخرى، فتصبح أمورك على ما يرام. دع النساء يستهوينك لكن لا تدعهن يُحَطِّمْنَكَ».

«نعم»، قال نك.

«لو تزوجتها لكان عليك أن تتزوج العائلة بأكملها. لا تنسَ أمها وذلك الرجل الذي تزوجَتْهُ».

أومأ نك برأسه.

«تخيل لو كانوا لا يتزحزحون من بيتك أو لو ذهبت إلى بيتهم أحد أيام الأحد للعشاء، أو إن جاءوا هم للعشاء وراحت حماتُك تُملي على ابنتها مارج بلا توقف ماذا عليها أن تفعل وكيف تتصرف».

ظل نك جالسا بهدوء.

«لقد نجوت بأعجوبة»، قال بل. «يمكنها الآن أن تتزوج شخصا يناسب طبيعتها وتستقر معه وتسعد. لا يمكنك أن تخلط الزيت بالماء، ولم يعد بإمكانك أن تخلط هذا الشيء تماما، كما لا أستطيع أن أتزوج من آيدا التي تعمل عند ستراتونز. ربما يعجبها ذلك أيضا».

لم يقل نك شيئا. لقد غادره السُّكر وتركه وحيدا. لم يكن بل هناك. لم يكن يجلس أمام الموقد أو ينوي الذهاب لصيد السمك

غدا مع بل ووالده. لم يكن ثملا. لقد انتهى كل شيء. كل ما كان يعرفه هو أن مارجُري كانت له ذات يوم وأنه فقدها. لقد مضت في طريقها وهو الذي أطلقها. هذا كل ما يهم الآن. قد لا يراها ثانية، بل من المرجَّح أنه لن يراها. لقد انتهى كل شيء.

«دعنا نتناول مشروبا آخر»، قال نك.

صب بل المشروب، ورشّه نك بقليل من الماء.

«لو مضيت في ذلك السبيل، لما كنا هنا الآن»، قال بل.

هذا صحيح، إذ كان ينوي أصلا أن يذهب إلى موطنه ليجد عملا وأن يبقى في تشارلفوا طوال الشتاء كي يبقى قريبا من مارج. أما الآن فلم يعد يعرف ماذا سيفعل.

«قد لا نتمكن من الذهاب لصيد الأسماك غدا» قال بل. «لقد كانت رؤياك صائبة».

«لم يكن باليد حيلة».

«أعلم ذلك. هكذا تتحلُّ الأمور»، قال بل.

«فجأة انتهى كل شيء»، قال نك. «لا أعرف لماذا. لم يكن باليد حيلة. إنها مثل هبوب الأيام الثلاثة التي تأتي فتنتزع كل أوراق الشجر».

«على أي حال، انتهى الأمر، وهذا ما يهم»، قال بل.

«لقد كانت غلطتي»، قال نك.

«لا يهم غلطة من كانت»، قال بل.

«أعتقد أنك على حق»، قال نك.

إن المهم هو أن مارجُري مضت في سبيلها، ومن الأرجح أنه لن يراها مرة أخرى. كان قد حدَّثها عن رحلتهما التي يزمعان القيام

بها معا إلى إيطاليا، وعما سيجدانه من متعة، وعن الأماكن التي سيريانها. كل هذا انتهى الآن.

«مــا دام الأمر قد انتهى، فهذا هــو المهم»، قال بل. «أتَعَلَمُ، يا ويمِــج أني كنت قلقا بينما كانت العلاقة قائمة. لكنك أحســنتَ التصــرف. يُقــال إن أمها امرأة لا تُطاق. كانــت تقول لكثير من الناس إنكما كنتما مخطوبين».

«لم نكن مخطوبين»، قال نك.

«لكن هذا ما كان يُشاع عنكما».

«هذا لا دخل لي به، لكننا لم نكن مخطوبين»، قال نك.

«ألم تنويا الزواج؟».

«بلى، لكننا لم نكن مخطوبين»، قال نك.

«وما الفرق؟» سأله بل بحنكة رجل القانون.

«لا أعرف. لكنّ هناك فرق».

«لا أراه»، قال بل.

«حسنٌ، دعنا نشرب»، قال نك.

«حسنٌ، دعنا نشرب حقا»، قال بل.

«دعنا نشرب وبعدها نذهب للسباحة»، قال نك.

كرع ما في كأسه دفعة واحدة، وقال:

«إني أشعر بالأسف تجاهها، لكن ماذا كان بإمكاني أن أفعل؟ أنت تعرف كيف هي أمها!»

«لقد كانت مرعبة»، قال بل.

«انتهى كل شــيء فجأة»، قال نك. «يجب ألا أتحدث عن هذا الموضوع».

«أنــت لم تتحدث عنه، بل أنا الذي فعــل»، قال بل. «تحدثت عنه وانتهيت، ولن نذكره ثانية أبدا. عليك ألا تفكر فيه، لأنك قد تَغْرق فيه ثانية».

لــم يخطر هذا ببال نك. لقد بدا الأمر مما لا ريب فيه. إنها فكرة حقا. فكرة جعلته يشعر بالتحسن.

«طبعا، هذا خطرٌ قائم»، قال نك.

أحس بالســعادة الآن. لا يوجد شيء يتعذَّر تغييره. قد يذهب إلى المدينة ليلة السبت. واليوم هو الخميس.

«والاحتمال وارد»، قال.

«لذلك عليك أن تحترس»، قال بل.

«سأحترس»، قال.

أحسَّ بالســعادة. لم ينته كل شيء. ولم يضِع كلُّ شيء. سيذهب إلى المدينة يوم السبت. لقد تَخَفَّفَ من أعبائه وشعر تماما كما شعر قبل أن يشرع بِلٌ في حديثه عن الأمر. إذن، هناك مخرج دائما.

«دعنــا نأخذ البنادق ونذهب إلــى الرأس ونبحث عن أبيك»، قال نك.

«حسنٌ».

أنــزل بل البندقيتين من الحمالة التي على الجدار وفتح علبة خرطــوش. ارتدى نــك معطفه الماكينو وحــذاءه. كان حذاؤه قد تصلّب من التجفيف. كان لا يزال ثملا لكن تفكيره كان صافيا.

«كيف تشعر؟» سأله نك.

«رائع. لقــد خرجت من الثمالة لتوي،» قال بل وهو يزر أزرار كنزته.

«لا فائدة من الشرب».

«لا فائدة. علينا أن نخرج إلى الهواء الطلق».

خرجا من الباب. كانت الريح تعصف.

«هذه الريح تجعل الطيور تختبئ بين الأعشاب»، قال نك.

وانطلقا باتجاه البستان.

«لقد رأيت ديكا بريا هذا الصباح»، قال بل.

«قد نفاجئه»، قال نك.

«لا يمكنك أن تطلق في هذه الريح»، قال بل.

لم تَعُدْ قضية مارج، وقد خرجا إلى العراء، تبدو مأساوية كما من قبل. بل لم تعد مهمة. لقد عصفت الريح بكل شـــيء وحملته في أدراجها.

«إنها تهب من جهة البحيرة الكبيرة»، قال نك.

سمعا صوت إطلاق بندقية وسط أزيز الريح.

«هذا أبي. إنه عند المستنقع»، قال بل.

«دعنا نذهب من هنا»، قال نك.

«بل دعنا نعبر المرج الأدنى لعلنا نصادف صيدا»، قال بل.

«حسنا»، قال نك.

لم يعد للأمر أهمية الآن. لقد عصفت به الريح وأخرجته من رأسه. لكنه يستطيع، إذا شاء، أن يذهب إلى المدينة ليلة السبت. وهذا احتياط لا بأس به.

التعريشة الخامسة

لقد أطلقوا النار على الوزراء في السادســة والنصف صباحا عند جــدار أحد المستشــفيات. كانت هناك بِــرَكٌ من الماء في الباحــة. وكانت هناك أوراق ميتة رطبة على رصيف الباحة. كان المطر يهطل بشدة. أُغلقت جميع مصاريع النوافذ بالمسامير. كان أحد الوزراء مصابا بالتيفوئيد. أنزله جنديان على الدرج وخرجا به إلى حيث المطر. حاولا أن يســنداه إلى الجدار لكنه جلس في بركة من الماء. وقف الخمســة الآخرون بكل هدوء قبالة الجدار. أخيرا قال الضابط للجنديين إنه لا فائدة من جعله يقف. عندما أطلقــوا الوابِل الأول من الرصاص كان يجلس في الماء ورأســه على ركبتيه.

المحارب
[١٩٢٥]

نهــض نك وكان بخير. نظر إلــى أضواء العربة الأخيرة وهي تتوارى عن الأنظار بعد المنعطف. كان الماء يحيط بالسكة من كلا الجانبين، ثم حراجٌ مستنقعية.

تلمَّس ركبته. لقد تمزّق بنطاله وخُدش جلده، وكُشِـطت كلتا يديه، ودخل الرمــل وبُرادة المعادن تحت أظافــره. نزل المنحدر الصغير إلى الماء المحاذي للســكة كي يغسل يديه. فركهما بعناية بالماء البارد وأزال الوســخ من تحت أظافره. ثم قرفص وغســل ركبته.

ســينال من ذلك الوغد الحقير في يوم من الأيام. ســيتعرف على عامل المكابح ثانية. ما فعله كان خِسَّة.

«تعال إلى هنا، يا بني»، قال له. «لك عندي مفاجأة».

لقد ابتلع الطعم. يا لها من خِسة صبيانية. لن يسمح لهم بأن يخدعوه ثانية.

«تعال إلى هنا، يا بني، لك عندي مفاجأة».

ومن غير ســابق إنذار وجد نفســه يهبط على يديه وركبتيه بجانب السكة.

فرك نك عينه، وكانت تتورم ورمــا كبـيرا. ســتصـير سوداء لا محالة. وهي تؤلمه سلفا. يا له من عامل مكابح حقير.

تلمّــس الورم الذي فــوق عينه بأصابعــه. أوه، لا بأس، إنها مجرد عين ســوداء. هذا كل ما ناله. ثمن بخس. تمنى لو يراها.

حاول أن يراها في المـــاء، فلم يُفْلِح. كان الظلام يخيّم، وكان في قفرة موحشـــة. مســـح يديه ببنطاله، ثم نهض، وتسلق السد إلى السكة.

راح يســـير بين قضبان السكة، وكان سيرا يسيرا غير متعثّر، إذ كانت السكة مرصوفة بالحصى والرمل رصفا جيدا. كان بدن الســكة الأملس يخترق المستنقع كأنه طريق معبد، فسـلكه نك، إذ كان عليه أن يبلغ أي مكان.

كان نك قد تعلق بقطار الشحن عندما خفف من سرعته عند التحويلة خارج والتون جنكشـــن. كان نك لا يزال متعلقا بالقطار عندما مر عبر كَلْكاســكا وبدأ الظلام يخيّم. إذن، لا بد أن يكون الآن قريبا من مانسلونا(٨٥).

ثلاثة أميـــال أو أربعة من الأراضي الســـبخة. راح يجد في الســـير على الرصيف بين عوارض السكة، والضباب يتصاعد من المســـتنقع كأنه أشـــباح. كانت عينه تؤلمـــه والجوع يقرصه. لكن قدميه كانتا تنتهبـــان الأرض وتخلّفان أميالا من القضبان وراءه. وظل المســـتنقع على ما هو عليه يحيط بالســـكة من كلا الجانبين.

رأى أمامه جســـرا. عبره نك، وكان الحديد يرن رنينا أجوف تحـــت وقـــع قدميه. كان الماء يبدو تحته أســـود من بين شـــقوق العوارض. ارتطمت قدمه برَزَّةٍ مفكوكة فســـقطت في الماء. وبعد الجســـر جاءت تلال مرتفعة، فأســـدلت ظلالها الســـوداء على جانبي السكة. رأى نك نارا أمامه بجانب السكة.

---

(٨٥) والتون جنكشِـــن، وكَلْكاســـكا، ومانْسِـــلونا بلدات في الشـــمال الغربي من ولاية مِشـــيغَن [المترجم].

نزل عن السكة واقترب من النار بحذر. كانت تشتعل على مجنبة في أسفل السكة. لم يأنَسْ من النار سوى ضوئها. عبرتْ السكةُ نفقا، فإذا بريفٍ يمتد من موقد النار المتأججة ويتناهى بعيدا في الغابات.

انحدر نك من السد بحذر وانعطف نحو الغابة لكي يتقدم نحو النار من بين الأشجار. كانت الغابة غابة زان وكانت قدماه تدوسان على العُقَد المتساقطة من أشجار الزان. اشتد بريق النار الآن التي كانت تتوهج عند حافة الأشجار بالضبط. كان رجل يجلس على مقربة منها. انتظر نك خلف الأشجار وراح يراقب. بدا الرجل وحيدا. كان يجلس ورأسه بين يديه ويتطلع إلى النار. طلع نك من بين الأشجار وسار نحو النار.

ظل الرجل يتطلع إلى النار، ولم يتزحزح حتى عندما توقف نك قريبا منه.

«مرحبا»، قال نك، فَشَخَصَ الرجل إليه بناظريه، وقال:

«من أين لك تلك الكدمة؟»

«لكمني عامل المكابح».

«فأنزلك من قطار الشحن؟»

«أجل».

«لقد رأيت ذلك النذل. لقد مرَّ من هنا قبل نحو ساعة ونصف الساعة. كان يتمشى فوق العربات، وكان يصفِّق بذراعيه ويغني».

«يا له من سافل!»

«لا بد أنه انتشى بعد أن لَكَمكَ،» قال الرجل بجد.

«سأنال منه.»

«عليــك به بحجرٍ عندما يمرّ بك فــي يومٍ من الأيام»، قال له الرجل ناصحا.

«سـأنال منه»

«أنت «قَبَضاي»، أليس كذلك؟»

«لا،» قال نك.

«أنتم الشباب جميعا «قبضايات».

«يجب أن تكون كذلك»، قال نك.

«هذا ما قُلْتُه أنا».

نظــر الرجل إلى نك وابتســم. رأى نك وجهه في ضوء النار، وكان مشــوَّها. كان أنفه غائرا، وعيناه كَشِــقَّيْن، ولشفتيه شكلٌ غريــب. لم يــدرك نك كل هذا دفعة واحدة، إذ لم يعرف ســوى أن وجه الرجل غريب الشــكل ومشوَّه. كان يشبه العجينة الملوَّنة. كمنظر الأموات في ضوء النار.

«ألا تحب وجهي؟» سأله الرجل.

شعر نك بالحرج.

«طبعا»، قال نك.

«انظر هنا»، قال الرجل وهو يخلع قبعته.

كانت له أذن واحدة فقط، وكانت متكوِّرة ومشدودة على جانب رأسه. أما أذنه المصلومة فلم يتبقَّ منها سوى جِذْعة.

«هل رأيت شيئا مثل هذه من قبل؟»

«لا»، قال نك، الذي شعر بشيء من الغثيان من جرّاء ما رآه.

«لقد احتملت ذلك،» قال الرجل. «ألا تعتقد أنني استطعت أن أحتمل ذلك، يا بني؟»

«ليس عندي شك في ذلك!»

«لقد اجتمعوا عليَّ جميعا، فما استطاعوا إيذائي»، قال الرجل الصغير.

نظر إلى نك وقال، «اجلس، ألا تريد أن تأكل؟»

«لا تزعج نفسك»، قال نك. «فأنا ذاهب إلى المدينة».

«اسمع»، قال الرجل. «نادِنِي آد».

«لا بأس».

«اسمع»، قال الرجل الصغير. «أنا لست على ما يرام».

«ما الأمر؟»

«أنا مخبول».

وضع قبعته على رأسه، وشعر نك برغبة في الضحك.

«أنت على ما يرام»، قال له نك.

«لا، لســـت كذلك. أنا مجنون. اســـمع، هل جُنِنْتَ في يومٍ من الأيام؟»

«لا»، قال نك. «كيف يصاب المرء بالجنون؟»

«لا أعــرف»، قــال آد. «عندمـــا تصاب به لا تشـــعر به. أنت تعرفني، أليس كذلك؟»

«لا».

«أنا آد فرانْسِس».

«حقا؟»

«ألا تصدق؟»

«بلى».

أدرك نك أن الأمر صحيح لا محالة.

«هل تعرف كيف هزمتهم؟»

«لا»، قال نك.

«قلبي بطيء. إنه لا ينبض سوى أربعين نبضة في الدقيقة. جُسَّه».

تردد نك، فأخذه الرجل من يده، وقال، «هيا. امسك برسغي، وضع أصابعك عليه».

كان رسغ الرجل الصغير غليظا، وكانت عضلاته تنتفخ فوق عظمه. أحس نك بنبض بطيء تحت أصابعه.

«هل لديك ساعة؟»

«لا».

«ولا أنا»، قال آد. «ليس في الأمر فائدة إن لم يكن لديك ساعة». أنزل نك رسغ الرجل من يده.

«اسمع»، قال آد فرانْسِس. «امسك برسغي ثانية. اعدُد وأنا أعد إلى الستين».

أحس نك بنبض بطيء مُنْهَكٍ تحت أصابعه وراح يعد. وسمع الرجل الصغير يعد ببطء، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، وهكذا بصوت عالٍ.

«ستون»، قال آد. «هذه دقيقة. إلى كم وصلت؟»

«أربعين»، قال نك.

«هذا صحيح»، قال آد مبتهجا. «فهو لا يسرع أبدا».

انحدر رجل من السكة الحديدية وعبر أرضا مقطوعة الأشجار قاصدا النار.

«مرحبا، يا بَغز»، قال آد.

«مرحبـــا»، رد بَغز. كان صوت زنجي. عرف نك أنه زنجي من مشيته. توقف وظهره إليهما، ثم انحنى فوق النار. ثم اعتدل في وقفته، فقال آد:

«هذا صديقي الحميم بَغز. وهو مجنون أيضا».

«سعيد بلقائك»، قال بَغز. «من أين أنت؟»

«من شيكاغو»، قال نك.

«إنها بلدة جميلة»، قال الزنجي. «ما اسمك؟»

«آدمز. نك آدمز».

«يقول إنه لم يصب بالجنون قط، يا بغز»، قال آد.

«سَـــيُجَن لا محالـــة،» قال الزنجي، ثـــم راح يحل صُرَّة بقرب النار.

«متى سنأكل يا بغز؟» سأل الملاكم المحترف[٨٦].

«في الحال».

«هل أنت جائع، يا نك؟»

«جائع كالجحيم».

«هل سمعت ذلك، يا بغز؟»

«أنا أسمع معظم ما يجري».

«لم يكن هذا سؤالي».

«نعم، لقد سمعت ما قاله السيد الفاضل».

راح يضع شـــرائح مـــن اللّحم في مقلاة. بينمـــا كانت المقلاة تسخن، راح الشحم يتطاير. كان بغز ينحني فوق النار على ساقيه الزنجيتين الطويلتين، ويقلِّب شـــرائح اللحم ثم يكسر البيض في

---

(٨٦) لم أعثر في المراجع الخاصة بالملاكمة على اسم آد (أو أدولف) فرانسِس [المترجم].

المقلاة التي كان يميلها إلى هذا الجانب أو ذاك لكي يمزج البيض بالدهن الحامي.

«هلاّ قطعت شرائح من الخبز من ذلك الكيس، يا سيد آدمز؟» قال بغز وهو يشيح بوجهه عن النار.

«بالتأكيد».

مد نك يده داخل الكيس وأخرج رغيفا من الخبز. ثم قطّعه إلى ست شرائح. كان آد يراقبه وهو ينحني نحو الأمام ثم قال:

«ناولني سكينك، يا نك».

«لا، لا تعطها»، قال الزنجي. «تمسّك بسكينك يا سيد آدمز».

اعتدل الملاكم المحترف في جلسته.

«هلاّ أحضرت الخبز يا سيد آدمز»، قال بغز، فأحضره نك إليه.

«هل تحب أن تغمس خبزك في الدهن؟» سأله الزنجي.

«بكل تأكيد!»

«يجدر بنا أن ننتظر إلى فيما بعد. فذلك أفضل في نهاية الأكل. تفضّل».

التقط الزنجي شريحة لحم ووضعها على واحدة من قطع الخبز، ثم أنزل بيضة فوقها.

«هلاّ تفضلت بإغلاق الشطيرة وإعطائها إلى السيد فرانسِس».

أخذ آد الشطيرة وراح يلتهمها.

«انظر كيف تنزلق تلك البيضة»، قال الزنجي محذّرا.

«هذه لك، يا سيد آدمز. والبقية لي».

قضم نك قضمة من شطيرته وكان الزنجي يجلس قبالته بجانب آد. وكان مذاق شرائح اللحم المقلية الساخنة مع البيض رائعا.

«السيد آدمز جائع جدا»، قال الزنجي. كان الرجل الصغير الذي عرف نك من اسمه أنه بطل ملاكمة سابق يلتزم الصمت. لقد صمت منذ أن تكلّم الزنجي عن السكين.

«هلا سمحت لي بأن أقدم لك شريحة خبز مغموسة بالدهن الحامي»، سأله بغز.

«أشكرك شكرا جزيلا».

نظر الرجل الأبيض الصغير إلى نك.

«ألا تريد شيئا، يا سيد أدولف فرانسِس؟» دعاه بغز، وهو يقدم المقلاة إليه.

لم يجب آد. لقد كان ينظر إلى نك.

«سيد فرانسِس؟» جاء صوت الزنجي رقيقا.

لم يجب آد. لقد كان ينظر إلى نك.

«إني أتحدث إليك، يا سيد فرانسِس؟» قال الزنجي برقّة.

ظلّ آد ينظر إلى نك. كانت قبعته مُسْدَلة فوق عينيه. شعر نك بالتوتر.

«قل لي بحق الجحيم كيف تجرّأت على ذلك؟» أتى صوته حادا من تحت القبعة.

«من تعتقد نفسك؟ أنت نَغْلٌ متعجرف. تأتي إلى هنا من دون أن يدعوك أحد، ثم تأكل طعام رجل، وعندما يطلب منك أن تعيره سكينا ترد عليه بعجرفة».

حدّق في نك، وكان وجهه شاحبا وعيناه شبه متوازيتين تحت قبعته.

«أنت شخص تافه. من طلب منك أن تحشر نفسك بيننا؟»

«لا أحد.»

«طبعا لا أحد. ولا أحد طلب منك أن تبقى. تأتي إلى هنا وتعيّرني بوجهي وتدخن غليوني وتشرب مشروبي ثم تتحدث بعجرفة. ترى أين تنتهي وقاحتُك؟»

لم يقل نك شيئا. نهض آد.

«أنا أقول لك يا نغلَ شيكاغو الجبان. سأهشِّم رأسك. هل تفهم؟»

تراجع نك إلى الوراء، فتقدّم الرجل الصغير نحوه، أمْسَحَ القدمين متباطئا. يقدِّم قدمه اليسرى، ويَسْحَلُ اليمنى في إثرها.

«هيا، اضربني»، قال وهو يحرِّك رأسه. «جرِّب أن تضربني».

«لا أرغب في ضربك»

«لن تفلت مني بهذه الطريقة. سأضربك ضربا مبرحا. هيا، ابدأ».

«كفى»، قال له نك.

«حسنٌ، أيها النغل».

نظر الرجل الصغير إلى قدمي نك. كان الزنجي قد تبعه منذ أن ابتعد عن الموقد، ولما نظر آد إلى قدمي نك، هيّأ الزنجي نفسه وضرب آد على أسفل رأسه، فكبا على وجهه. ولم يكد يسقط حتى رمى بغز بعصاه المكسوّة بالجلد بين الأعشاب. كان وجه

الرجل الصغير مُكِبّا على العشــب، فالتقطه الزنجي عن الأرض وحمله إلى الموقد ورأسه يتدلى. كان منظر وجهه مخيفا، وكانت عيناه مفتوحتين. وضعه بغز على الأرض برفق، وقال لنك:

«هلاّ جلبت لي الماء في الســطل، يا ســيد آدمز، أعتقد أنني قسوت عليه قليلا في الضربة».

رشَّ الزنجــي الماء بيده على وجه الرجل ومسَّــد أذنيه برفق، فأغمضت عيناه. وقف بغز وقال:

«إنه بخير. لا داعي للقلق إطلاقا. أنا آسف، يا سيد آدمز».

«لا عليــك» قال نك، وراح ينظر إلــى الرجل المُمَدَّدِ أمامه. رأى العصا المكســوة بالجلد بين الأعشاب فالتقطها. كان لها مقبض مرن وكانت رشــيقة الملمس فــي يده. كانت مصنوعة من الجلد الأســود المهترئ، بينما كانت نهايتها الثقيلة ملفوفة بمنديل.

ابتســم الزنجي وقال، «إن مقبضها مصنوع من عظم الحوت. لكنهــم لا يصنعون مثلها هذه الأيام. لم أكن أعرف إن كنتَ قادرا على الدفاع عن نفســك، ثم إنني لــم أكن أريدك أن تؤذيه أو أن تشوهه أكثر مما هو فيه سلفا».

ثم ابتسم الزنجي ثانية.

«لكنك آذيته أنت».

«أنا أعرف ماذا أفعل. ولن يتذكر شــيئا مما جرى له. عندما يتصرف بهذه الطريقة، يتعين علي أن أضربه كي أغيّره».

ظل نك يتطلَّع إلى الرجل المســتلقي أمامه وعيناه مغمضتان. وضع بغز شيئا من الحطب على النار.

«لا تشــغل بالك به، يا ســيد آدمز. لقد رأيته هكذا عددا من المرات من قبل».

«ما سبب جنونه؟» سأل نك.

«أوه، أسباب كثيرة،» رد الزنجي من عند الموقد.

«هل تريد فنجانا من هذه القهوة، يا سيد آدمز؟»

ثــم ناوله الفنجان وســوّى المعطف الــذي وضعه تحت رأس الرجل المُغمى عليه.

«لقــد تعرّض للضرب كثيرا، هذا من ناحية»، قال الزنجي ثم رشــف قهوته. «لكن هذا جعله متخلفــا عقليا فقط. أضف إلى ذلــك أن أخته كانت مديــرة أعماله، وكانت الصحف تشــيع أن هناك علاقة غراميــة بينها وبين أخيها، ثم تزوجا في نيويورك، مما زاد الطين بلة».

«أذكر ذلك».

«بالتأكيــد. بالطبع، لا كانت هي أخته ولا كان هو أخاها. لكن كثيرا من الناس لم يعجبهم الأمر في كل الأحوال. دبّت الخلافات بينهما وفي يوم من الأيام خرجتْ ولم تَعُدْ».

شرب قهوته ثم مسح شفتيه براحة يده ذات اللون الوردي.

«هكذا أصيب بالجنون. هل تريد مزيدا من القهوة، يا ســيد آدمز؟»

«شكرا».

«رأيتها مرتين»، استطرد الزنجي قائلا. «امرأة بارعة الجمال. كانت تشــبهه لكأنهما توأمان. لولا التشــوُّه الذي في وجهه لكان وسيما».

ثم توقّف وبدا أن القصة انتهت، لكن الزنجي قال:

«التقيته في السجن. بعد أن هربتُ راح يلكم الناس فوضعوه في السجن. أما أنا فقد كنت مسجونا لطعني رجلا».

ابتسم وصار صوته رقيقا.

«أحبَبْتُه على الفور، وعندما خرجت من السجن فتّشت عنه. لا شكَّ في أنه يعتقد أنني مجنون وأنا لا أمانع. أحب رفقته وأحب السياحة ولست في حاجة إلى ارتكاب السرقات للقيام بهذه السياحة. أحب أن أعيش عيشة رجل محترم».

«وماذا تفعلان بالضبط؟»

«لا شيء. نسوح في البلاد ولديه المال».

«لا بد أنه جمع ثروة هائلة».

«صحيح، لكنه بعثرها جميعا. أو أنهم أخذوها منه. هي التي ترسل إليه المال».

حرّك الجمرات لإذكاء النار، وقال:

«إنها في غاية الروعة. تشبهه كثيرا لكأنهما توأمان».

ألقى الزنجي نظرة إلى الرجل الصغير الذي كان مستلقيا ويتنفس بصعوبة. كان شعره الأشقر مسدلا على جبينه، وبدا وجهه المشوه كوجه طفل ينام.

«بإمكاني أن أوقظه الآن، يا سيد آدمز. ولكن أرجو أن تنسحب، إن لم يكن لديك مانع. لا أريد أن أقَصِّر في واجب الضيافة، لكن رؤياه لك ثانية قد تذهب بعقله مرة أخرى. ويشقُّ علي أن أضربه إذ لا خيار آخر لدي إن بدأ بجنونه. ولهذا يجب أن أبعده عن الناس. أنت لا تمانع، أليس كذلك، يا سيد آدمز؟

لا، لا تشــكرني، يا ســيد آدمز. لقد حذرتك منه، لكن يبدو أنك أعجبته، فظننت أن الأمور ستسير بينكما على ما يرام. اتبع سكة الحديد وستجد بلدة بعد ميلين. اسمها مانسلونا. وداعا. أتمنى لو نســتطيع اســتضافتك للمبيت، لكن هذا غير وارد. هل تريد أن تأخذ بعضا من شــرائح اللحم والخبز معك؟ لا؟ من الأفضل أن تأخذ شــطيرة». قال كل هذا بصوت زنجيٍّ، خفيضٍ، سَلِسٍ، مُهذَّب.

«حسنٌ، يا سيد آدمز. وداعا. وداعا وحظا طيبا».

ســار نك مبتعدا عــن النار عبر الأرض المقطوعة الأشــجار قاصدا ســكة القطار. ولما ابتعد عن ضوء النار، راح يصغي. كان الزنجي يتحدث بصوتٍ خفيض، رقيق، لكنه لم يســتطع أن يميز الكلمات. ثم ســمع الرجل الصغيــر يقول، «لدي صــداع رهــيب، يا بغز».

«ستشــعر بالتحسن، يا سيد فرانْسِــس»، قال الزنجي مهدئا مطمئنا. «فقط اشرب فنجانا من هذه القهوة الساخنة».

تســلق نك سد السكة وراح يسير بين القضبان. وجد في يده شــطيرة لحم، فوضعها في جيبه. من طريقه الصاعد، وقبل أن تنعطف الســكة وتغور بين التلال، تطلّع نحــو الوراء فرأى النار متأججة في الفسحة المقطوعة الأشجار.

التعريشة السادسة

جلس نك مسندا رأسه إلى جدار الكنيسة الذي جروه إليه كي يبعدوه عن نار الرشاشات في الشارع. كانت ساقاه ممدودتين بشكل أخرق. كان قد أصيب في عموده الفقري. كان وجهه يتصبب عرقا ومُتّسخا. كانت الشمس تسطع على وجهه، وكان يوما قائظا جدا. كان رينالدي ذو الظهر العريض يسند وجهه على الجدار، وعُدّته مبعثرة. كان نك ينظر أمامه وهو يتألق. كان الجدار الوردي للمنزل المقابل قد سقط عن السقف، وكان سرير حديدي يتدلى ملتويا نحو الشارع. وكان نمساويان ميّتان يرقدان بين الأنقاض في ظل المنزل. هناك موتى آخرون في أعلى الشارع. كانت الأمور تتقدم في البلدة. كانت تسير بخير. قريبا سيأتي حَمَلَةُ النقّالات. أدار نك رأسه بعناية وحذر ونظر إلى رينالدي. «لم يمُت رينالدي. لم يمُت. أنا وأنت عقدنا صلحا منفردا». ظل رينالدي يرقد في الشمس ويتنفس بصعوبة. «نحن خَوَنة». أدار نك رأسه عنه بعناية وحذر، وهو يبتسم ويتصبب عرقا. كان رينالدي مُسْتَمِعا يُخَيِّب الآمال.

قصة قصيرة جدا
[١٩٢٥]

حملـــوه ذات مســـاء حار في پـــادوا(٨٧) إلى الأســـطح، فصار بإمكانه أن يشرف على قمة البلدة. كانت سمّامات المداخن تحلق في السماء. بعد فترة بدأ الظلام يخيّم، فراحت الأنوار الكاشفة تســـطع. نزل الآخـــرون وأخذوا الزجاجات معهـــم. كان بإمكانه هو ولُوز أن يســـمعا أصواتهم على الشـــرفة تحتهما. جلست لوز على الســـرير. كانت لوز تشعر بالبرودة والانتعاش في هذه الليلة الساخنة.

بقيت لـــوز تناوب ليلا لثلاثة أشـــهر. وكانوا ســـعداء بذلك. كانت هي التي أعدته لطاولة العمليات عندما أجروا له العملية، وتمازحوا حول الفرق بين الصديق والحقنة الشـــرجية. تماسك قبل أن ينام بتأثير المخدر خشـــية أن يفشي أسرارا عندما ينفلت عِقال العقل واللســـان. وبعد أن صار يمشـــي على عكازين، راح يقيس حرارته بنفســـه لكيلا تنهض لوز من ســـريرها. كان عدد المرضى قليـــلا، وكان الجميع يعرف. كانـــوا جميعا يحبون لوز. عندما يعود سائرا بين الصالات كان يتخيل لوز في سريره.

قبـــل أن يعود إلى الجبهة، دخـــلا الدومو وصليّا. كان الدومو مظلمـــا وهادئا، وكان هنـــاك مصلون آخرون. كانـــا يريدان أن يتزوجا، لكن لم يكـن لديهـمـــا الوقـت الكـافي لإعـلان الزواج،

---

(٨٧) تقـــع مدينـــة پادوا (أو پادوفا بالإيطالية) غربَ مدينة البندقية في الشـــمال الشـــرقي من إيطاليا [المترجم].

ولـــم تكن عنـــد أيٍّ منهما شـــهادة ميلاد. كانا يشـــعران كأنهما متزوجـــان، لكنهما كانا يريـــدان أن يعرف الجميع ذلك، كما كانا يريدان أن يقوما بذلك لكي لا يضيع الذي بينهما.

كتبت له لوز عدة رســـائل لم يتسلمها إلا بعد الهدنة. وصلته خمس عشـــرة رســـالة دفعة واحـــدة إلى الجبهـــة، ففرزها وفق تواريخهـــا ثم قرأهـــا جميعا. كانت كلها تحكي عن المستشـــفى، وعـــن مدى حبها له، وعن اســـتحالة العيش من دونه، وعن لوعة الاشتياق إليه ليلا.

بعد الهدنة اتفقا علـــى أن يعود إلى وطنه ليحصل على عمل ثـــم يتزوجان. أما لوز فلن تعـــود إلا بعد حصوله على عمل جيد فيأتي إلى نيويورك ليســـتقبلها. تفاهما على ألا يشرب، ولم يكن يرغب في رؤية أصدقائه أو ســـواهم في الولايات المتحدة. فقط يحصل على عمل ويتزوج.

تشاجرا في القطار من پادوا إلى ميلانو حول عدم استعدادها للعودة إلى وطنهـــا فورا. ولم ينتهِ الخصـــام بينهما حتى عندما تبـــادلا قبلات الوداع في محطة ميلانو، فشـــعر بالغثيان لأنهما تواعدا بتلك الطريقة.

ذهـــب إلى أمريـــكا بالباخـــرة من جنـــوا، وعادت لـــوز إلى پوردنوني(٨٨) لتفتتح مستشفى. كان الجو موحشا وماطرا. وكانت هناك كتيبة «آرديتي»(٨٩) متمركزة في البلدة. كانت البلدة موحلة وماطرة في الشـــتاء وكان قائد الكتـيبـــة يمـارس مـعها الحب،

---

(٨٨) تقع مدينة پوردنوني شمال مدينة البندقية [المترجم].

(٨٩) «آرديتي» هو الاســـم الذي كان يُطلق على قوات الاقتحـــام (المغاوير) في الجيش الإيطالي [المترجم].

ولم تكن تعــرف الإيطاليين من قبل. وأخيرا بعثت برســـالة إلى أمريكا تقول إن علاقتهما كانت علاقة مراهقين. اعتذرت وكانت تعلــم أنه لن يتفهم ما جرى، لكنه قــد يغفر لها ذات يوم، ويكون ممتنا لها، ثم توقعت بلا مبرر أنها ســتتزوج في الربيع. لا تزال تحبــه كما أحبته من قبل، لكنها تــدرك الآن أنه حب مراهقين. تمنت له التوفيق فــي عمله وأعربت عن ثقتها به. كانت تعلم أن ذلك في صالح الاثنين معا.

لم يتزوجها قائد الكتيبة في الربيع ولا في أي وقت آخر. ولم تتلق لوز جوابا على الرســـالة التي أرســـلتها إلى شيكاغو. وبعد ذلك أعدَتْه موظفة مبيعات تعمل في متجر بمرض الســـيلان(٩٠) بينما كانا يستقلان سيارة أجرة في شارع لِنكِن پارك.

(٩٠) السَّـيَلان مرض ينتقل عن طريق الاتصال الجنسي، ويصيب القناة البولية، ويسبب التهابا في الأعضاء التناسلية والإحليل، وقد يؤدي إلى العقم إن لم يُعالج [المترجم].

التعريشة السابعة

بينما كان القصف يدك الخندق في فوسالتا[٩١]، كان ينبطح وعرقه يتصبب، وهو يدعو يا الله أخرِجْني من هنا. أرجوك أخرجني. أيها الرّب، أرجوك، أرجوك، أرجوك، أيها الرب. إن تُنْجِني من الموت، فسأفعل كل ما تقول. إني أؤمن بك وسأقول للعالمين إنك أنتَ أنتَ ولا أحدَ غيرُك. أرجوك، أرجوك يا رب، أيها العزيز. انتقل القصف إلى مكان آخر من الخندق. رحنا نعمل على إصلاح الخندق وفي الصباح طلعت الشمس وكان النهار حارا ورطبا وبهيجا وهادئا. عاد في الليلة التالية إلى ميستري[٩٢]، ولم يقل للفتاة التي رافقها إلى الطابق الأعلى من الڤيلا روسا[٩٣] عن الرب. ولم يقل لغيرها أبدا.

---

(٩١) هناك ثمانية أمكنة تحمل اسم فوسالتا، لكنها جميعا في الشمال الشرقي لإيطاليا وتقع بين خط العرض ٤٥ شمالا وخط الطول ١٠ شرقا [المترجم].

(٩٢) ميستري: مدينة تقع على الساحل الشمالي الشرقي لإيطاليا [المترجم].

(٩٣) ڤيلا روسا: فندق في مدينة ميستري [المترجم].

بيتُ جنديّ[٩٤]
[١٩٢٥]

كان كربْز يدرس في كلية ميثودية في كانزاس عندما ذهب إلى الحرب. وهناك صورة يظهر فيها مع رفاقه في رابطة الأخوة، وكلهم يلبسون ياقات موحدة الارتفاع والطراز. التحق بمشاة البحرية العام ١٩١٧ ولم يعد إلا بعد أن عادت الفرقة الثانية من الراين في صيف العام ١٩١٩يظهر في صورة على نهر الراين مع فتاتين ألمانيتين وعريف آخر. يبدو كربز والعريف أكبر بكثير من لباسهما العسكري. لم تكن أيٌّ من الفتاتين الألمانيتين جميلة. الراين لا يظهر في الصورة.

عندما عاد كربز إلى بلدته في ولاية أوكلاهوما كان استقبال الأبطال قد انتهى. لقد عاد متأخرا جدا. كان جميع أبناء بلدته الذين زُجّوا في الحرب قد استُقبلوا استقبالا حافلا لدى عودتهم، وكان هناك هَرَجٌ ومَرَجٌ كثير. أما الآن فقد بدأت ردة الفعل. إذ اعتقد الناس، فيما يبدو، أنه من السخف أن يتأخر كربز كل هذه السنين بعد انتهاء الحرب.

في البداية لم يكن كربز، الذي كان في غابة بيلو، وسواسون، وشامبين، وسان مييل وآرغون، لم يكن يرغب في الحديث بتاتا عن الحرب[٩٥]، وعندما شعر فيما بعد بحاجة إلى الحديث،

---

(٩٤) تجدر الإشارة إلى أن عنوان هذه القصة بالإنجليزية - Home's Soldier - يحتمل ترجمتين: الأولى «بيت الجندي»، والثانية «عودة الجندي إلى بيته/وطنه». وقد أشار بعض النقاد إلى هذه الازدواجية المُتَعَمَّدة في العنوان [المترجم].

(٩٥) هذه أسماء مناطق ومدن في الشمال والشمال الشرقي من فرنسا [المترجم].

لـــم يجد من يُصغي إليه. لقد ســـمعت بلدته عددا هائلا من قصـــص الفظائع، فلم تعد تثيرها الوقائع. اكتشـــف كريز أنه إذا أراد أن يجـــد مســـتمعين إليه، فعليـــه أن يكذب. وبعد أن كذب مرتـــين، تولدت لديه، هو أيضـــا، ردة فعل ضد الحرب والحديـــث عنها. أصابه نفور من كل ما حدث له في الحرب، كل ذلك بســـبب ما لفَّقـــه من أكاذيب. لقـــد ضاعت الآن كل اللحظات التي جعلته يشعر بالانتعاش والصفاء كلما تذكرها، تلـــك اللحظات البعيدة يوم قام بالشـــيء الوحيد الذي يجدر بالرجل أن يفعله، وفعله بيسر وبلا تكلّف في حين كان بإمكانه أن يقوم بشيء آخر، كل هذه اللحظات ضاعت وفقدت قيمتها وصفتها المنعشة.

كانت أكاذيبه سخيفة ينسب فيها لنفسه أشياء شهدها آخرون أو قاموا بها أو ســـمعوا عنها، أو يـــروي أحداثا مجهولة المصدر لكنها مألوفة لكل جندي، كما لو كانت حقائق.

لم تُثِر أكاذيبه أي اهتمام في صالة البلياردو. لم تشد قصصه اهتمام معارفه الذين ســـمعوا تقارير مفصلة عن نســـاء ألمانيات مقيدات بالسلاســـل إلى المدافع في غابة آرغون، فلم يستوعبوا أو منعهم حسهم الوطني من أن يتساءلوا عن رماة المدافع الألمان الذين لم يكونوا مقيدين.

نشـــأ نفور كريز من التجربة الناتجة مـــن الكذب أو المبالغة، وكان كلمـــا صادف رجلا آخر خاض غمار الحرب أيضا وتحدّث معـــه في غرفة الملابس في حفلـــة راقصة، تجده يتخذ من تلقاء نفسه وضعية محارب قديم بين المحاربين: أي أنه عانى الأمرَّين

من شـــدة الخوف من بداية الحرب إلى نهايتها. هكذا فسَّـــر كل شيء.

في هـــذه الأثناء من أواخر الصيـــف كان يَتَضاحى في نومه، ولا ينهض إلا ليذهب إلى مكتبة البلدة كي يستعير كتابا، ويتناول غداءه في البيت، ثم يقرأ على الشـــرفة الأمامية حتى يسأم، ثم يعود إلى البلدة كي يقضي أكثر ســـاعات النهار حرارة في صالة البلياردو الباردة المظلمة. كان يحب لعب البلياردو.

وفي المســـاء كان يتـــدرب على عزف الكلارينت، ثم يتمشـــى فـــي البلدة، ثم يقرأ، ثم ينام. كان لا يـــزال بطلا في نظر أختيه الشابتين. وكانت أمه لا تمانع أن تجلب طعام الإفطار إلى سريره لو أراد ذلك. كانت غالبا تأتي إلى ســـريره وتطلب منه أن يحكي لها عن الحرب، لكنها كانت دوما شـــاردةَ البـــال. أما أبوه فكـــان لا يُؤخذ منه حقٌّ أو باطل.

قبـــل أن يذهب كريز إلى الحرب، لم يُســـمح لـــه قط بقيادة سيارة العائلة. كان والده يعمل بتجارة العقارات ولم يكن يستغني عن الســـيارة أبدا، إذ يضطر أحيانا إلى أخذ الزبائن إلى الريف لمعاينة قطعة أرض زراعية. كانت السيارة دائما تُركَن خارج مبنى البنك القومي الأول حيث مكتب والده في الطابق الثاني. والآن، بعد الحرب، بقيت السيارة هي هي.

لم يتغير في البلدة شـــيء ســـوى أن الفتيـــات الصغيرات قد كبرن. لكنهن كن يعشـــن في عالم معقد مـــن التحالفات المحدد ســـلفا والخصومات المتنقلة إلى درجة جعلت كريز معـــدوم الهمة أو الشـــجـــاعة لاقتحـــامه. لكـــنه كـــان يحـــب أن يتطـــلَّع إليـــهن.

كان من بينهن عدد كبير من الشابات الجذابات، وكان معظمهن قد قصَّرن شعورَهن. كان قصر الشعر من عادة الفتيات الصغيرات أو المنغمسات في الملذات عندما ارتحل. كن جميعا يلبسن كنزات وبلوزات ذات قبَات هولندية مستديرة، تشبه قمصان الرجال.

كان هذا هو الزي الدارج. كان يحب أن يتطلع إليهن من شرفة بيتهم الأمامية عندما يتمشين على الطرف الآخر من الشارع. وكان يحب أن يراقبهن وهن يتمشين تحت ظلال الأشجار. وكان يحب القَبّات الهولندية المستديرة على كنزاتهن. كان يحب جواربهن الحريرية وأحذيتهن المسحاء. وشعرهن القصير وطريقة مشيهن.

عندما يكون في البلدة لا يجد ميله إليهن قويا. لا يعجبنه عندما يراهن في دار «الآيس كريم» لصاحبها الإغريقي. في الواقع لم يكن يرغب فيهن بالذات. لقد كن في غاية التعقيد. كما أن هناك شيئا آخر. كان يريد فتاة لكنه لم يكن يريد أن يبذل مجهودا للحصول عليها. بِوِدِّه لو يحصل على فتاة، لكنه لا يريد أن يقضي وقتا طويلا كي ينالها. لم يكن يريد الانخراط في المكائد والألاعيب. ولم يكن راغبا في أي مغازلة من جانبه. لم يعد راغبا في قول الأكاذيب. إذ ليس في الأمر ما يستحق.

لم يكن راغبا في أي عواقب مرة أخرى. كان يرغب في العيش بلا عواقب. ثم إنه لم يكن في الواقع في حاجة إلى فتاة. لقد تعلم هذا من الجيش. لا بأس أن تتظاهر بأنك في حاجة إلى فتاة. وهذا ما يفعله الكل تقريبا. لكن هذا غير صحيح. أنت لست في حاجة إلى فتاة. هذا هو المضحك في الأمر. في البداية

تبجَّح أحدهم قائلا إن الفتيات لا يعنين شيئا بالنسبة إليه، وإنهن لا يخطرن على باله، وإنهن لا يؤثرن فيه. ثم تبجَّح آخر قائلا إنه لا يســتطيع العيش من دونهن، وإنه في حاجة إليهـن دائما، وإنه لا يستطيع أن ينام من دونهن.

كان كل هــذا كذبا في كذب. فأنت لا تحتــاج إلى فتاة ما لم تفكــر فيها. لقد تعلم هذا من الجيش. ثم إنك تحصل على فتاة إن عاجلا أو آجلا. عندما تنضج حقا تحصل على فتاتك، دائما. لســت في حاجة إلى التفكير في الأمر. سيحين الأوان من تلقاء ذاته، إن عاجلا أو آجلا. لقد تعلم ذلك من الجيش.

كان بوده الآن لو أن فتاة تأتي إليه ولا ترغب في الحديث. لكن الأمور معقدة هنا في وطنه. كان يدرك أنه غير قادر على خوض تجربة ثانية. لا يســتحق الأمر كل هــذا العناء. كان ذلك ما يميز الفرنســيات والألمانيات. لم يكن هناك كل هذا الحديث. لم يكن باســتطاعتك أن تتحدث كثيرا، كما أنك لــم تكن في حاجة إلى الحديث. كانت الصداقة هناك غاية في السهولة. خطرت فرنسا على باله، ثم راح يفكر فــي ألمانيا. لكنه كان يحــب ألمانيا أكثر. لم يكن راغبا في مغادرة ألمانيا. أو في العودة إلى وطنه. لكنه عاد إلى وطنه على الرغم من ذلك. كان يجلس في الشرفة الأمامية.

أحــب الفتيات اللواتي كنَّ يتمشــين علــى الطرف الآخر من الشارع. أعجبه منظرهن أكثر من منظر الفرنسيات أو الألمانيات. لكــن العالم الذي كن فيه ليس العالم الذي هو فيه. بوده لو ينال واحدة منهن. لكن ليس في الأمر ما يستحق. لا، ليس الآن عندما راحت الأمور تتحسن مرة أخرى.

كان يجلس في الشـرفة ويقرأ كتابا عـن الحرب. كان كتاب تاريخ، وكان يقرأ عن كل الاشتباكات التي خاضها. كان أمتع كتاب قرأه. تمنى لو أن هناك مزيدا من الخرائط. راح يتطلع بشـغف إلى قـراءة كل كتب التاريخ الجيدة حقـا عندما تظهر بخرائط تفصيلية جيدة. إنه يكتسب الآن معرفة حقيقية عن الحرب. لقد كان محاربا جيدا، وهذا أمر ذو شأن.

بعد شـهر من عودته دخلت أمـه ذات صباح إلى غرفة نومه وجلست على السرير. سوَّت مئزرها وقالت:

«هارولد، لقد تحدثت مع أبيك ليلة البارحة، وهو لا يمانع أن تخرج في السيارة مساء».

«حقـا؟» رد كريز الذي لم يسـتيقظ تماما بعـد. «أخرج في السيارة، حقا؟»

«نعم. كان رأي أبيك منذ فترة أنه يجب أن تخرج في السيارة متى شـئت في المسـاء، لكننا لـم نتحدث في الموضـوع إلا ليلة البارحة».

«أنا واثق بأنك أجبرتِه على ذلك،» قال كريز.

«لا. بل أبوك هو الذي طرح الموضوع للنقاش».

«لا، أنـا واثـق بأنـكِ أجبرتِه»، قـال كريز وهـو يعتدل في سريره.

«ألا تريد النزول لتناول الإفطار، يا هارولد؟» قالت أمه.

«حالما أرتدي ملابسي»، رد كريز.

خرجت أمه من الغرفة وسمعها تقلي شيئا في الطابق الأسفل بينما كان هو يغسـل وجهـه ويحلق ذقنه ويرتدي ملابسـه كي

ينزل إلى غرفة الطعـــام ليتناول طعام الإفطار. وبينما هو يأكل، أحضرت أخته البريد وقالت:

«هاري، أيها البليد المزمن، لماذا الاستيقاظ، يا رجل؟»

نظر إليها كريز وكان يحبها. إنها أخته المفضلة.

«هل أحضرتِ الجريدة؟» ســـألها، فناولته «ذي كانزاس سِتي ستار». نزع عنها الغلاف البني وفتحها على الصفحة الرياضية. طوى الجريدة، وهي مفتوحة، ثم أسندها على إبريق الماء ثم ثبَّتها بصحن الحبوب كي يستطيع القراءة وهو يأكل.

«هارولـــد»، قالت أمه وهي تقف في ممـــر المطبخ. «هارولد، أرجوك، لا تعبث بالجريدة. فأبوك لا يســـتطيع أن يقرأ جريدته إن عبثت بها».

«لن أعبث بها»، قال كريز.

جلست أخته إلى المائدة وراحت تراقبه وهو يقرأ.

«لدينا مباراة بيســـبول عصر هذا اليوم ضمن حرم المدرسة»، قالت له. «وسأكون رامية الكرة».

«حسن»، قال كريز. «كيف هو الملعب القديم؟»

«بإمكاني أن أرمي الكرة أفضل من كثير من الصبيان. قلت لهم إنك أنت الذي علَّمتني. أما الفتيات الأخريات فلا يُجِدْن اللعب».

«حقا؟»

«لقد قلت لهم جميعا إنك حبيبي. ألست حبيبي، يا هاري؟»

«بالطبع».

«ألا يمكن للأخ أن يكون حبيب أخته حقا فقط لأنه أخوها؟»

«لا أعرف».

«بل تعرف بالتأكيد. هاري، ألا يمكنك أن تكون حبيبي لو كنت كبيرة كفاية وأردتني أن أكون حبيبتك؟»

«بالتأكيد. أنت فَتاتي الآن».

«هل أنا حقا فَتاتك؟»

«بالتأكيد».

«هل تحبني؟»

«طبعا».

«هل ستحبني دائما؟»

«بالتأكيد».

«هل ستأتي لتراني وأنا ألعب؟»

«ربما»

«أوه، هاري، أنت لا تحبني. لو كنت تحبني، لأردت أن تأتي لتراني وأنا ألعب».

جاءت أم كريز من المطبخ إلى غرفة الطعام. كانت تحمل طبقا من البيض وشرائح اللحم المقلية، وطبقا آخر من كيك الحنطة السوداء.

«هِلِنْ، أريد أن أتحدث مع هارولد على انفراد»، قالت الأم.

وضعت طبق البيض واللحم المقلي أمامه وأحضرت إبريقا من شراب القيقب المحلى من أجل كيك الحنطة السوداء. ثم جلست مقابله وقالت:

«ليتك تضع الجريدة من يدك لحظة، يا هارولد».

وضع كريز الجريدة وطواها.

«هل قررت ماذا ستفعل، يا هارولد؟» قالت أمه، وهي تخلع نظارتها.

«لا»، قال كريز.

«ألم يحنِ الوقت في رأيك؟» لم تقل أمه هذا الكلام من قبيل التأنيب، بل من باب القلق عليه.

«لم أفكر في الأمر»، قال كريز.

«لقد خصص الله لكل إنســان عمــلا»، قالت أمه. «ولا مكان للكسل في مملكته».

«أنا لست في مملكته»، رد كريز.

«بل نحن جميعا في مملكته».

شعر كريز بالحرج والنقمة كعادته.

«أنا قلقة جدا عليك، يا هارولد»، تابعت أمه قائلة.

«أنا أعلم المغريات التــي تعرضتَ لها، وأعلم ضعف الرجال. وأعلــم ما علَّمنا إياه جدك الغالــي، والدي، من الحرب الأهلية، فدعوت لك. إني أدعو لك بالتوفيق طوال النهار، يا هارولد».

نظر كريز إلى الدهن وهو يتجمد على طبقه.

«وأبــوك قلق أيضا. وهو يعتقد أنه لم يعد لديك طموح، وأنك لا تمتلك هدفا محددا في هذه الحياة. لقد حصل تشارلي سِمِنز، وهو من أترابك، على عمل جيد وســيتزوج قريبا. جميع الشبان بدأوا يستقرون، وكلهم مصممون على نيل أهدافهم. ويمكنك أن ترى أن أمثال تشارلي سِمِنز سيكونون ذخرا لمجتمعهم قريبا».

لم يقل كريز شيئا.

«انظر إليَّ، يا هارولد»، قالت أمه. «أنت تعلم أننا نحبك، وأريد أن أخبرك، من أجــل مصلحتك، كيف هي الأمور. لا يريد أبوك أن يحــد من حريتك، فهو يعتقد أنه يجب أن يُســمح لك بقيادة

السيارة. وسيكون من دواعي سرورنا إن أردت أن تصطحب معك بعض الفتيات الجميلات. نريدك أن تمتِّع نفسك. لكن عليك أن تجد عملا، يا هارولد، وأبوك لا يكترث بأي عمل تبدأ، فهو يرى أن العمل، أيا كان، شَرَف. لكن عليك أن تبدأ بشيء ما. لقد طلب مني صباح هذا اليوم أن أكلمك في هذا الأمر، وبعدها عليك أن تذهب وتراه في مكتبه».

«هل هذا كل شيء؟» سألها كريز.

«أجل. ألا تحب والدتك، يا عزيزي؟»

«هيا»، قال كريز.

نظرت إليه أمه من الطرف الآخر للمائدة، وكانت عيناها تلتمعان. ثم بدأت تبكي.

«أنا لا أحب أحدا»، قال كريز.

لم يكن فيما قاله أي فائدة. لم يكن بإمكانه أن يخبرها أو أن يجعلها تفهم. كان من السخف أن يتفوه بتلك الكلمات، إذ لم تُفلِح إلا في جرح مشاعرها. ذهب إليها وأخذ يدها، فبكت ورأسها بين يديه.

«لم أقصد ما قلته. لقد كنت غاضبا من شيء. لم أقصد أنني لا أحبك».

ظلت أمه تبكي، فوضع كريز ذراعه على كتفها.

«ألا تصدقيني، يا أمي؟»

هزت أمه رأسها.

«أرجوك، أرجوك يا أمي. أرجوك صدقيني».

«حسن»، قالت بصوت يغُصُّ بالعبرات. رفعت ناظريها إليه

وقالت، «إني أصدقك، يا هارولد».

قبّلهـا كريز على شـعرها، فرفعت وجهها إليـه، وقالت، «أنا أمك، وقد ضممْتُك إلى قلبي عندما كنت طفلا صغيرا».

شعر كريز بالغثيان وبقرف مُبْهَم.

«أعرف ذلك، يا ماما. سأحاول أن أكون ولدا صالحا».

«هلاّ ركعتَ معي ودعوت، يا هارولد؟» سألته أمه.

ركعا بجانب المائدة في غرفة الطعام، ودعت أمه.

«والآن ادعُ أنت، يا هارولد»، قالت له.

«لا أستطيع»، قال كريز.

«حاول يا هارولد».

«لا أستطيع».

«هل تريدني أن أدعو عنك؟»

«نعم».

وهكـذا دعت أمـه عنه، ثم نهضا وقبَّل كريـز أمه وخرج من المنـزل. لقد جرَّب ذلـك لعله ينقذ حياته مـن التعقيدات. لكن تلك التجربة لم تعنِ له شـيئا. شعر بالأسى من أجل والدته التي أجبرته على الكذب.

سيرحل إلى كانْزس سـتي ويجد عملا، وهذا سيُفْرِحُها. قد يتفجـر الوضع مرة أخرى قبل رحيله. لن يذهب إلى مكتب أبيه. لا داعي لذلك. كان يريد أن تسير حياته بسلاسة. فقد بدأت من فورها تسـير على هذه الشاكلة. على أي حال، قُضِيَ الأمر الآن. سيذهب إلى باحة المدرسة ليرى هِلِنْ وهي تلعب البيسبول.

التعريشة الثامنة

في الساعة الثانية صباحا دخل هنغاريان محلا لبيع السيجار عند تقاطع الشـــارع الخامس عشـــر مع غراند آڤنيو[٩٦]، انطلق دريڤتـــز وبويل في ســـيارة فورد من مخفر الشـــرطة الكائن في الشـــارع الخامس عشـــر. كان الهنغاريان يُرجعـــان عربتهما إلى الوراء من أحد الأزقة. برصاصتين أردى بويل أحدهم عن مقعد العربة والثاني عن صندوق العربة. أُصيب دريڤتز بالرعب عندما وجد الاثنين ميتين. تبّا لك، يا جِمي، ما كان يجب أن تفعل هذا. لقد أوقعتنا في ورطة.

هذان نصّابـــان، أليس كذلك؟ قال بويل. وهما لا يحملان أي أوراق، أليس كذلك؟ فَمَن يقول إننا في ورطة؟

قـــد ننجو هذه المرة، قـــال دريڤتز، لكن كيف عرفت أنهما من دون أوراق عندما أطلقت النار عليهما؟

مـــن دون أوراق! قال بويل. أنا أشـــتمُّ رائحة الذين لا يحملون أوراقا من مسافة ميل.

---

(٩٦) شارعان يتقاطعان أحدهما مع الآخر في مدينة نيويورك [المترجم].

الثائر
[١٩٢٥]

كان ينتقل من قطار إلى قطار في إيطاليا العام ١٩١٩، حاملا معــه قطعة من القماش الزيتي من قيادة الحزب كُتبَ عليها بقلم رصــاص لا يُمحى ما مفــاده أنه أحد الرفــاق الحزبيين الذين عانوا الوَيلات في ظل حكم البيض في بودابســت[٩٧]، لذا تُرجى مساعدته بكل الوسائل. استخدم هذه القطعة عوضا عن تذكرة الســفر. كان شــديد الحياء وفي ريعان الشــباب، وكان موظفو القطار يســلمونه من طاقم إلى آخر. كان مفلسا وكانوا يطعمونه خِفية في مطاعم السكك الحديد.

لقد سحرته إيطاليا. إنها بلد جميل، وفق زعمه. الناس جميعا لطفاء. مرَّ ببلدات عديدة ومشــى كثيرا وشاهد أفلاما عديدة. اشــترى نســخا طبق الأصل عن لوحات جيوتو، وماساتشــيو، وبييرو ديلا فرانشيســكا، وحملها ملفوفة بأحد أعداد «أڤانتي» إلى الأمام، أما مانتينيا فلم يعجبه[٩٨].

حضــر إلى بولونا، فأخذته معي إلى رومانــا العليا[٩٩]، حيث كان عليَّ أن أرى رجلا هناك. اســتمتعنا برحلتنا معا. كان الوقت

---

(٩٧) أطلقت تسمية البيض على القوى المناهضة للثورة الشيوعية في هنغاريا، وكان أبرز زعيمين للبيض هما اســتڤان بتل والأدميرال نيكولاس هورتي دو نودبَنايو، وفي العام ١٩١٩ بدأ البيض حملة إرهاب سُــميت «الرعــب الأبيض» ضد الشــيوعيين، والفلاحين الفقــراء، واليهود الذين حمَّلوهم مسؤولية ما في البلاد من صعاب [المترجم].

(٩٨) جيوتو (١٢٧٦ - ١٣٣٧) رســام ومهندس معماري من فلورنسا؛ توماسو غويدي ماساتشيو (١٤٠١ - ١٤٢٨) وبييرو ديلا فرانشِسكا (١٤٢٠ - ١٤٩٢) رسامان إيطاليان. أما أندريه مانتينيا (١٤٣١ - ١٥٠٦) فهو رســام من مدرســة پادوا، وكان أكبر فناني عصره في شــمالي إيطاليا لو استثنينا مدينة البندقية [المترجم].

(٩٩) بولونا مدينة في إقليم رومانا في شمالي إيطاليا [المترجم].

في بداية سـبتمبر، وكان الريف بهيجا. وكان شابا مَجَريا لطيفا وشديدَ الحياء[١٠٠].

لقد تعرض لكثير من الإساءات على يد رجال هورتي[١٠١]، كان يؤمن إيمانا مطلقا بالثورة العالمية، رغم هنغاريا[١٠٢].

«لكن كيف تسير الحركة في إيطاليا؟» سألني.

«بشكل سيئ جدا،» قلت له.

«لكنها ستتحسن. لديكم كل شيء هنا. إنه البلد الوحيد الذي يثق به الجميع. وسيكون المنطلق لكل شيء».

لم أقل شيئا.

وَدَّعَنـا عند بولونا وركب القطار إلـى ميلانو ومن هناك إلى أوسـتا حـيث سيـعبر الشِّعب إلى سويسرا. تحدثـت إليـه عـن آل مانتينيـا فـي ميلانو، فقال «لا» باسـتحياء، إذ لم يكن يحب مانتينيا. كتبت له أين يمكنه أن يأكل في ميلانو وأعطيته عناوين الرفاق هناك. شـكرني وأجزل لي الشـكر، لكنه كان يتطلع إلى المسـير فوق الشِّـعب. كان يتلهَّف إلى المسير فوق الشِّعب ما دام الطقس جيدا. كان يحب الجبال في الخريف. وكان آخر ما سمعته عنه هو أن السويسريين ألقوا به في سجن قرب سيون[١٠٣].

---

(١٠٠) المجـر شـعب قَدِمَ مـن وراء جبال الأورال واسـتوطنوا هنغاريا في نهاية القرن التاسـع [المترجم].

(١٠١) في العام ١٩١٩ قاد الأدميرال نيكولاس هورتي دو نودينابو (١٨٦٨ - ١٩٥٧) ثورة مضادة لحكومة الائتلاف التي شـكلها الزعيم الشـيوعي بِلا كون (١٨٨٦ - ١٩٣٩)، وبعد سـقوط هذه الحكومة بمسـاعدة التدخل الروماني، أصبح هورتـي وصيا على عرش هنغاريا من العام ١٩٢٠ حتى العام ١٩٤٤ [المترجم].

(١٠٢) المقصـود بالثـورة العالميـة هي الثورة الشـيوعية التي بـدأت في روسـيا العام ١٩١٧ [المترجم].

(١٠٣) سـيون مدينـة في الجنـوب الغربي من سويسـرا، لا تبعد كثيرا عن الحـدود الإيطالية [المترجم].

التعريشة التاسعة

اخترق قرن الثور يد الماتادور الأول التي يحمل بها السيف، فأطلق الجمهور صيحات الاستهزاء والاستهجان. زلّت قدم الماتادور الثاني، فأصابه الثور في بطنه. أمسك القرنَ بيد وضغط بالثانية على مكان الإصابة، فصدمه الثور بالجدار صدمة عنيفة أخرجت القرن من بطنه، فوقع في الرمل ثم نهض كالسكّير الهائج، وحاول أن يضرب الرجال الذين حملوه بعيدا وصاح طالبا سيفه، لكنه أغشي عليه. خرج الفتى وكان عليه أن يقتل خمسة ثيران لأنه لا يُسمح لك بأكثر من ثلاثة مصارعين، وقد بلغ الإرهاق منه مبلغا لم يستطع معه أن يغرز السيف في الثور الأخير. كان بالكاد يستطيع رفع ذراعه. حاول خمس مرات، فصمت الجمهور لأنه كان ثورا رائعا، وبدا أنه إما هو وإما الثور لكنه نجح في نهاية المطاف. جلس في الرمل وتقيّأ وظلّلوه بإزار بينما كان الجمهور يضج بالصياح ويقذف الأشياء داخل حلبة المصارعة.

السيد إليوت وزوجته
[١٩٢٥]

بذل السـيد إليوت وزوجته قصـارى جهدهما لإنجاب طفل. لقد حـاولا على قـدر ما لدى السـيدة إليوت مـن طاقة على الاحتمال. حاولا في بوسطن بعد زواجهما، وحاولا وهما يركبان الباخـرة. لم يحاولا كثيرا في الباخرة لأن السـيدة إليوت كانت مريضـة جدا. وعندما تمرض فهي تمرض كما تمرض النسـاء الجنوبيات. أقصد النسـاء من الشـطر الجنوبـي من الولايات المتحدة. وككل النسـاء الجنوبيات انهارت السيدة إليوت سريعا بسـبب دوار البحر والسفر ليلا والاستيقاظ باكرا. كان كثيرٌ من ركاب الباخـرة يظنون أنها أم إليوت. أمـا الآخرون الذين كانوا يعرفون أنهـا زوجته، فكانوا يعتقدون أنها سـتنجب طفلا. في الواقع كانت في الأربعين من عمرها. وتقدمت بها السنون فجأة عندما بدأت تسافر.

كانـت تبدو أصغر بكثير، في الحقيقة بدت كأنها لا عمر لها، حـين تزوجها إليوت بعد عدة أسـابيع من معاشـرتها، وكان قد عرفهـا ردحا من الزمن في محل الشـاي الـذي تديره قبل أن يقبِّلها ذات مساء.

كان هوبرت إليوت يتابع دراساته العليا في القانون في جامعة هارفرد عندما تزوجها. كان شـاعرا بواردٍ يناهز العشـرة آلاف دولار في السـنة. كان يكتب قصائد طويلة جدا بسـرعة كبيرة جدا. كان في الخامسـة والعشـرين، ولم يعاشر امرأة قط قبل

زواجه من السـيدة إليوت. كان يريد أن يظل عفيفا لعله يستطيع أن يجلـب لزوجته طهر الفكر والجسـد الـذي كان يؤمِّله منها. كان بينه وبين نفسـه يسـمي ذلك «العيش باستقامة». لقد وقع فـي غرام كثير مـن الفتيات قبل أن يقبِّل السـيدة إليوت، وكان دوما يخبرهـن، إنّ عاجلا أو آجلا، بأنه يحيا حياة عفيفة. وكنَّ جميعهن تقريبا ينفرن منه. كان يصعقه ويُرعبه سـلوك الفتيات اللواتـي يخضن في الأوحال أثناء خطوبتهن لرجال يُردن التزوُّج بهم لكن بعد معرفتهم. لقد حاول ذات مرة أن يحذِّر فتاة يعرفها من رجل كان لديه ضده شِـبه دليلٍ بأنه كان فاسـقا داعرا في الجامعة، فكانت النتيجة وبالاً عليه.

كان اسم السـيدة إليوت هو كورنيليا، لكنها علَّمته أن يناديها باسـم كالوتينا، وهو لقب عائلتهـا في الجنوب. بكت أمه عندما جلـب كورنيليـا معه إلى البيت بعـد زواجهما، لكن أسـاريرها انفرجت عندما علمت أنهما سيعيشان خارج البلاد.

عندمـا أخبر كورنيليا بأنه حافظ على عفته من أجلها، قالت لـه، «ما أحلاك وأغلاك، أيها الصبي»، وضمته إلى صدرها كما لـم تضمه من قبل. وكانت كورنيليا عفيفة أيضا، وقالت، «قبِّلني قبلة أخرى مثل تلك».

قال هوبرت إنه تعلم طريقة التقبيل تلك من زميل سمعه مرة يروي قصة. لقد سرّته تجربته أيّما سرور، فراحا يطوِّران هذه التجربة إلى أبعد الحدود. عندما يسـتغرقان في التقبيـل أحيانا، كانت كورنيليا تطلب منه أن يعيد على مسـامعها أنه حافـظ على عفته من أجلها حقا. وكان هذا الإعلان يعيدها دائما إلى نقطة البداية.

في البداية لم يكن في نية هوبرت أن يتزوج كورنيليا. لم يفكر فيها بتلك الطريقة. كانت صديقته العزيزة، وفي يوم من الأيام كانا يرقصان على أنغام الغراموفون في الغرفة الصغيرة الخلفية للمحل، فتطلّعت في عينيه وقبّلها. لم يعد يتذكر متى قررا الزواج، لكنهما تزوجا.

أمضيا ليلة زواجهما في أحد الفنادق في بوسطن. كلاهما خابت آماله، لكن كورنيليا استطاعت أن تنام أخيرا. أما هوبرت فلم يستطع النوم، فخرج عدة مرات ليقطع ممر الفندق جيئة وذهابا في بُرنسه الجديد الذي اشتراه خصيصا لرحلة زواجه. وبينما كان يتمشى، رأى أزواج الأحذية، الصغيرة والكبيرة، خارج غرف الفندق عند الأبواب، ما جعل قلبه يخفق، فهرع عائدا إلى غرفته، لكن كورنيليا كانت نائمة. لم يُرد أن يوقظها، وسرعان ما صارت الأمور على ما يرام، فنام هانئ البال.

في اليوم التالي زارا أمه وفي اليوم الذي يليه أبحرا إلى أوروبا. كان بإمكانهما أن يحاولا إنجاب طفل، لكن كورنيليا لم يكن باستطاعتها أن تحاول كثيرا، على الرغم من أنهما كانا يريدان طفلا أكثر من أي شيء في الدنيا. نزلا في شيربورغ وجاءا إلى باريس. حاولا أن ينجبا طفلا في باريس. ثم قررا الذهاب إلى ديجون حيث توجد مدرسة صيفية، وكان عددٌ ممن عبروا الأطلسي معهم في الباخرة قد سبقوهم إلى هناك. لم يجدا ما يفعلانه في ديجون. لكن هوبرت كان يكتب عددا هائلا من القصائد، وكانت كورنيليا تتولى طباعتها له. وكانت جميعها قصائد طويلة جدا. كان لا يتساهل معها بشأن الأخطاء

المطبعيــة إطلاقا، فــكان يجعلها تعيد طباعــة صفحة كاملة لو ارتكبــت غلطة واحدة. كانت تبكــي كثيرا، وحاولا عدة مرات أن ينجبا طفلا قبل أن يغادرا ديجون.

جاءا إلى باريس وقد عاد معهم معظم أصدقائهم من الباخرة. لقد ســئموا ديجون، فضلا عن أنهم يستطيعون أن يقولوا إنهم، بعــد تركهــم هارفرد أو كولومبيــا أو وَبَش، درســوا في جامعة ديجون على الشــاطئ الذهبي. كان كثير منهم يفضِّل أن يذهب إلــى لانغــدوك أو مونپِلييه أو پيرپينان لــو كانت فيها جامعات. لكنها كانت جميعها بعيدة جدا. أما ديجون فهي تبعد عن باريس أربع ســاعات ونصف الســاعة فقط، كما أن هناك مطعما في القطار.

وهكــذا تحلق الجميع حول مقهى القُبّــة بضعة أيام، وتفادوا الذهاب إلى الروتوند على الجهة الأخرى من الشارع لأنها دائما تعج بالأجانب. ثم اســتأجر الســيد إليوت وزوجتــه قصرا في توريــن من خلال إعلان قرآه في جريــدة «هيرالد» الصادرة في نيويورك. صــار لإليوت عدد من الأصدقــاء وجميعهم معجبون بشــعره واستطاعت زوجته أن تقنعه بأن يستقدم صديقتها التي كانت معها في محل الشــاي في بوسطن. ابتهجت السيدة إليوت كثيرا حين وصلت صديقتها وبكيا معا أكثر من مرة بكاء يُشــفي. كانــت هذه الصديقة تكبر كورنيليا بعدة ســنوات وكانت تناديها «هَني» وهي أيضا تتحدر من عائلة عريقة جدا.

ذهب الثلاثة مع عدد من أصدقاء إليوت الذين يلقبونه «هوبي» إلى القصر في تورين. وجدوا أن تورين عبارة عن ريف منبســط

جدا وشـديد الحرارة تماما مثل كانزس. أصبح لدى إليوت الآن قصائد تكفي لكتاب تقريبا سينشره في بوسطن وقد أرسل مبلغا إلى الناشر الذي تعاقد معه.

وسـرعـان ما راح الأصدقاء يعـودون أدراجهم إلى باريس. لم تعد تورين كما بدت في البداية ولم يمض سـوى وقت قصير حتى ذهب جميع الأصدقاء مع شـاعرة شابة ثرية وغير متزوجة إلى منتجع بحري قرب تروفيل. كان الجميع سعداء جدا.

بقي إليوت في قصره في تورين لأنه استأجره طوال الصيف. حاول هو وزوجته أن ينجبا طفلا وكان ذلك على السـرير الكبير القاسي في غرفة النوم الكبيرة الحارة. كانت السيدة إليوت تتعلم نظام اللمس في الطباعة، بيد أنها وجدت أن هذه الطريقة على الرغم مما فيها من سـرعة فإنها تزيد عدد الأغلاط. أصبحت صديقتهـا الآن هي التي تطبع جميـع المخطوطات. كانت بارعة ومتقنة لعملها وتستمتع فيما يبدو بما تقوم به.

راح إليـوت يتعاطى المشـروب وكان يعيش بمفرده في غرفته الخاصة. كان يكتب كثيرا من الشـعر طوال الليل، وكان الإرهاق باديا عليه في الصباح. وأصبحت الآن السيدة إليوت وصديقتها تنامـان في السـرير الكبير العائد إلى القرون الوسـطى، وكانا يبكيان معا بكاء يُشـفي. كانوا جميعا يجلسون مساء للعشاء في الحديقة تحت شجرة الدُّلب وريحُ المساء تهب هبوبا حارا، وإليوت يتناول المشروب، بينما السيدة إليوت وصديقتها تتجاذبان أطراف الحديث، وكان الجميع سعداء على خير ما تكون السعادة.

التعريشة العاشرة

ظلوا يضربون الحصان الأبيض على أرجله حتى نهض. سوّى البيكادور الرِّكاب وشـدّه ثم قفز واسـتوى على السـرج. تدلّت أحشـاء الحصان في حزمة زرقـاء راحت تتأرجـح إلى الأمام والخلف عندما بدأ يخبُّ، وكان مسـاعدو البيـكادور يضربونه علـى أرجله بالعصي. راح يخب مرتعشـا أمام المقاعد الأمامية، ثم تجمَّد في مكانه، فأمسك به أحد المساعدين من لجامه وجرّه إلى الأمام. نخزه البيكادور بمهمازيه ومال نحو الأمام وهزّ رمحه في وجه الثور. كان الدم يتدفق بانتظام من بين سـاقي الحصان الأماميتين، وكان يرتعش بعصبية، فتردد الثور في أمر الهجوم.

قطة تحت المطر
[١٩٢٥]

كان في الفندق أمريكيان فقط. لم يكونا يعرفان أيا من الناس الذين كانا يصادفانهم على الدرج عندما يخرجان من غرفتهما أو يعودان إليها. كانت غرفتهما في الطابق الثاني وتطل على البحر. كانت تطل أيضا على الحديقة العامة والنُّصب الحربي. كانت في الحديقة أشجار نخيلٍ كبيرة ومقاعد خضراء. كانت الحديقة لا تخلو من رسّام وأدواته عندما يكون الطقس جيدا. كان الفنانون يحبون أشجارَ النخيل وطريقة نموِّها، كما كانوا يحبون ألوان الفنادق البهيجة المطلة على الحدائق والبحر. كان الإيطاليون يقطعون مسافاتٍ طويلة في سبيل الفُرجة على النصب الحربي. وكان النصب مصنوعا من البرونز وكان يلتمع في المطر. كان المطر يهطل، وكانت قطرات المطر تنزلق على أشجار النخيل. تشكَّلت بِرَكُ الماء على الدروب المرصوفة بالحصى. كان الموج يتكسر في خط طويل في المطر ثم يتراجع عن الشاطئ ليعود ثانية فيتكسر في خط طويل في المطر. خلت الساحة القريبة من النصب الحربي من السيارات. على الجهة الأخرى المقابلة للساحة وقف نادلٌ بباب المقهى يتفرَّس في الساحة الخالية.

وقفت المرأة الأمريكية تتطلع من النافذة. كانت تقف تحت نافذتها مباشرة قطةٌ منكمشة على نفسها تحت إحدى الطاولات الخضراء التي يَسُحُّ عليها ماء المطر. كانت القطة تحاول أن تتقلص كي تقي نفسها من المطر.

«سأنزل لجلب تلك الهُريرة»، قالت المرأة الأمريكية.

«سأنزل أنا»، عَرَض عليها زوجها من سريره.

«لا، سأجلبها أنا. الهُريرة المسكينة تحاول أن تقي نفسها من البلل تحت إحدى الطاولات».

تابع الزوج قراءته، وهو يستلقي على وسادتين عند قدم السرير.

«لا تبتلّي»، قال لها.

نزلت الزوجة الدرجَ فوقف صاحب الفندق وانحنى لها عندما مرّت من أمام مكتبه. كان يجلس في الطرف البعيد للمكتب، وكان عجوزا وطويلا جدا.

«إنها تُمطر»، قالت له بالإيطالية. كانت تحب صاحب الفندق.

«نعم، نعم، يا سيدتي. إنه طقس سيئ جدا».

ظل واقفا خلف مكتبه في الطرف البعيد للغرفة المظلمة. أحبته الزوجة. أحبت جديته في تلقّي الشكاوى. أحبت وقاره. أحبت اندفاعه لخدمتها. أحبت حبه لعمله. أحبت وجهه العجوز الرزين ويديه الكبيرتين.

فتحت الباب وأطلّت منه ونفسُها جيّاشةٌ بحبه. كان المطر يهطل بغزارة أشد. كان رجلٌ يرتدي إزارا مطاطيا يعبر الساحة الخالية نحو المقهى. لا بد أن القطة إلى يمين الباب. إذن، يمكنها أن تسير تحت الأفاريز. وبينما هي تقف في المدخل، إذ بالخادمة التي تعتني بغرفتهما تفتح مظلة وتقف وراءها.

«يجب ألا تبتلّي»، تحدثت بالإيطالية وهي تبتسم. طبعا، كان صاحب الفندق قد أرسلها.

ســـارت على الـــدرب المرصوف بالحصـــى، والخادمة تظللها بالمظلـــة، إلى أن وقفت تحت نافذة غرفتهما . وجدت الطاولة في مكانهـــا، تبرق خضراء في المطـــر، لكنها لم تجد القطة. انتابتها خيبـــة أمل مفاجئة. تطلعت الخادمة إليها وســـألتها بالإيطالية:

«هل أضعتِ شيئا يا سيدتي؟»

«كانت قَطةٌ هنا»، قالت الفتاة الأمريكية.

«قطة؟»

«نعم، قطة».

«قطة، قطة تحت المطر؟» سألت الخادمة وهي تضحك.

«نعـــم، قطة تحت الطاولة»، قالت. «أوه، كم كنت أريدها! كنت أريد هُريرة».

عندما كانت تتحدث بالإنجليزية كان وجه الخادمة ينقبض.

«تعالي يا سيدتي»، قالت الخادمة. «يجب أن نعود إلى الداخل، وإلا فَسَتبتلّين».

«أنـــتِ على حـــق»، قالت الفتـــاة الأمريكية. ســـارتا على الدرب المرصوف بالحصى عائدتين إلى الفندق. ظلت الخادمة خارج الباب لتغلـــق المظلة. حين مـــرّت الفتاة الأمريكية من أمـــام المكتب انحنى مدير الفندق أيضا من وراء مقعده. شعرت الفتاة بشيء صغير جدا ينقبـــض داخلها. جعلها مدير الفندق تشـــعر بحجمها الصغير جدا وبأهميتها في آن معا. انتابها شـــعور آنِـــيٌّ بأنها ذات أهمية فائقة. صعدت الدرجات وفتحت باب الغرفة. كان جورج يقرأ في السرير.

«هل جلبتِ القطة؟» سألها وهو يضع الكتاب من يده.

«لقد اختفت».

«تُرى، أين ذهبت؟» قال وهو يريح عينيه من القراءة.

جلست زوجته على السرير، وقالت:

«كم كنت أريدها! لا أعــرف لماذا أردتها إلى هذا الحد. كنت أريد تلك الهريرة المســكينة. تُرى، أيُّ حظٍ لهريرة مسكينة تحت المطر!»

استأنف جورج قراءته.

راحت وجلست أمام مرآة طاولة الزينة وهي تنظر إلى نفسها في مرآة يدوية. تفحصت صورتها الجانبية، ثم دققت فيها جانبا، جانبا. بعدئذ تفحصت رأسها من الخلف ثم رقبتها.

«ألا تعتقد أنه من الأفضل لو أطلْتُ شــعري؟» سألت زوجها، بينما راحت تدقق في صورتها الجانبية مرة أخرى.

رفــع جورج ناظريــه ورأى رقبتها من الخلف، وكان شــعرها مقصوصا على شاكلة الصبيان.

«أنا أحبه كما هو».

«لقد سئمتُه. لقد سئمت كوني أبدو كأنني صبي».

غيَّر جورج وضعيته في الســرير، وكان يلاحقها بنظراته منذ أن بدأت تتحدث، وقال:

«إنك تبدين مليحة هكذا».

وضعت المــرآة على طاولــة الزينة واتّجهت صــوب النافذة، وراحت ترسل نظراتها نحو الخارج. كان الظلام يخيِّم.

«أريد أن أسحب شعري إلى الوراء وأن يكون مشدودا وسلسا، وأريد أن تكون لي عقصةٌ كبيرة يمكنني أن أتلمسها خلف رأسي. وأريد هُريرة تجلس في حضني وتهرُّ عندما أمسِّد لها شعرها».

«حقا؟»

«وأريـد أن آكل علـى مائدة بأوانٍ فضية لي وأريد شـموعا. وأريد الدنيا ربيعا، وأريد أن أسـرِّح شـعري أمـام مرآة، وأريد هريرة، وأريد بعض الملابس الجديدة».

«أوه، اخرسـي وأمسـكي بشـيء تقرئينه»، قـال لها جورج، واستأنف قراءته.

كانت زوجته ترسـل نظراتها خارج النافـذة. في هذه الأثناء أصبح الظلام دامسا، وظل المطر يهطل على أشجار النخيل.

«مهمـا يكن، أريد قطة»، قالت زوجته. «أريد قطة. أريد قطة الآن. إذا كنت لا أسـتطيع أن أطيل شـعري أو أستمتع بحياتي، فلا بد أن تكون لدي قطة».

لم يكن جـورج يصغي إليها. كان يقرأ كتابا. أرسـلت زوجته نظراتها خارج النافذة إلى حيث كان الضوء يُنير الساحة.

قرع أحدهم الباب.

«ادخل»، قال جورج، بالإيطالية، ورفع ناظريه عن الكتاب.

وقفت الخادمة بالباب. كانت تحمل قطة كبيرة بلون السلحفاة، وكانت تضم القطة المتدلية مع جسمها ضما مكينا.

«عفوا، لقد طلب مني مدير الفندق أن آتي بهذه للسيدة».

التعريشة الحادية عشرة

كان الجمهـور لا يكفُّ عن الصراخ، ثـم راحوا يقذفون قِطع الخبـز داخل الحلبة، ثم الوسـائد وزجاجات المشـروب المَغلَّفة بالجلـد، وكان الصفير والصياح على أشُـدِّهما. وأخيرا، أُرهق الثور من كثرة الطعن، فثنى ركبتيه وجثا على الأرض. انحنى فوق رقبتـه واحدٌ من الفريق وقتلـه بخنجر. قفز الناس فوق المقاعد الأمامية وطوقوا الثـور، فرفعه رجلان بينما بتر ثالثٌ ذيله وراح يلّوح به، فخطفه صبي وهرب به. رأيته فيما بعد في المقهى. كان قصيرا جدا ذا وجه أسـمر محـروق. كان ثملا جدا، فقال لقد حدث مثل هذا الأمر من قبل. أنا في الحقيقة لا أتقن مصارعة الثيران.

قبل الأوان
[١٩٢٥]

اشترى مشروبا بالليرات الأربع التي كسبها من حرث حديقة الفندق وتلذَّذَ به أيّما تلذُّذ. رأى السيد الشاب نازلا الدرب فتحدث إليه بغموض. قال السيد الشاب إنه لم يأكل بعد، لكنه سيكون جاهزا للانطلاق متى انتهى طعام الغداء. مدة أربعين دقيقة أو ساعة.

في الحانة القريبة من الجسر باعوه ثلاث زجاجات أخرى من مشروب الغرابّا(١٠٤) بالدين لأنه كان واثقا ومتكتّما على العمل الذي سينجزه عصر ذلك اليوم. كان يوما شديد الهواء، وكانت الشمس تظهر من خلف الغيوم ثم تغيب خلف رذاذ المطر. يوم رائع يصلح لصيد سمك السلمون المرقَّط.

خرج السيد الشاب من الفندق وسأله عن الصنارات: هل يتعين على زوجته أن تجلبها وتلحق بهما؟ «نعم»، قال پدوزي. «دعها تلحق بنا». عاد السيد الشاب إلى الفندق وتحدث مع زوجته. بعدئذ سلكا الطريق نزولا. كان السيد الشاب يعلِّق حقيبة على كتفه. رأى پدوزي الزوجةَ التي كانت شابة مثل السيد الشاب، وكانت تنتعل حذاء جبليا وتلبس طاقية زرقاء. رآها تسير وراءهما على الطريق تحمل في كل يدٍ صنّارةَ صيد غير مركبّة. لم يحب پدوزي أن تسير وراءهما، فنادى عليها وهو يغمز للسيد الشاب، «سينيوريتا، هيّا امشي معنا. سينيوريتا، تعالي إلى هنا.

---

(١٠٤) الغرابّا: مشروب إيطالي [المترجم].

دعينــا نَمْشِ معا». كان پدوزي يريد أن يمشــوا ثلاثتهم معا في شارع كورتينا.

ظلت الزوجة تتخلف عنهمــا، متجهمةَ الوجه. ناداها پدوزي بِرقّة، «ســينيوريتا، هيا تعالي معنا». التفت الســيد الشاب إلى الــوراء وصرخ فيها. كفَّت الزوجة عــن التخلف وراءهما وراحت تُغذُّ المسير.

كان پدوزي يســتفيض في تحية كل من صادفوه في الشــارع الرئيسي للبلدة. طاب نهارك، سيد آرتورو، ثم يُخفض قبعته. من باب المقهى الفاشــيّ حدّق فيه موظف البنك طويلا. مجموعات مؤلفــة من ثلاثة أو أربعة أشــخاص يقفون أمام الحوانيت كانت تحــدق في الثلاثة. وعندما مروا بالعمال ذوي الســترات المغبرّة الذين يعملون في إرساء أساسات الفندق الجديد، شخص هؤلاء بأبصارهــم إليهم. لم يكلمهم أحدٌ أو يعطهم أي إشــارة. وحده شحاذ المدينة العجوز النحيل ذو اللحية المغطاة بلعابه رفع قبعته عندما مروا به.

توقــف پدوزي أمام مخزن تمتلئ واجهتــه بالقوارير، فأخرج زجاجــة الغراپّــا الفارغة من أحــد الجيــوب الداخلية لمعطفه العســكري القــديم. «قليلٌ من المشــروب، بعض المارســالا(١٠٥) للسينيورا، شيءٌ يُشرب، شيءٌ يُشرب». ثم نابت الزجاجة في يده عن الكلام. «مارســالا، هل تحبّين المارسالا، سينيوريتا؟ قليلٌ من المارسالا؟».

كانــت الزوجة تقف متجهمة الوجــه، وقالت لزوجها، «عليك

(١٠٥) المارسالا: مشروب إيطالي [المترجم].

أن تتدبــر الأمر، فأنا لا أفهم كلمة مما يقول[١٠٦]، إنه ثَمِلٌ، أليس كذلك؟».

بدا كأن السيد الشاب لم يسمع ما قاله پدوزي. كان يتساءل: ما الذي يجعله يقول مارسالا؟ فهذا ما يشربه ماكس بيربوم[١٠٧].

«فُلــوس» قــال پدوزي أخيرا، وهو يمســك بتلابيب الســيد الشاب. «ليرات». ابتسم ولم يكن يلح في طلبه، وإن كان يريد أن يحفِّز السيد الشاب على الفعل.

أخرج السيد الشاب محفظة نقوده وأعطاه عشر ليرات. صعد پــدوزي الدرجات المؤدية إلى باب محل بيع المشــروبات الوطنية والأجنبية. كان مغلقا.

«مغلــق حتى الثانيــة»، قال أحد المارّة باحتقــار. نزل پدوزي الدرجات. جُرِحَت مشــاعره، فقال، «لا عليك، سننال مُرادنا في الكونكورديا».

نزل الثلاثــة إلى الكونكورديا، يســيرون جنبا إلى جنب. في رواق الكونكورديــا، حيــث تتكدس زلاّجات الثلــج الصدئة، قال الســيد الشــاب (بالألمانية)، «ماذا تريد؟» فناولــه پدوزي ورقة العشــر ليرات الملفوفة لفة فوق لفة. «لا شــيء»، ردّ پدوزي. «أي شيء». شعر بالحرج. «مارسالا، ربما. لا أعرف. مارسالا؟».

أُغلق باب الكونكورديا على الســيد الشــاب وزوجته. «ثلاثة مارســالا»، قال الســيد الشــاب للفتاة الواقفة خلــف منضدة المعجَّنــات. «هل تقصد اثنين؟» ســألت الفتاة. «لا، واحدة لرجل

---

(١٠٦) لا تفهم الزوجة ما يقوله پدوزي لأنه يتكلم معها بالإيطالية وليس بالإنجليزية [المترجم].
(١٠٧) السير ماكس بيربوم (١٨٧٢ - ١٩٥٦) كاتب ساخر ورسام كاريكاتير إنجليزي [المترجم].

عجوز»، رد عليها. «أوه، لرجل عجوز»، قالت ضاحكة، وهي تُنّزل الزجاجة. ملأت ثلاثة أقداح بالمشروب الذي له لون الوحل. كانت الزوجة تجلس إلى مائدةٍ تحت صف الصحف المعلقة على العِصي. وضع السيد الشاب أحد الأقداح أمامها. «حبّذا لو شربِتِه»، قال لها. «لعلّك تتحسنين». ظلّت جالسة وهي تتطلع إلى القدح. حمل السيد الشاب قدح پدوزي وخرج، فلم يجده.

«لا أعرف أين ذهب»، قال وهو يعود إلى غرفة المعجّنات، حاملا القدح.

«كان يريد ربع ليتر منه»، قالت الزوجة.

«كم ثمن ربع الليتر؟» سأل السيد الشاب الفتاة.

«ربع ليتر من الأبيض؟ ليرة واحدة».

«لا، من المارسالا. ضعي هذين القدحين أيضا»، قال لها وهو يناولها قدحه وقدح پدوزي. ملأت مكيال الربع ليتر بقُمع. «زجاجة لِحَمله»، قال السيد الشاب.

ذهبت لتفتش عن زجاجة. كان الأمر برمّته مُسليًا بالنسبة إليها.

«أنا آسف إذا كنتِ على غير ما يُرام، تايني»، قال زوجها. «وأنا آسف أيضا لأنني تحدثت بتلك الطريقة على الغداء. كان كلٌّ منا يرمي إلى الشيء نفسه لكن من زاوية مختلفة».

«لا يهمُّني الأمر»، قالت. «الأمر برمته لا يهمني».

«هل تشعرين بالبرد الشديد؟» سألها. «حبّذا لو ارتديت كنزة أخرى».

«إنني ألبس ثلاث كنزات».

جاءت الفتاة بزجاجة بُنية رفيعة جدا وصبَّت المارسالا فيها. دفع السيد الشاب خمس ليرات أخرى. خرجا من الباب. كانت الفتاة مستمتعة. كان پدوزي في الطرف الآخر يروح ويأتي، بعيدا عن مهبِّ الريح، حاملا الصنارتين.

«هيا بنا»، قال لهما. «سأحمل أنا الصنارتين. وماذا لو رآهما أحدهم؟ لن يُكَدِّر خاطرنا أحدٌ. لن يكدر خاطري أحد في كورتينا[١٠٨]. أنا أعرفهم في الميونيسيپيو[١٠٩]. لقد كنت جنديا. كلهم يحبونني في هذه البلدة. أنا أبيع الضفادع. وأي أهمية للقانون الذي يمنع صيد الأسماك؟ لا شيء. لا شيء إطلاقا. لا توجد مشكلة. هل حدَّثتُك عن أسماك السلمون الكبيرة؟ أعداد هائلة».

كانوا ينحدرون من التلّ باتجاه النهر. وكانت البلدة وراءهم. اختفت الشمس وكان الرذاذ يهطل. «هناك»، قال پدوزي وهو يشير إلى فتاةٍ تقف في مدخل منزلٍ مرّوا به. «ابنتي».

«طبيبته؟» قالت الزوجة. «وهل علينا أن نتعرف إلى طبيبته؟»

«لقد قال ابنته»، قال السيد الشاب[١١٠].

دخلت الفتاة البيتَ عندما أشار پدوزي إليها.

نزلوا التل وعبروا الحقول ثم انعطفوا ليتبعوا ضفة النهر.

---

(١٠٨) كورتينا دامپيزو: مدينة في منطقة جبال الألب (شمالي إيطاليا) قريبة من الحدود مع النمسا [المترجم].

(١٠٩) الميونيسيپيو هي دائرة البلدية [المترجم].

(١١٠) يبدو أن پدوزي كان يتكلم معهما بالألمانية، وهي إحدى اللغتين اللتين يتحدث بهما معهما، حيث إن كلمة «توختر» [ابنة] بالألمانية قريبة في لفظها من كلمة «دُكتَر» [طبيبة] بالإنجليزية، وهذا مردّ التباس الأمر على الزوجة [المترجم].

كان پدوزي يتحدث بسـرعة، ويسـرف في الغمز وإظهار درايته بالأمور. وبينما كانوا يمشون جنبا إلى جنب شَّمت الزوجة رائحة أنفاسـه تعبق بها الريح. وفي إحدى المـرات نخزها بكوعه بين أضلاعها. كان يتحدث تـارة بلهجة داميپزو وتارة بلهجة تيرولر الألمانية. لم يكن يعرف أيهما يفهم السـيد الشـاب وزوجته أكثر من الأخرى، لهذا راح يتكلم باللغتين. لكن لم يكد پدوزي يسـمع السـيد الشاب يقول «يا، يا» أي نعم، نعم حتى قرر الحديث كلية بلهجة تيرولر الألمانية. لم يفهم السيد الشاب وزوجته شيئا.

«كلُّ مَنْ في البلدة رآنا نمر ونحن نحمل هاتين الصنارتين. من المحتمل أن تكون شـرطة مكافحة الصيـد تتعقبنا الآن. ليتنا لم نتورط في هذا الأمر اللعين. ووجود هذا الأحمق العجوز المدمن اللعين معنا سيزيد الطين بِلّة».

«وأنت بالطبع لا تمتلك الشجاعة لتعود من حيث أتيت»، قالت له زوجته. «فلا بُدَّ، طبعا، أن تستمر فيما بدأت».

«لماذا لا تعودين؟ هيّا عودي، يا تايني».

«بل سأبقى معك. إن دخلت السجن، فلندْخله معا».

انعطفـا انعطافا حـادا نحو الضفة، فوقف پـدوزي، والريح تُطَوِّح بمعطفه، وهو يشير إلى النهر. كان لونه بنيا موحلا. وعلى اليمين توجد كومة قمامة.

«قُلْها لي بالإيطالية»، قال السيد الشاب.

«أونا ميزورا. پيو أونا ميزورا».

«يقـول ما زال أمامنا نصف سـاعة على الأقل. هـيا عـودي، يا تايني. إنك تبردين في هذه الريح، على أي حال. إنه يوم كريه

ولن نستمتع به، في كل الأحوال».

«حسنٌ»، قالت ثم صعدت الضفة المُعْشِبة.

كان پـدوزي في الأسـفل عند النهـر، ولم ينتبـه إليها حتى كادت تتوارى عن الأنظار خلف قمة التل. «سـيدتي»، صاح فيها. «سيدتي، آنستي، لن تذهبي»[111].

توارت خلف قمة التل.

«لقد ذهبت»، قال پدوزي وقد صعقه ذهابها.

نزع الأربطة المطاطية التي كانت تحزِم أجزاء الصنارة وشرع في تركيب إحداها.

«لكنك قلت إنه ما زال أمامنا نصف ساعة أخرى».

«آه، نعم. هناك بعد نصف ساعة جيد، وهنا جيد أيضا».

«حقا؟».

«طبعا. هنا جيد وهناك جيد أيضا».

جلس السيد الشـاب عند الضفة وراح يركِّب الصنارة. وضع البكرة ثم نَظَمَ سلك الصنارة في الموجِّهات. شعر بعدم الارتياح، وكان يخشـى أن يداهمهمـا في أي لحظة أحـد حراس الصيد أو حشـد من مواطني البلـدة. كان يرى معظم بيوت البلدة وبرج الكنيسـة تطل من فوق حرف التل. فتح صندوق الطُّعم. انحنى پدوزي فوق الصندوق وغمس إبهامه المسـطَّح المتصلِّب وسبابته في الصندوق وحبك الطعوم المسترطبة بالشِّبَاك.

«هل لديك رصاص؟».

«لا».

---

(١١١) هنا يخاطب پدوزي الزوجة بالألمانية، ولعل تأرجحه في اختيار اللقب المناسـب يدل على عدم تمكنه من الألمانية، أو ربّما نتيجة السُّكر الذي هو فيه [المترجم].

«لا بد من الرصاص». كان پدوزي مُثارا. «يجب أن يكون لديك رصـــاص. رصـــاص. قليل من الرصاص. هنـــا فقط. فقط فوق الخطّاف وإلا فإن الطعم سيطفو على سطح الماء. لا بد لك منه. فقط قليل من الرصاص».

«هل لديك شيءٌ منه؟».

«لا». ثـــم راح ينبش جيوبـــه بتهوُّرِ مَنْ فَقَـــد الأمل. نبش بين رواســـب القماش المتجمعة في بطانة جيوب معطفه العســـكري الداخلية، وقال، «ليس لدي شيء. لا بد لنا من الرصاص».

«إذن، لا نســـتطيع الصيـــد»، قال الســـيد الشـــاب وهو يفكُّ الصنـــارة، ويُرجِع الســـلك عبـــر الموجِّهات ليلفه حـــول البكرة. «سنجلب الرصاص ونأتي للصيد غدا».

«ولكن اسمع يا عزيزي، يجب أن يكون لديك رصاص، وإلا فإن السلك سيطفو على سطح الماء». هكذا رأى پدوزي يومه يتحطم أمـــام عينيه. «يجـــب أن يكون لديك رصاص. قليـــلٌ منه يكفي. عُدَّتك نظيفة وجديدة، لكن ليس لديك رصاص. كان بإمكاني أن أحضره معي، لكنك قلت إنك جهَّزت كل شيء».

نظر السيد الشـــاب إلى الجدول الذي فقد لونه جراء ذوبان الثلـــج فيه، وقال، «أعلـــم ذلك. لكننا ســـنجلب الرصاص ونأتي للصيد غدا».

«في أي ساعة في الصباح؟ قل لي».

«في السابعة».

برزت الشمس وأصبح الجو دافئا ولطيفا. شعر السيد الشاب بالارتيـــاح. لم يعد مُنْتَهِكا للقانون. جلـــس على الضفة ثم أخرج

زجاجة المارســالا من جيبه وأعطاها إلى پدوزي. أعادها پدوزي إلى الســيد الشاب. أخذ منها السيد الشاب جرعة وأعادها مرة أخـــرى إلى پــدوزي. أعادها پدوزي مرة ثانية، وقال، «اشـــرب. اشـــرب. إنها زجاجتك». أخذ السيد الشــاب منها جرعة قليلة ثم سلَّم الزجاجة نهائيا إلى پدوزي. كان پدوزي يراقب الزجاجة بلهفة. خطف الزجاجة على عجل وجعل عاليَها ســافلَها. رقص الشــيب في ثنايا رقبته وهو يشرب، وعيناه مصوَّبتان نحو نهاية الزجاجة البُنيّة الرفيعة. كَرَع كل ما فيها. أشرقت الشمس بينما كان يشرب. كان الجو رائعا. في الواقع، إنه يوم رائع. يوم رائع.

«في السابعة صباحا، يا عزيزي». نادى السيد الشاب «عزيزي» عدة مرّات ولم يحدث شيء. كانت المارسالا طيبة. تلألأت عيناه. رأى أمامه أياما كهذا اليوم تُقبِل عليه. ســيبدأ ذلك في السابعة صباحا.

راحا يتســلقان التل باتجاه البلدة، وكان الســيد الشاب يسير في المقدمة. وعندما قطع شوطا لا بأس به، ناداه پدوزي:

«اســتمع إليّ يا عزيزي، هل يمكنـــك أن تتكرم عليَّ وتعطيني خمس ليرات؟»

«لقاء ما فعلته اليوم؟» سأله السيد الشاب وهو عابس.

«لا، ليس لقاء ما فعلته اليوم. سَــلِّفْني إياهـــا اليوم لقاء يوم غد. سأشـــتري كل ما نحتاج إليه ليوم غد. خبز وســجق وجبن. وكل ما يلزمنا. أنت وأنا والســينيورا. طعم للأسماك. سأشتري أســماك المِنُوَّة، وليس الدود فقط. وقد أتمكن من شراء قليل من المارسالا. كل هذا بخمس ليرات. خمس ليرات لقاء خدمة».

فتش السيد الشاب في محفظة نقوده، ثم أخرج ورقة من فئة ليرة وورقتين من فئة ليرتين.

«شكرا، يا عزيزي. شكرا». قال پدوزي كأنه أحد أعضاء نادي الكارلتون[١١٢] عندما يهديه عضو آخر جريدة «المورننغ پوست». هكذا تكون العيشة، وإلا فلا. لقد نفض يديه من حديقة الفندق ومن تكسير المزابل المتجمدة بشوكة الروث، وها هي الدنيا تُقبل عليه.

«إلى اللقاء في السابعة، يا عزيزي»، قال وهو يربِّت على ظهر السيد الشاب. «في السابعة تماما».

«قد لا آتي»، قال السيد الشاب وهو يضع محفظة نقوده في جيبه.

«ماذا؟» سأل پدوزي. «سأشتري المنوّة طعما للأسماك، سينيور. سجق، كل شيء. لك ولي وللسينيورا. لنا جميعا».

«قد لا آتي»، قال السيد الشاب. «إنه احتمال قوي. سأترك لك خبرا في مكتب مدير الفندق».

---

(١١٢) تأسس نادي كارلتون العام ١٨٣٢ لخدمة المصالح السياسية لحزب المحافظين في بريطانيا بعد فوز حزب الإصلاح في الانتخابات في تلك السنة [المترجم].

التعريشة الثانية عشرة

لـــو أن ذلك حدث أمام عينيك، لــكان بإمكانك أن ترى بِيالتا وهو يُزَمجِر ويسبُّ الثور. وعندما هاجمه الثور، وثب إلى الوراء، ثابتَ الخطوة كأنه سـندِيانة في وجه الريح، مُتَراصَّ السـاقين، مُجَرجِرا إزاره القصير، والسيف يقتفي الأثر وراءه. ثم سبّ الثور وضربه بالإزار، ووثب مبتعدا عن الثور المنقضّ مشدود القدمين، وسوطه يَتَقَوَّس، والجمهور يزمجر كلما لوَّح بإزاره.

شرع في قتل الثور دفعة واحدة. كان الثور يسدد إليه نظراتٍ حاقدة. استل السيف من ثنايا الإزار وصوَّبه نحوه بحركة واحدةً وناداه، إليَّ، إليَّ أيهــا الثور، فانقض الثور وانقض بِيالتا واتّحدا للحظــة. التحم بِيالتــا مع الثور ثم قُضي الأمــر. انتصب بِيالتا مشدودَ الظهر، وراح يغرزُ السيف حتى مقبضه الأحمر بين كتفي الثور. رفع بِيالتا يده للجمهور، بينما كان الثور يسدد نظراته نحو بِيالتا، ويجأر دما، ثم يتهاوى على أرجله المضطربة.

ثلجٌ للتزلُّج
[١٩٢٥]

لفظت العربة أنفاسها الأخيرة ثم توقفت. لم تكن قادرة على متابعة المسير بسبب تراكم الثلوج وتجمدها فوق السكة. كانت العاصفة الهوجاء التي هبت على سفح الجبل المكشوف قد دكّت وجه الثلج حتى تشكّلت طبقة متجمدة صمدت في وجه الريح. فرك نِك زُحلوفَتَيْه بالشمع في عربة الأمتعة، ثم حشر جَزْمته داخل واقيات الأصابع الحديدية ثم أحكم إغلاق الإبزيم. قفز من العربة بشكل جانبي على الجليد الصلب، ثم انعطف قافزا. جثا قبل أن يندفع منزلقا أسفل المنحدر، ساحبا عُكّازَيْه وراءه.

كان جورج في أدنى المنحدر الأبيض ينخفض ثم يرتفع، ثم يتوارى عن الأنظار. طار عقل نك من رأسه عندما اندفع اندفاعا مفاجئا، منحدِرا نحو سفح الجبل المتموِّج السحيق، ولم يشعر إلا بإحساس رائع يتملَّك أوصاله وهو يطير ثم ينخفض. صعد مرتَفَعا طفيفا، ثم بدا الثلج كأنه ينجرف من تحته بينما كان يهبط أسرع فأسرع نحو المنحدر السحيق الطويل النهائي. جثا حتى كاد يُقعي على زُحلوفتيه في محاولةٍ للمحافظة على انخفاض مركز الجاذبية. كان الثلج يتطاير كعاصفة رملية، فأدرك أن سرعته تفوق المعقول، لكنه حافظ عليها. لن يتراجع فيسقط. ثم صادف رقعة من الثلج الهش خلَّفتْها الريح في حفرة فأسقطتْه. تدحرج عدة مرات وزحلوفتاه تصطكان إحداهما بالأخرى، فشعر كأنه أرنبٌ أُصيب بطلق ناري، ثم ارتطم بعقبة فتوقف، وساقاه

متصالبتان، وزحلوفتاه تشـــمخان باستقامة نحو الأعلى، وقد زُقَّ أنفه وأذناه بالثلج.

وقف جورج على مسافة قليلة عند سفح المنحدَر، فنفض الثلج عن معطفه الواقي من الريح نفضا عنيفا. نادى على نك قائلا:

«لقد كنـــتَ رائعا، يا نك. ذلك الثلج الهـــش اللعين قتلني كما قتلك».

«تُرى، كيف التزلُّج على المُنَخَفَض؟» سأله نك ثم نهض.

«عليك أن تلزم اليســـار، حيث الانحدار على المُنَخَفَض سريع ورائع، وهناك منعطفٌ في القاع عند السياج».

«انتظر قليلا وسنجتازه معا».

«لا، اذهب أنت أولا. أود أن أراك تجتاز المُنَخَفَضات».

جـــاء نك آدمز وتجاوز جورج، وبقايا الثلج لا تزال تتناثر على منكبيه العريضين وشعره الأشقر. بدأت زحلوفتاه تنزلقان بمحاذاة الجرف، ثم انقض منحدِرا وبلورات الثلج الناعمة تطقطق تحته، وبـــدا كأنه يطفو ويغوص في المُنَخَفَضـــات المتلاطمة. ظل يلتزم اليســـار، ولما اقترب من الســـياج عند النهاية ضمَّ رُكبتَيْه بإحكام ثم استدار بجسده كأنه يشدُّ لولبا، وهكذا عطف زحلوفتيه نحو اليمين بشـــكل حاد، فرشقتْه ســـحابةٌ من الثلج، وتوقف بموازاة منحدر التل والسياج المعدني.

شَخَصَ بناظريه إلى التل، فرأى جورج ينحدر وهو يتخذ وضعية تِلَمارْك(١١٣) جاثيا: ســـاقٌ ممدودة نحو الأمام ومحنيّة، وساقٌ نحو

(١١٣) وضعيـــة تِلَمارْك هي انعطاف يقوم به المتزلج وذلك بتقديم زحلوفة على الأخرى، وشـــيئا فشيئا يبدأ بعطف رأس الزحلوفة الأمامية نحو الداخل وبالاتجاه الذي يريده [المترجم].

الوراء، وعكازاه يتدليان وراءه كساقيّ حشرةٍ رفيعتين، ثم يرتطمان بالأرض فَتُثيران زوابعَ من الثلج. وأخيرا، انعطفت هيئته الجاثية الزاحفة نحو اليمين انعطافا جميلا، وساقاه مُصَوَّبتان نحو الأمام والخلف، وجسده يميل بعكس اتجاه الانعطاف، وعكازاه يزيدان الانعطاف بروزا كأنهما علامات مضيئة. حدث كل هذا وسط سحابة هائجة من الثلج.

«لقد كنتُ خائفا»، قال جورج. «لقد كان الثلج عميقا جدا. لكنك كنت رائعا».

«لا أستطيع أن أنعطف انعطافَ تِلَمارك بساقي».

أخفض نك جديلة السياج المعدني العليا بزحلوفته، فقفز جورج إلى الجهة الأخرى ثم تبعه نك. شقّا طريقهما عبر غابة صنوبر، ورُكَبُهما محنية. صار الطريق جليدا صقيلا، ملطخا باللون البرتقالي والأصفر الشبيه بلون التبغ من جرّاء نقل الأخشاب. سار المتزلجان على الشريط الثلجي المحاذي للطريق. انحدر الطريق بشكل حاد نحو جدول ثم صعد تلاً بشكل مستقيم. بدا لهما من بين الأشجار مبنى طويل، منخفضُ الأفاريز، ومهترئٌ بسبب العوامل الجوية. كان لونه الأصفر يبدو باهتا من بين الأشجار. ولما اقتربا شاهدا إطارات نوافذه مطلية باللون الأخضر، وكان الطلاء متفسخا. نقر نك مَلازم زحلوفتيه بأحد العكازين، ثم رفسهما بعيدا عنه.

«يجدر بنا أن نحمل عدتنا من هذه النقطة»، قال نك.

صعد نك الطريق الشاهق حاملا زحلوفتيه على كتفه، وضاربا كعبيه المُسَمَّرَيْن في الجليد. سمع جورج يلهث ويضرب كعبيه في

الجليد على إثره. رَكَنا عدة التزلج بجانب الفندق الصغير، وبعد أن نفض كلٌّ منهما الثلج عن ملابس الآخر، وعن جزمته، دخلا الفندق.

كان الظلام يخيم في الداخل، ومدفأةٌ كبيرة من البورسلين تضيء في زاوية الغرفة. كان السقف خفيضا. وهناك مقاعد ملساء وطاولات داكنة ملطخة ببقع المشروب تحيط بالغرف من كل جانب. كان سويسريان يدخنان الغليون قرب المدفأة وأمامهما زجاجتان من مشروب قاتم جديد. خلع الغلامان سترتيهما وجلسا عند الحائط على الطرف الآخر من المدفأة. توقف صوتٌ عن الغناء في الغرفة المجاورة، ثم خرجت فتاةٌ ترتدي مئزرا أزرق لتسألهما ماذا يشربان.

«زجاجة سيون»، قال نك. «ما رأيك، يا جِج؟».

«لا بأس»، قال جورج. «أنت تفهم في المشروبات أكثر مني. وأنا أشرب كل الأنواع».

خرجت الفتاة.

«ليس في الدنيا ما يضاهي التزلج على الثلج، أليس كذلك؟» قال نك. «ما أروع ذلك الإحساس عندما تهبط منحدَرا طويلا».

«هه»، قال جورج. «إن روعته تفوق الوصف».

أحضرت الفتاة المشروب، فلم ينجح نك في فتح السدادة الفلّينية إلا بعد جهد. خرجت الفتاة ثم راحت تغني بالألمانية في الغرفة المجاورة.

«لا تُبالِ بذرّات الفلّين في الزجاجة»، قال نك.

«تُرى، هل لديها كيك؟».

«سوف نرى».

عادت الفتاة ولاحظ نك أن مئزرها يغطي بطنها المتورِّم. فتساءل في نفسه: تُرى، لماذا لم أنتبه إلى ذلك عندما رأيتها أول مرة؟

«ماذا كنتِ تغنّين؟» سألها.

«أوبرا، أوبرا ألمانية». لم تكن راغبة في مناقشة الموضوع. «لدينا شترودل بالتفاح إن كنتما تودّان ذلك»(١١٤).

«إنها غير ودودة، أليس كذلك؟» قال جورج.

«لا بأس، فهي لا تعرفنا وربما ظنت أننا سنسخر من غنائها. قد تكون من المناطق الناطقة بالألمانية، ووجودها هنا يجعلها مفرطة الحساسية، فضلا عما يسببه حَمْلُها من غير زواج».

«وكيف عرفتَ أنها غير متزوجة؟».

«لا يوجد خاتم، ثم إن الفتيات في هذه النواحي لا يتزوجن ما لم يحبلن».

انفتح الباب ودخلت عصابة من الحطابين يقرعون الأرض بأحذيتهم ويملأون الغرفة بخارا. أحضرت لهم النادلة ثلاثة ليترات من المشروب الجديد، فتحلقوا حول الطاولتين يدخنون بصمت ورؤوسهم حاسرة، يتكئون إما على الجدار خلفهم وإما على الطاولة أمامهم. وكانت الخيول في الخارج تهز رؤوسها بين الفينة والأخرى عند مطارق الخشب، فتصدر أجراسها أصواتا تَخِزُ الآذان.

شعر جورج ونك بالسعادة، وكان كلٌّ منهما مولعا بالآخر، وكانا يعلمان أن عليهما أن يعودا إلى بلدهما.

---

(١١٤) الشترودل: نوع من المعجّنات الألمانية تحوي عادة الفاكهة أو الجبن [المترجم].

«متى يجب أن تعود إلى المدرسة؟»[١١٥].

«الليلة»، قال جورج. «عليَّ أن آخذ قطار العاشرة وأربعين دقيقة من مونترو»[١١٦].

«ليتك تبقى لنذهب إلى دان دو لِيس غدا»[١١٧].

«لكن عليَّ أن أتعلم»، قال جورج. «يا إلهي، ألا تتمنى يا مايك لو لم نفعل شيئا سوى التسكع معا؟ نأخذ زحلوفاتنا ونركب القطار إلى حيث أماكن التزلج الجيدة، ثم نقيم في الحانات ثم نشق طريقنا عبر أوبرلاند وڤاليه وإنغادين[١١٨]، لا نحمل في حقائبنا سوى عدة تصليح وكنزات إضافية ومنامات، ثم لا نأبه بالمدارس وسواها؟»

«أجل، ثم نواصل طريقنا عبر الغابة السوداء والأماكن الرائعة».

«ألم تذهب لصيد السمك هناك في الصيف الماضي؟».

«أجل».

أكلا حلوى الشترودل وشربا بقية المشروب.

أسند جورج ظهره إلى الجدار وأغمض عينيه.

«دائما يجعلني المشروب أشعر هكذا»، قال.

«هل تشعر بسوء؟» سأله نك.

«بل بخير، لكن بغرابة».

---

(١١٥) كلمة مدرسة عند الأمريكان تُطلق أيضا على المعاهد والجامعات [المترجم].

(١١٦) تقع مدينة مونترو على الضفة الشمالية الشرقية لبحيرة جنيف في الجنوب الغربي من سويسرا [المترجم].

(١١٧) دان دو ليس هو اسم بلدة في منطقة جبال الألب السويسرية، ومعناه الحرفي بالفرنسية «سن الزنبق» [المترجم].

(١١٨) أوبرلاند وڤاليه وإنغادين: أسماء مناطق في الجنوب الغربي من سويسرا يرتادها عشاق التزلج [المترجم].

«أعرف ذلك»، قال نك.

«بالتأكيد»، قال جورج.

«ما رأيك في زجاجة أخرى؟» سأله نك.

«أنا شخصيا لا أستطيع».

ظلا جالســين هناك، نك يسند مرفقيه إلى الطاولة، وجورج يسند ظهره بتراخٍ إلى الجدار.

«هل ستضع هِلِن مولودها؟» سأله جورج وهو يبتعد عن الجدار ويستند إلى الطاولة.

«نعم».

«متى؟»

«في أواخر الصيف القادم».

«هل أنت سعيد؟»

«نعم. الآن».

«هل ستعود إلى الولايات المتحدة؟».

«أظن ذلك».

«هل تريد ذلك؟»

«لا».

«هل تريد هِلِن ذلك؟»

«لا».

جلس جورج صامتا، ثم نظر إلى الزجاجة الفارغة والكأسين الفارغتين، وقال:

«إنها جحيم، أليس كذلك؟»

«نعم. ليس بالضبط».

«لِمَ لا؟»

«لا أعرف»، قال نك.

«هل ستذهب معي للتزلج على الثلج في الولايات المتحدة؟» سأله جورج.

«لا أعرف»، قال نك.

«الجبال هناك ليست كما يحلو لك»، قال جورج.

«لا، فهي وعرة للغاية وكثيرة الأشجار وبعيدة جدا».

«نعم، هكذا هي الجبال في كاليفورنيا»، قال جورج.

«نعم، وكذلك في كل مكان زرته في حياتي»، قال نك.

«نعم، هكذا هي»، قال جورج.

نهض السويسريان، ودفعا الحساب، ثم خرجا.

«ليتنا كنا سويسريين»، قال جورج.

«فجميعهم يعانون تضخما في الغدة الدرقية»، قال نك.

«أنا لا أصدق هذا»، قال جورج.

«ولا أنا»، قال نك.

ضحكا.

«قد لا نتزلج على الثلج مرة أخرى في حياتنا، يا نك»، قال جورج.

«بل يجب أن نتزلج»، قال نك. «فلا قيمة للحياة إن لم نستطع ذلك».

«لا بأس، سنذهب»، قال جورج.

«بل ذلك لزامٌ علينا»، قال نك موافقا.

«ليتنا نقطع وعدا بذلك»، قال جورج.

نهض نك. حزم سترته الواقية من الريح بإحكام على نفسه. مال فوق جورج وحمل عمودَيْ التزلج عن الجدار، ثم غرز أحدهما في الأرض، وقال:

«لا فائدة من قطع الوعود».

فتحا الباب وخرجا. كان الجو باردا، وقد تجمد الثلج، فتشكلت قشرة صلبة. كان الطريق يمر بين أشجار الصنوبر عبر تل مرتفع.

أخذا عدة التزلج التي كانا قد ركناها على جدار الفندق، ولبس نك قفازيه. كان جورج قد سبقه إلى الطريق، حاملا زحلوفتيه على كتفه. لم يبق أمامهما الآن سوى رحلة خاطفة إلى الوطن.

التعريشة الثالثة عشرة

سمعتُ الطبولَ آتية من أعلى الشارع، ثم سمعتُ النايات والمزامير، ثم انعطفوا عند الزاوية، يرقصون جميعا. كان الشارع يغصُّ بهم. رآه مائيرا، ثم رأيتُه بعده. عندما أوقفوا الموسيقى ليجثموا على الأرض، جثا معهم في الشارع، وعندما بدأت الموسيقى مرة أخرى قفز واقفا وراح يرقص في الشارع معهم. كان ثملا حتى النهاية.

الْحَقْ به، قال مائيرا، فهو يكرهني.

وهكذا نزلتُ ولحقتُ بهم وأمسكتُ به بينما كان جاثيا على الأرض، ينتظر الموسيقى لتنطلق، وقلت له، هيّا بنا يا لويس، بحق الله. أنسيتَ أن لديك مصارعةَ ثيران عصر هذا اليوم؟ لم يُصْغِ إليَّ، بل كان يتحيَّن انطلاق الموسيقى على أحر من الجمر.

قلت له: لا تكن أحمق، يا لويس. عُد إلى الفندق.

ثم انطلقت الموسيقى ثانية، فقفز وأفلت مبتعدا عني وراح يرقص. أمسكتُ به من ذراعه، لكنه تملَّص مني وقال، دعني وشأني، فأنتَ لستَ أبي.

عُدتُ إلى الفندق وكان مائيرا يقف على الشرفة يستطلع إن كنتُ سأعود ومعي لويس. عاد إلى الداخل عندما رآني ثم نزل الدرج وهو يشعر بالقرف.

قلت: في الحقيقة ما هو إلا همجيٌّ مكسيكيٌّ جاهل.

نعم، قال مائيرا، لكن مَنْ الذي سيقتل ثيرانه إذا بَقَره الثور؟

أظن أن لا أحد سوانا، قلت له.

نعـــم، لا أحد ســـوانا، قال مائيرا. فنحن نقتـــل ثيران الهَمَج، وأصحاب اللهو، وراقصي الرِّياو رِياو[119]. نعم، نحن نقتلها، نحن نقتلها بالتأكيد. نعم، نعم، نعم.

(١١٩) كانت رقصة رياو رياو تقام سنويا في مدينة بامپْلونا في الشمال الشرقي من إسبانيا في السـادس من يوليو ضمن احتفالات البلدة بأعياد القديس ســان فيرمن. يتجمع الراقصون أمام مبنى البلدية وذلك لمنع المســؤولين المحليين من التوجه إلى الكنيســة المجاورة للمشاركة في هذه الاحتفالات، وقد توقفت هذه الطقوس الراقصة بعد العام ١٩٩٠ بسبب التدافع الكبير الذي خرج عن سيطرة الشرطة [المترجم].

والدي
[١٩٢٥]

عندما أنظر إلى الأمر من زاوية اللحظة الحاضرة، أرى أن والدي كان مُقدَّرا له أن يكون رجلا بدينا لا يختلف عن أولئك الرجال الصغار السمان المبرومين الذين تراهم في كل مكان. لكنه بالتأكيد لم يصبح كذلك إلا قُبيل النهاية، ولم يكن ذلك تقصيرا منه، إذ لم يكن يمتطي جواده إلا فوق الحواجز، ولم تكن زيادة الوزن تضيره. أذكر كيف كان يرتدي قميصا مطاطيا فوق قميصَيّ «جيرزي» وكنزة فضفاضة كبيرة فوق هذا كله، ثم يأخذني للجري معه تحت شمس الضحى الحارة. كان أحيانا يُهرع إلى إسطبلات رازو في سيارة أجرة مباشرة بعد وصوله من تورينو في الرابعة صباحا، فيُخرِج أحد الخيول من قبيل التجريب، وعندما يعود عند بزوغ الشمس، أساعدُه على خلع حذائه المشبع بالندى، ثم ينتعل حذاء مطاطيا خفيفا ويرتدي كل هذه القمصان والكنزات ثم ننطلق.

«هيّا، يا بُنَيّ»، يقول وهو يقفز على رؤوس أصابع قدميه أمام مَلْبس الفرسان. «هيا بنا».

ثم نبدأ الجري حول الميدان مرة واحدة أحيانا، وهو في المقدمة، ثم نخرج من البوابة لنسلك إحدى الطرق الآتية من سان سيرو[١٢٠] التي تحيط بها الأشجار من كلا الجانبين. كنت أسبقه عندما نصل الطريق، وكنت أستطيع أن أجري بشكل جيد.

---

(١٢٠) تقع مدينة سان سيرو في الشمال الغربي من إيطاليا [المترجم].

وعندمــا ألتفت أراه يجري بلا عناء في إثري تماما، وبعد هنيهة ألتفــت ثانية، فأرى العرق يتصبب منه بغـــزارة، لكنه يظل يثابر في الإثر وعيناه مســلطتان على ظهــري. وعندما يلمحني أنظر إليه، يبتســم ويقول: «هل تتصبب عرقا؟» وعندما يتبسم والدي، لا يســتطيع أي إنسان إلا أن يتبســم أيضا. نظل نركض باتجاه الجبــال إلى أن يصيح فــيّ والدي، فألتفــت وأراه يجلس تحت شــجرة ويطوق رقبته بمنشفة كان يشد بها خصره قبل قليل. ثم آتي وأظل بجانبه، ثم يُخرج حبلا من جيبه ويشرع في الوثب من فوقه تحت لهيب الشــمس وفي الغبار الأبيــض والعرق يَزُخُّ من وجهه. تزداد طقطقة الحبل والشمس يزداد لهيبها وهو يضاعف مجهوده، قاطعا رقعة من الطريق ذهابا وإيابا. في الحقيقة، كنت أستمتع برؤية أبي وهو يقفز من فوق الحبل. كان إمّا يُدَوِّر الحبل بسرعة أو يُدَلّيه ببطء وبراعة. تعال وانظر كيف كان الأوباش(١٢١) ينظــرون إلينا أحيانا وهم يصادفوننا فــي طريقهم راجلين إلى البلدة يسوقون أمامهم عرباتٍ تجرها عجولٌ بيضاء. لا شك في أنهم كانوا يظنون أن أبي مجنونٌ. كان يُدوِّر الحبل بسرعة تُفَرقِع الهواء، فَيَتســمَّر هؤلاء في أمكنتهم ليراقبوه، ثم ينخزوا ثيرانهم بالمهاميز ويواصلوا مسيرهم.

عندمــا كنت أجلــس وأراه يتمــرن تحت الشــمس اللاهبة، يزداد تعلقي به. كان له حضور بهيج، وكان يُجهد نفســه في أداء تمريناتــه التي كان يُنهيها بتدوير الحبل تدويرا ســريعا منتظما يجعل العــرق يتصبب على وجهه كالماء الدافــق، ثم يعلق الحبل

(١٢١) على الرغم من أن الراوي هو الغريب في إيطاليا، فإنه يســتخدم التعبير القدحي الدارج في أمريكا wops (ويعني حرفيا بلا أوراق) عن المهاجرين غير الشرعيين [المترجم].

على الشـــجرة ويجلس معي، متَّكئا على الشجرة وهو يلفُّ رقبته بمنشفة وكنزة.

كان يقول لي: «ليس من الســـهل على عجوز مثلي أن يحافظ على رشـــاقته، يا جو. ليس الأمر كما كان أيام الشباب». ثم يتّكئ على الشـــجرة ثانية، ويغمض عينيه، ويأخذ نفسا طويلا عميقا. ثم ينهض لنتابع جَرْيَنا عائدين إلى الإسطبلات قبل أن تنخفض حرارة جسمه. هكذا كان شأنه في المحافظة على وزنه. كان دائمَ القلق. كان معظم الفرسان يكتفون بركوب الخيل، إذ إن الفارس يفقـــد كيلو غراما واحدا من وزنه كلما امتطى جواده. لكن ينابيع الجســـد كادت تنضب من والدي العجوز ولم يكن في استطاعته أن يخفف من وزنه لولا كل ذلك الجري.

أذكر ذات مرة في سان سيرو أن أحد الأوباش الصغار، يدعى ريغولي ويعمل فارســـا عنـــد بوزوني، جاء من ميـــدان التدريب ليتناول شـــيئا باردا من البار، وكان ينقر حذاءه بســـوطه بعد أن وزن نفســـه. كان أبي قد وزن نفسه من فوره أيضا، فخرج حاملا السرج تحت ذراعه، أحمرَ الوجه، منهكا، تكاد ملابسه تنفزر من ضخامة حجمه. فوقف يمعن النظر في ريغولي الواثق بنفســـه، الفتيِّ المظهرِ، الواقف عند البار الخَلَوي، فســـألته، «ما الأمـــر، يا بابا؟» لأنني ظننت أن ريغولي قد لكمه أو ما شـــابهه، لكن كل مـــا فعله هو أنه نظر إلى ريغولي، ثم أطلق مســـبَّة ضد مجهول، واتجه نحو المَلْبَس.

ربمـــا لو بقينا في ميلانو وركبنا الخيل هناك وفي تورينو[١٢٢]،

(١٢٢) تقع مدينة تورينو إلى الجنوب الغربي من مدينة ميلانو الإيطالية [المترجم].

لـــكان كل شـــيء على ما يـــرام، لأن مضمار الســـباق في هاتين المدينتين من أســـهل ما يكون. «تماما كعـــزف البيانو ميكانيكيا»، قال والدي وهو ينزل عن فرســـه في مربط الفرس الرابح، على الرغم من أن الأوباش ظنوا أنه كان ســـباقا جهنميا. سألته ذات مـــرة، فقال، «لا عناء في هذا المضمار، لكن ســـرعة الجري هي التي تجعل قفز الحواجز أمرا خطرا، يا جو. نحن لا نسرع هنا، ولا الحواجز ســـيئة أيضا. لكن الســـرعة، وليس الحواجز، هي دائما سبب المشكلة».

كان مضمار ســـان ســـيرو أروع مضمار رأيته في حياتي، لكن أبي قال إن التنقل بين ميرافيوري[١٢٣] وسان سيرو وركوب الخيل تقريبا كل يوم في الأســـبوع ثم الســـفر بالقطـــار كل ليلتين هي عيشة كلاب.

كنـــتُ مولعا إلـــى حدِّ الجنـــون بالخيول أيضا. هناك شـــيء ســـاحر في مراقبتها وهي تخرج إلى المضمار، فتتســـابق إلى أن تبلغ الســـارية. كانت تثب راقصة، مشدودةَ القوام بينما الفرسان يحاولون كبح جماحها، وقـــد يطلقون لها العنان قليلا كي تجمح لحظة قبـــل خط النهايـــة. وعندما رأيتها ذات مـــرة وهي تقف خلف الحاجز، أُصبت بشيءٍ لا يوصَف، ولاسيما في سان سيرو حيث الميدان الأخضر الكبير على مســـافة مـــن الجبال، ومُطْلِقُ إشـــارة البدء، وهو أحد الأوباش السِّمان، حاملا سوطه الكبير، والفرســـان يحركون رؤوس خيولهم ذات اليمين وذات الشـــمال، ثم يرتفع الحاجز بســـرعة ويرنُّ الجرس، ثم تنطلق الخيول كتلة

(١٢٣) تقع مدينة ميرافيوري في الشمال الغربي من إيطاليا [المترجم].

واحدة، ثم تبدأ تَتَمَطّى على شكل سلسلة. لا شك في أنك تعرف كيف تنطلق كتلةٌ من الخيول. إذا كنتَ في المنصة تراقب من خلال عدستين، فكل ما تراه هو اندفاع الخيول، ثم تسمع الجرس يرن كأنه يرن منذ ألف ســنة، ثم تنقلــب راجعة عند المنعطف. لم أرَ في حياتي شيئا كهذا.

لكن أبي قال ذات يوم وهو يرتدي ملابسه العادية في الملبس، «ليــس بين هذه الخيول فرسٌ واحدة، يا جو. لو كانت هذه الرَّكَّة الهرمـــة في باريس، لَذُبحَتْ من أجــل جلودها وحوافرها». قال ذلك يوم فــاز بالجائزة التجارية مع فرســه لانْتورْنا التي اندفع بها خارج الميدان مسافة مائة متر كأنها سدادة فلينية تنفلت من عنق زجاجة.

لقد خرجنا من إيطاليا مباشــرة بعد فوزه بالجائزة التجارية. كان أبــي يتجادل في الغالاريا(١٢٤) مــع هولبروك وأحد الأوباش الســمان، وكان هذا الأخير يلبس طاقية قش ولا يكفُّ عن مسح وجهه بمنديل. كانــوا جميعا يتحدثون الفرنســية، وكان الاثنان يطلبان أبي في شيء. في النهاية توقف أبي عن الحديث واكتفى بالجلـوس والتحديـق بهولبروك، وظـل الاثنــان يتناوبان عليه بالجدال، وكان الوبش السمين دائما يقاطع هولبروك.

«اذهب واشــتر لي جريدة «سبُورْتْسمَن»، يا جو، قال لي أبي وهو يناولني صُلْدَيْن من دون أن تفارق عيناه هولبروك(١٢٥).

وهكــذا خرجتُ من الغالاريا وسِــرْتُ حتى وقفت أمام الدرج

---

(١٢٤) الغالاريا هي صالة أو بهو أو رواق لعرض الأعمال الفنية [المترجم].
(١٢٥) يساوي الصُّلدي ٢٠/١ من الليرة الإيطالية [المترجم].

واشتريت الجريدة، وعدتُ لكنني توقفت مبتعدا عنهم قليلا، لأنني لم أكن أرغب في التطفل، وكان أبي يســـند ظهره إلى الكرســـي وينظـــر إلى قهوته أمامـــه ويعبث بملعقة، بينمـــا كان هولبروك والوبش الســـمين واقفين، وكان الأخير يمسح وجهه ويهز رأسه. اقتربت منهم، وتصرف أبي كأنهما لم يكونا موجودين، وقال لي، «ألا تريد الآيس كريم يا جـــو؟» نظر هولبروك إلى أبي الجالس وقـــال له بلهجـــة متأنية حَذِرة، «أنت دنيء»، ثم شـــق طريقه مع الوبَش السمين بين الطاولات.

ظل أبي جالســـا وارتســـمت على مُحيّاه شـــبهُ ابتســـامة لي، لكن وجهه كان شـــاحبا وبدا كأنه عليل. خِفتُ وشـــعرتُ بالغثيان لأنني كنت أعلم أن أمرا ما قد وقع، ولم أفهم كيف يســـتطيع أيٌّ كان أن ينعـــت أبي بالدناءة ويفلت مـــن العقاب. فتح أبي جريدة «سْپورْتْسْـــمَن» ثم تأمل سباقات التكافؤ(١٢٦) لحظة وقال: «عليك أن تتجـــرَّع كثيرا من المرارة في هـــذه الدنيا، يا جو». وبعد ثلاثة أيام ركبنا قطار تورين(١٢٧) قاصدين باريس، ومودّعين ميلانو إلى الأبـــد، بعد أن بِعنا كلَّ ما ثَقُل وزنـــه وكَبُرَ حجمه في مزاد علني أمام إسطبلات تيرنر.

وصلنـــا باريس في الصبـــاح الباكر ونزلنا فـــي محطة قال والدي إن اسمها «غار دو ليون». كانت باريس بلدة كبيرة مقارنة بميلانـــو. يُخَيَّل إلي أن الناس والقطـــارات في ميلانو يذهبون فـــي كل الاتجاهـــات ولا تحدث أي فوضى، بينمـــا باريس كلها

(١٢٦) سباق التكافؤ هو سباق تُقدَّم فيه بعض التنازلات للمتسابق الضعيف أو تُفرض فيه أعباءٌ إضافية على المتسابق القوي [المترجم].
(١٢٧) تورين هي ذاتها تورينو [المترجم].

مشوَّشـــة ولا أحد يُخرجُهـــا من هذا التشـــويش. لكنني بدأت أحبها، أو علـــى الأقل أحببت جزءا منها، إذ إن فيها في الواقع أفضل ميادين للســـباق في العالم. ويبـــدو كما لو كان ذلك هو سر الحركة فيها، والشيء الوحيد تقريبا الذي يمكنك أن تُعَوِّل عليـــه هو أن الحافلات تســـير يوميا، كلٌّ إلـــى وجهتها من دون إبطاء. لم يتســـنَّ لي في الواقع أن أتعرّف على باريس بشـــكل جيد، لأنني كنت آتيها من ميزون برفقة أبي مرة أو مرتين في الأســـبوع، وكان دائما يجلس مع بقية عصابة ميزون في «مقهى الســـلام» من جهـــة دار الأوبرا، وأظن أن هذا هـــو أكثر أحياء البلدة نشـــاطا. لكن أليس من الغريب أن بلدة كبيرة مثل باريس ليس فيها غالاريّا؟

على أي حال، كنا نسكن في ميزون لافيت حيث كان يسكنها كل الناس تقريبا ما عدا العصابة التي كانت تسكن في شانتيلي(١٢٨)، حيث كانت امرأةٌ اســـمها الســـيدة مايرز تدير نُزلا. تكاد ميزون تكون أروع مكان للســـكن رأيته في حياتـــي. البلدة ذاتها لم تكن بالمستوى المطلوب، لكن تحيط بها بحيرة وغابة رائعة كنت أتسكّع فيها طـــوال اليوم مع بعض الأولاد، وقد صنـــع لي والدي نَقّافة اصطدنا بها كثيرا من الأشـــياء، لكن أفضلها كان عَقْعَقا. وذات يوم اصطاد دِك آتْكِنْســـن، وهو بعد حدثٌ صغير، أرنبا فوضعناه تحت شجرة، وكنا نَجلس جميعا، وكانت لدى نِك بعض السجائر، وفجأة قفز الأرنب واندسّ بين الأشجار. طاردناه لكننا لم نجده. يا إلهي، ما أحلى العيش في ميزون! كانت المســـز مايرز تناولني

(١٢٨) ما لم أشـــر إلى غير ذلك في الهوامش، فـــإن جميع البلدات المذكورة في هذه القصة من الآن فصاعدا تشكل طوقا حول مدينة باريس [المترجم].

غدائي في الصباح، فكنت أقضي سحابة يومي خارج البيت. تعلمت الحديث بالفرنسية بسرعة. إنها لغة سهلة.

لم نكد نصل ميزون حتى بعث والدي إلى ميلانو في طلب رخصته، وظل قلقا حتى وصلت. كان يجلس في مقهى باريس في ميزون مع العصابة، وكان يعرف كثيرا من الناس الذين يسكنون في ميزون من قبل الحرب عندما كان فارسا في باريس، وكان لديه مُتَّسعٌ من الوقت لأن الفرسان ينتهون من عملهم في الإسطبلات بحلول التاسعة صباحا. كانوا يأخذون الدفعة الأولى من الخيول لتمرينها على الجري في الخامسة والنصف صباحا، ويأخذون الدفعة الثانية في الثامنة. هذا معناه أن عليهم الاستيقاظ باكرا والخلود إلى النوم باكرا أيضا. وإذا كان أحد الفرسان يعمل لمصلحة غيره، فهو لا يستطيع أن يُسرف في شرابه، لأن المدرب لا يكفُّ عن مراقبته إذا كان الفارس من الفتيان، وإن لم يكن من الفتيان فهو يراقب نفسه. لذلك إذا لم يكن لدى الفارس ما يفعله، فهو غالبا ما يجلس في مقهى باريس مع العصابة لمدة ساعتين أو ثلاث يتناولون بعض المشروبات كالڤيرموت والسِّلتزر(١٢٩) ويتجاذبون أطراف الحديث ويروون القصص أو يلعبون البلياردو وكأنهم في نادٍ أو في الغالاريا في ميلانو. لكن المقهى في الواقع لا يشبه الغالاريا لأنها تغصُّ بالناس ولا تخلو الطاولات من الروّاد.

على أي حال، حصل والدي على رخصته من غير عناء، وامتطى جواده مرتين في نواحي أميان وأعالي المروج، لكنه لم

(١٢٩) الڤيرموت نوع من أنواع الخمور الفرنسية؛ بينما السِّلتزر مشروب ألماني وهو عبارة عن ماء معدني فوّار [المترجم].

يحصـــل على أي عقد للعمل. كان الجميع يحبه، وكنتُ كلما جئت المقهـــى في الضحى وجدتُ معه شـــخصا ينادمه، لأن والدي لم يكن متشــددا كمعظم الفرسان الذين حصلوا على أول دولار لهم من مشـــاركتهم في مسابقات الفروسية في معرض سينت لويس الدولـــي العام ١٩٠٤. هذا ما كان يقوله والدي عندما كان يمازح جورج بيرنز. لكن يبدو أن الجميع تفادوا إشـــراك والدي في أيٍّ من المسابقات.

كنا نخرج يوميا إلى كل مكان يذهبون إليه بالسيارة من ميزون، وكانـــت هذه أكبر متعة لي. كنت أبتهـــج عندما تعود الخيول من دوفيل والمراعي، وإن كان هذا يعني انتهاء التســكُّع في الغابات، حيث كنا نركب إلى إنغيان أو ترمبليه أو سان كلود ونراقب الخيول من منصة المدربين والفرسان. لا شك في أنني اكتسبت معرفتي بسباق الخيول من خروجي مع تلك العصابة، وأمتع ما في الأمر أننا كنا نخرج كل يوم.

أذكر أننا خرجنا ذات مرة إلى سان كلود حيث يُقام سباق بقيمة مائتي ألف فرنك اشترك فيه سبعة متسابقين. وكان «قيصر» له كثيـــرٌ من الأنصار. ذهبتُ إلى ميـــدان التدريب لأرى الخيول مع أبـــي، فرأيت من الخيول ما لم تَـــرَهُ عينٌ قط. كان «قيصر» هذا حصانا أصفر كبيرا. وكأنه لم يُخلَق إلا للســـباق. لم أشاهد في حياتـــي حصانا مثله. كان أحدهم يقوده ويطوف به حول ميادين التدريب، وكان يطأطئ رأسه وعندما مرّ بجانبي شعرت بالخواء يغزو كياني من الداخل من شدة روعته وجماله. لم يكن في الدنيا حصان بروعته ورشاقته وطِراده. كان يجوب الميدان بخفة وهدوء

وأناة، وكان ينســـاب كأنه يعرف ما عليه، فلا ينخع ولا يقف على قائمتيـــه الخلفيتين ولا يهتاج كخيـــول العَرْض التي تُعطى جرعة مقوية[١٢٠]. كان حضور الجمهور كثيفا، فلم أر سوى أرجله وبعض الاصفرار. ثم شقَّ والدي طريقه بين الحشود، فتبعتُه إلى ملبَس الفرسان بين الأشجار، وكان هناك حشد كبير أيضا، لكن البوّاب ذا القبعة المســتديرة أومأ برأسه لأبي فدخلنا، وكان الجميع إما يجلســـون أو ينتعلون أحذيتهم، وكان الجو يعبق بالحرارة والعرق وزيـــوت التدليك، وكان الجمهور في الخارج يراقب ما يجري في الملبس.

ذهـــب والدي وجلس بجانب جـــورج غاردنر الذي كان يرتدي بنطاله، فسأله عن الأخبار بنبرة عادية لأنه لا فائدة من محاولة جس نبضه، فجورج إما أن يخبره أو لا يخبره.

«لن يفوز»، يقول جورج بصوت خفيض، وهو ينحني ويزرّ كفل بنطاله.

«من ســـيفوز؟» يســـأله والدي وهو ينحنـــي مقتربا منه لكيلا يسمعهما أحد.

«كيركيوبِن»، يقول جورج، «وإن فعل، فاحْتَفِظْ لي ببطاقتين».

يقول والدي شـــيئا ما بصوت عـــادي لجورج، فيقول له جورج وكأنه يمزح: «إيّاك أن تراهن على شـــيء أقوله لك». ثم شـــققنا طريقنا بين الحشـــود التـــي كانت تتفرج، متجهـــين نحو صرّافة الرهانات. لكنني كنت أعلم أن حدثا كبيرا ســـيقع لأن جورج هو فارس قيصر. في طريقه يأخذ إحدى أوراق الأرجحية الصفراء

---

(١٢٠) خيـــول العَـــرْض: خيول تشـــترك في ســـباق عَـــرْض بقصد بيعهـــا لدى انتهاء الســـباق [المترجم].

المدونة عليها الأسعار المبدئية، فإذا بقيصر لا يحصل إلا على نسبة ٥ إلى ١٠، يليه سِفيزيدوت بنسبة ١ إلى ٣، بينما كيركيوبين هذا يحتل المرتبة الخامسة في القائمة بنسبة ١ إلى ٨، يراهن أبي بمبلغ خمسة آلاف على كيركيوبين ثم يراهن بألف على فوزه، ثم التففنا من خلف المنصة الكبرى كي نصعد الدرج ونحصل على مكان نراقب منه السباق.

لقد حُشِرنا حشرا. خرج في البداية رجلٌ يرتدي معطفا طويلا وقبعة رمادية طويلة ويحمل بيده سوطا مثنيا، ثم تلته الجياد واحدا إثر واحد، وكان الفرسان على صهواتها، ويمسك بلجاماتها صبيٌّ من الإسطبل. ثم خرج قيصر، ذلك الحصان الأصفر الكبير أولا. لا يبدو كبيرا عندما تراه لأول مرة حتى ترى طول ساقيه وقوامه وكيف يسير. يا إلهي، لم أشاهد في حياتي حصانا كهذا. كان يمتطيه جورج غاردنر، وكان الفرسان يسيرون ببطء خلف العجوز ذي القبعة الرمادية الطويلة، وكان يمشي كأنه مدير حلبة في سيرك. وكان يسير خلف قيصر حصانٌ أسود بهي المنظر ذو رأس جميل، وعلى صهوته تومي آرتشيبالد، ثم تلا الحصانَ الأسودَ موكبٌ من خمسة جياد أخرى كانت تسير على شكل نسق متهادية أمام المنصة الكبرى والميزان. أخبرني أبي أن الحصان الأسود هو كيركيوبين، فتأملتُه جيدا، وكان بلا منازع حصانا رائع المنظر، لكنه لا يداني قيصر في شيء.

كان الجميع يصفِّق لقيصر عندما مرَّ بجانبهم، وكان بالفعل حصانا رائع المنظر بلا منازع. طاف موكبُ الخيول حول المرج ثم عادت تقترب من نهاية المضمار. عندئذ أمر مدير السيرك

غِلمان الإسطبل أن يطلقوها الواحد تلو الآخر كي تتمكن الخيول مــن العَدْوِ أمام المنصة فــي طريقها إلى نقطــة الانطلاق وكي يتمكن الجميع من إلقاء نظرة إليها. ولم تكد تبلغ نقطةَ الانطلاق حتى رنّ الجرس وانطلقــت في المضمار دفعة واحدة كأنها دمى صغيرة في سرعتها الابتدائية. كنت أراقبها من العدستين، وكان قيصر يتخلّف كثيرا بينما كان حصان كُمَيْت يتقدم عليها جميعا وبقية الخيول المتســابقة تحاول اللحاق بــه. ابتعدت الخيول ثم عــادت تضرب الأرض ضربا، وظلّ قيصــر متأخرا جدا عندما مــرت الخيول من أمامنا، بينما كان كيركيوبين يتقدم على البقية وينطلق برشاقة. ينتابك شعورٌ رهيب عندما تمر من أمامك وأنت تراقبها وهي تبتعد فيتضاءل حجمها شيئا فشيئا حتى تتكوّر عند المنعطف، فتُقفِل راجعة باتجاه حلبة السباق، عندها تشعر برغبة عارمة في الشــتم والســباب. وأخيرا تجاوزتْ المنعطف الأخير، فراحت تعدو ضمن الجزء المســتقيم من الحلبة، وكان كيركيوبين يتقدمها بمسافة بعيدة. كان الاستغراب باديا على وجوه الجميع، وكانوا يرددون اســم قيصر بشيء من الاستهجان، وكانت سنابك الخيل تدكُّ الأرض دكّا، وهي تقترب من الحلبة. فجأة رأيت من خلال عدستَيَّ شــيئا يخرج من بين المجموعة كأنه شعاعٌ أصفر لــه رأس حصان، وراح الجميع يهتفون باســم قيصر كأن مسّــا قد أصابهم. كان قيصر يعدو بســرعة لم أشــهدها في حياتي، ويقترب مــن كيركيوبين الذي كان ينطلق بأقصى ما يســتطيعه حصانٌ أســود، وكان الفارس يُلهِب جسده بسوطه ومِنْخَسه حتى ســارا عنقا لعنق طرفةَ عين، لكن قيصر، بوثباته الطويلة وعنقه

المدود، بدا كأنه يعدو بسرعة مضاعفة. لكنهما تجاوزا خط النهاية في تلك اللحظة بالذات وعندما أُعلنت النتائج صعد الرقم اثنان في المركز الأول، وهذا معناه أن كيركيوبين هو الذي فاز.

كنت أرتجف من الداخل وأشعر بشيء غريب يهز كياني، ثم حُشِرنا جميعا مع الناس الذين يهبطون الدرج لنقف أمام المنصة حيث سيعلنون كم ربح كيركيوبين. بصراحة، لقد أنساني السباق كم راهن أبي على كيركيوبين. كم كنت أتلهَّف أن أرى قيصر وهو يفوز، لكنْ قُضي الأمر الآن وسُرِرنا أننا راهنا على حصان فائز.

«ألم يكن سباقا رائعا، يا بابا؟» قلت له.

نظر إلي بشيء من الاستغراب، وقبعته المستديرة تتدلى على رأسه من الخلف. «جورج غاردنر فارسٌ لا يُشقُّ له غبار، ولو لم يكن فارسا عظيما لما تغلَّب على قيصر»، قال أبي.

كنت أعلم بالطبع أن في الأمر شيئا غريبا، لكن عندما صرَّح به أبي جرَّده من المتعة، فلم أستطع أبدا أن أستعيد هذه المتعة ثانية حتى عندما أعلنوا الأرقام على المنصة، وجاء دور توزيع الجوائز وفاز كيركيوبين بمبلغ ٦٧,٥٠ إلى ١٠، كان الجميع يرددون، «مسكينٌ قيصر! مسكينٌ قيصر!» خطر لي خاطر: لو كنت فارسا لامتطيتُه بدلا من ذلك النذل. ومن الغريب أن يخطر لي أن جورج غاردنر نذل، إذ كنت دائما لا أُكِنُّ له إلا المحبة، فضلا عن أنه أعطانا الحصان الرابح، لكنني ظللت أعتقد أنه كذلك بلا شك.

صار عند أبي مالٌ كثير بعد ذلك السباق، وراح يتردد على باريس أكثر فأكثر. فإذا كانوا يتسابقون في ترمبليه كان يطلب منهم أن يوصلوه إلى المدينة في طريق عودتهم إلى ميزون، وكنت أجلس معه أمام مقهى السلام وأشاهد الناس يمرون من أمامنا، وكان الجلوس في هذا المقهى أمرا غريبا، إذ كانت أفواج من الناس تمر من أمامك، فيأتيك كل من هب ودب ويحاول أن يبيعك شيئا، وكنت أحب أن أجلس مع أبي هناك. كان هذا أمتع وقت نقضيه معا. كان بعضهم يأتي لبيع أرانب غريبة تقفز إذا ضغطت على زر كهربائي، وكان أبي يمازحهم. كان يتحدث الفرنسية كأنه يتحدث الإنجليزية، وكان هؤلاء يعرفونه، إذ كان الفارس أشهر من عَلَم، ثم إننا كنا نجلس على الطاولة نفسها وقد اعتادوا رؤيتنا هناك. كان هناك كثير من الشباب يبيعون إعلانات الزواج وفتيات يبعن بيضا مطاطيا، فإذا ما ضغطت واحدة منها، خرج منها ديك. وكان هناك عجوز يشبه الدودة يبيع بطاقات بريدية عن باريس. كان يُريها للجميع فلا يشتريها أحد، لكنه كان يعود فيريهم الوجه الآخر لهذه البطاقات، فإذا بها بطاقات فاحشة، فيتهافت كثيرون على شرائها.

يا إلهي، كم أذكر أيضا الناس الغرباء الذين كنا نصادفهم. فتيات يبحثن عن شخص في المساء يدعوهن إلى العشاء، وكن يتحدثن إلى أبي الذي كان يمازحهن بالفرنسية، فكن يداعبن رأسي ويمضين في طريقهن. وفي إحدى المرات كانت امرأة أمريكية تجلس مع ابنتها الصغيرة على الطاولة المجاورة وكانتا تأكلان الآيس كريم. رحت أتطلع إلى الفتاة الفاتنة. ابتسمتُ

لها فابتسـمت لـي، وكان هذا كل ما في الأمـر، إذ بقيت أبحث عنها وعن أمها يوميا، وأختلق السبل للتحدث إليها، وأتساءل إن كانت أمها ستسـمح لي بمرافقتها إلى أوتُوي أم ترمبليه، لكنني لم أشـاهدهما ثانية. على أي حال، حصل خير، إذ كنت أظن أن الوسيلة الأمثل لمفاتحتها بالكلام هي، «عفوا، أعتقد أنه بإمكاني أن أدلكمـا علـى الحصان الرابح في أنغيـان اليوم». ربما كانت سـتظن أنني مجرد جاسـوس يتنسَّـم الأخبار بدلا من شخص يحاول حقا أن يدلهما على الحصان الرابح.

كنت أجلس مع أبي في مقهى السـلام، وتشـاجرنا شـجارا طويـلا مع النادل لأن أبي شـرب ما قيمته خمسـة فرنكات من المشروب، ما يترتب عليه أن يدفع للنادل إكرامية جيدة. كان أبي يشرب بنهم لم أعهده فيه من قبل، لكنه الآن اعتزل ركوب الخيل، وشُرب المشًـروب يخفف الوزن، وفق زعمه. لكن وزنه كان يزداد علـى نحوٍ لا تخطئه عيني. لقد هجر شِـلَّته القديمة في ميزون واكتفى بالجلـوس معي في مقاهي الأرصفة. لكنه كان يخسـر ماله كل يوم في ميدان السباق. كان يحزن بعد آخر سباق، أو إذا خسر في ذلٰك اليوم، ويظل هكذا إلى أن نبلغ مائدتنا ويتناول أول كأس من المشروب، عندها يعتدل مزاجه.

كان يقرأ جريدة «باري سـبور» ثم يتطلع إلي ويسـألني، «أين فَتاتك، يا جـو؟» كان يفعل ذلك من باب الممازحة، لأنني أخبرته عن الفتاة التي جلست بجانبنا في ذلك اليوم. كنت أحمَرُّ خجلا، لكنني كنت أستمتع بممازحته لي عنها، إذ كنت أمتلئ زهوا. وكان يقول لي، «لا تكفَّ عن البحث عنها، يا جو، لأنها ستعود».

كان يسألني عن بعض الأمور، وكانت بعض إجاباتي تُضحكه. ثم يشـرع في الحديث عن بعض الأشـياء: عن ركوب الخيل في مصر، أو في سـان موريتس[١٣١] علـى الجليد قبل موت أمي، أو عن السـباقات الدورية التي كانـوا يعقدونها خلال الحرب في جنوبي فرنسـا بـلا مقابل مادي، أو عن الرهانات أو الحشـود أو أي شـيء يحافظ على لياقة الخيول، أو عن سـباقات دورية أو فرسـان يرهقون خيولهـم ويكِدّونها. يا إلهي، كنت لا أملُّ من سماع والدي وهو يتحدث، لا سيما عندما يتناول كأسا أو كأسين من الشـراب. كان يحدّثني عن صباه في كِنتكي[١٣٢] وعن ذهابه لاصطيـاد الراكون[١٣٣]، وعن أيامه الخوالي في الولايات المتحدة قبل أن تتدهور الأوضاع هناك. كان يقول لي: «إذا كسـبنا رهانا محترما، ستعود إلى الولايات المتحدة وتذهب إلى المدرسة».

«لماذا أذهب إلى المدرسة إذا كانت الأوضاع هناك متدهورة؟» كنت أسأله.

«لقد اختلف الأمر الآن»، كان يقول لي، ثم ينادي النادل ليدفع الحساب، ثم نستقل سيارة أجرة إلى محطة غار سان لازار، ومن هناك نركب القطار إلى ميزون.

وذات يـوم حضرنا سـباقا للخيول عبر الحقـول في أُوتُوي، فاشـترى أبيَ الحصان الفائز بمبلـغ ثلاثين ألف فرنك. اضطر أبـي إلـى أن يزايد قليلا، لكن الإسـطبل باع الحصـان أخيرا، وحصل أبي على رخصته ولباسـه الملون خلال أسـبوع. يا إلهي،

(١٣١) تقع مدينة سان موريتس (أو موريس) في الجنوب الغربي من سويسرا [المترجم].
(١٣٢) كِنتَكي: ولاية أمريكية [المترجم].
(١٣٣) الراكون: حيوان ثديي لاحم يعيش في أمريكا الشمالية [المترجم].

كم شعرت بالاعتزاز عندما أصبح والدي يملك حصانا. اتفق مع تشـــارلز دريك على إيواء الحصان في إســـطبله، وبعد أن انقطع عن التردد على باريس، راح يتدرب مرة أخرى، ولم يكن في شلة الإســـطبل أحدٌ سوانا. كان اســـم حصاننا غِلْفورد، وهو حصانٌ إيرلندي يقفز قفزا رائعا. كان أبي يعتقد أنه لو قام هو شخصيا بتدريب الحصان، فإن ذلك ســـيكون اســـتثمارا جيدا. كنت أعتز بكل شـــيء، وكنت أعتقد أن غلفـــورد يضاهي قيصر تماما. كان كُمَيتا ووثابا ممتازا وعدّاء ســـريعا في الأرض السهلة، إن أردت منه ذلك، كما كان بَهَيَّ المنظر أيضا.

يا إلهي، كم كنت مولعا به. في أول ســـباق له، وكان أبي على صهوته، حلَّ ثالثا في ســـباق الحواجز بطول ألفين وخمســـمائة متـــر، وعندما ترجَّل أبي عن صهوته في مربط الخيل وراح ليزن نفســـه، وكان يتصبَّب عرقا ومزهـــوّا، كنت أعتزُّ به كأن ذلك كان أول فوزٍ له. أنت تعلم أنه عندما يمضي زمن طويل لا يتدرب فيه الفارس، فإنك لا تســـتطيع أن تصدِّق أنـــه يعرف ركوب الخيل. أمـــا الآن فقـــد اختلف الأمر كلية، لأن أبي لـــم يكن يكترث حتى للسباقات الكبرى في ميلانو. لم تكن تهتز له جارحةٌ حتى عندما يفوز. أمَا وقد اختلف الأمر الآن، فلم أعد قادرا على النوم عشية الســـباق إلا بشِقِّ الأنفُس. كنت أعلم أن والدي في مثل حالي من التلهُّف، وإن كان يتكتَّم على ذلك. فهناك فرق بين أن تكون فارسا تعمل لحسابك وبين أن تستأجر غيرك لهذه المهمة.

عندمـــا ركب أبي غِلفورد في المـــرة الثانية كان ذلك يوم أحدٍ ماطر في أوتوي، وكان التنافس على جائزة مارا، وهي سباق بين

الحقول على مسـافة ٤٥٠٠ متر. ولم يكـد يخرج حتى صعدتُ المنصة مستعجلا، حاملا عدسـتَيَّ الجديدتين اللتين اشتراهما لـي أبي لأراقبه وهو يمتطي غِلفورد. انطلقا عند الطرف البعيد للمضمـار، وحصلت مشـكلة عند الحاجـز. كان هناك حصانٌ بغمامتين يهتاج هياجا شـديدا، ويشبُّ على قائمتيه الخلفيتين، وقد أوقع الحاجز مرة واحدة، وكنت أرى أبي في سترته السوداء منتصبـا على صهـوة غِلفورد، ويربِّت علـى رقبته برفق، حاملا صليبا أبيض ويعتمر قبعة سـوداء. انطلق المتسـابقون في وثبة واحـدة وتواروا عن الأنظار خلف الأشـجار، وكان الجرس يقرع قرعـا مخيفا، وكانت فتحات صرّافة الرهانات تُجَلْجِل. يا إلهي، لقد كنت مُثارا إلى درجة تجعلني أخشى النظر إلى أبي والحصان، لذلك ركزت منظاري على المكان الذي سيعودان منه. وفعلا عادا، وحلّت السترة السوداء في المركز الثالث، وكانت الخيول تطير من فوق حاجز الوثب كالعصافير. ثم توارت عن الأنظار ثانية، وكانت سـنابكها تدكُّ الأرض دكّا وهي تنحدر من الرابية، وكانت الأمور تجري على خير ما يرام، والخيول تجتاز السـياج بيسر وسهولة وتبتعـد عنا كأنها كتلة واحدة. كان يُخَيَّل إليك أنك تسـتطيع أن تعبـر على ظهورها مـا دامت تنطلق بهذا التراص والسلاسـة. وعندما قفزت من فوق الحاجز المزدوج الكبير، سـقط شيء ما على الأرض. لم أعرف من هو الفارس، لكن الحصان سرعان ما نهض وراح يعدو طليقا ثم يندفع بقوة نحو المنعطف الأيسر ويتجه نحو الجزء المستقيم من الحلبة. قفزت الخيول الجدارَ الحجري ثم راحت تتزاحم نحـو الحاجز المائي الكبير أمام المنصة. رأيت

الفرســـان يُقْبِلون، فناديت على أبي عندمـــا مر من أمامي. كان يتقدم على منافســيه بمســافة تناهز طول حصان، وكان ينطلق برشاقة قرد، وكانوا يتسابقون نحو الحاجز المائي. قفزت الخيول مــن فوق ســياج الحاجز المائــي الكبير دفعة واحــدة، ثم حدث اصطدام. ابتعــد حصانان عن الحاجز وتابعا ســباقهما، بينما تكوَّمت ثلاثة أحصنة بعضها فوق بعض. بحثت عن والدي في كل مكان فلم أشاهده. نهض حصانٌ من كَبْوَتِه، وكان الفارس يمسك به من لجامه، فامتطاه وراح يعدو لعله يفوز بالمركز الثاني. نهض الحصـــان الآخر وانطلق وحيدا، مُنفلِتَ الرســن. توجّه الفارس، وهــو يترنح، نحو طرف المضمار المقابل للســياج. انقلب غلفورد على أحد جانبيه مبتعدا عن أبي، ثم نهض وراح يعدو على ثلاث أرجــل، وكان حافره الأمامي يتدلى مخلوعا. كان أبي يســتلقي على ظهره فوق العشب، وكان أحد جانبَيّ رأسه مضرجا بالدماء. نزلــتُ المنصة راكضا، فاصطدمت بحشــد من الناس. ولما بلغتُ الدرابزين أمسك بي شــرطي وأوقفني، بينما اتجه حاملا نقّالة كبيــرة نحو أبي، وفي الطرف الآخر للميدان رأيت ثلاثة أحصنة مبعثرة تخرج من بين الأشجار وتقفز من فوق الحاجز.

كان أبــي ميتا عندمـــا أحضراه، وبينما كان الطبيب يســتمع إلى قلبه بوســاطة شــيء موضوع في أذنيه، ســمعت طلقا ناريا في أقصى الميدان، فعلمت أنهم قتلوا غلفورد. اســتلقيت بجانب أبي عندما أدخلوا النقالة إلى غرفة المستشفى، وتعلقت بالنقالة وبكيت وبكيت. كان شــديد الشــحوب ومنظره مريع وهو ميت، وكان الســؤال يلح عليَّ: إذا مات أبي، فهل من الضروري أن يُقتل

غلفورد أيضا. ألا يمكن أن يشــفى حافــره؟ لا أعرف. لقد كنت أحب أبي حُبّا جما.

عندئذ دخل رجلان وربّت أحدهما على ظهري، ثم اتجه نحو والدي وألقى إليه نظرة ثم ســحب شرشــفا من السرير وغطّاه به، بينما كان الآخر يتحدث في الهاتف بالفرنســية طالبا سيارة الإســعاف لتأخذ أبي إلى ميزون. لم أستطع أن أكف عن البكاء، فجاء جورج غاردنر، وجلس بجانبي على الأرض وطوَّقني بذراعيه وقال: «هيا يا رجل، انهض ودعنا ننتظر سيارة الإسعاف».

خرجت مع جورج إلى البوابة، وكنت أحاول أن أُكَفْكِف دموعي، فمســح جورج وجهي بمنديله. كنا نقف على مسافة قريبة بينما كانــت الجماهير تخرج من البوابة. وبينما نحن ننتظر الجماهير كــي تعبر البوابة، توقف رجلان على مقربــة منا، وكان أحدهما يعد مجموعة من بطاقات الرهان المشــترك وقال: «لقد نال بَتْلَر ما يستحقه بلا زيادة أو نقصان».

«لا يهمنــي إن كان النصّاب قد نال جزاءه»، قال الآخر: «كان عليه أن يتوقع هذا الجزاء جرّاء فعلته».

«لقــد نال جزاءه كمــا قلت لك»، قال الرجــل الآخر ثم مزق مجموعة البطاقات مِزقتين.

رمقني جورج غاردنر ليرى إن كنت قد سمعت، وهو ما حدث فعلا، فقال، «لا تكترث لما قاله هذان الصعلوكان يا جو، لقد كان والدك رجلا رائعا».

لكني لا أعرف. يبدو أنه عندما تبدأ الألســنة بالثرثرة، فهي لا تترك لامرئٍ سِترا إلا هَتَكَتْه.

التعريشة الرابعة عشرة

رقد مائيرا بلا حِراك، رأسه بين ذراعيه، ووجهه في الرمال. كان النزيف يعطيه إحساسا بالدفء والدَّبق. كان يشعر بقرن الثور كلما انغرز فيه. لكن الثور كان يكتفي أحيانا بنطحه فقط. في إحدى المرات شعر بالقرن وهو يخترقه وينفذ إلى الرمل. أمسك أحدهم بالثور من ذيله. ظلوا يشتمون الثور ويلوحون له بالإزار أمام وجهه حتى ابتعد. حمل بعض الرجال مائيرا وراحوا يركضون به باتجاه الحواجز عبر البوابة، فخرجوا من الممر والتفوا من تحت المنصة الكبرى يقصدون المستوصف. ألقوا بمائير على سرير وخرج أحدهم لاستدعاء الطبيب. جاء الطبيب راكضا من الزريبة التي كان يخيط فيها جروح خيول البيكادورات. كان عليه أن يتوقف ويغسل يديه. كان الصراخ على أشُدِّه في المنصة الكبرى الواقعة فوق المستوصف. شعر مائيرا بأن الأشياء تكبر شيئا فشيئا ثم تصغر شيئا فشيئا. ثم راحت تكبر وتكبر وتكبر ثم تصغر فتصغر. ثم بدأ كل شيء يتسارع كأنه شريط سينمائي مُتسارِع. ثم مات.

نهر كبير له قلبان
الجزء الأول
[١٩٢٥]

راح القطار ينســاب على سكة الحديد صعودا ويتوارى خلف واحــدة من الهضاب المحروقة أشــجارُها. جلس نِك على حُزمة القنّب والشراشــف التي رماها العامل من بــاب عــربة الأمتــعة. لا أثر للبلدة، لا شــيء ســوى ســكة الحديد ومرج محروق. لم يبقَ أثرٌ للمقاهي الثلاثة عشــر التي كانت تتراصفً على الشارع الوحيد في بلدة ســيني[١٣٤]. كانت أساسات فندق مانْشِن هاوس ناتئة فوق الأرض. لم يبق من بلدة سيني سوى حجارةٍ فَتَّتَتْها النار التي أحرقت حتى وجه الأرض.

نظر نك إلى الجانب المحروق من سفح الهضبة، حيث كان يأمل أن يرى بيوت البلدة المبعثرة، ثم ســار على ســكة الحديد وهبط إلى الجسر فوق النهر. كان النهر في مكانه، وكانت ركائز الجسر الخشــبية تشــكل دوّامات فيه. نظر نك إلى الماء الصافي الذي أضفى عليه قاعِ النهر الحصيب لونا بُنيا، وراح يراقب أســماك الســلمون المرقّط وهي تحافظ على توازنها في التيار بوســاطة زعانفها المتذبذبة. وبينما هو يراقبها، كانت هذه الأســماك تغير وضعياتها بزوايا سريعة لتعود إلى توازنها في الماء الجارف. ظل نك يرقبها هكذا وقتا طويلا.

كان يراقب أعدادا من السلمون تناطح التيار الجارف العميق

---

(١٣٤) بلدة صغيرة تقع في شمالي ولاية مِشيغَن الأمريكية [المترجم].

بأنوفها، وقد بدت مشـوهة الشـكل قليلا من خلال سطح الماء البلوري المُحَدَّب الذي كان يتلاطم وينساب بيسر غير آبهٍ بمقاومة ركائز الجسر الخشبية. كانت الأسماك الكبيرة تلازم قاع النهر. لم ينتبه إليها نك في البداية. ثم رآها أسـماكا كبيرة تحاول أن تتوازن في القاع الحصيب وسط غمامةٍ من الرمل والحصى كان التيار يثيرها دفقاتٍ دفقات.

رنا نك بناظريه إلى النهر من فوق الجسر. كان يوما شديد الحر. طار طائر رفراف بعكـس اتجاه التيار[١٣٥]. لقد مضى وقت طويل منذ أن نظر نك آخر مرة إلى نهرٍ يغصُّ بأسـماك السـلمون المرقط، فكانت هـذه متعة للناظريـن. بينما كان الرفراف يسحب ظله فوق الماء، انطلقت سمكة سلمون كبيرة بعكـس التيار بزاوية طويلة، ولم يكن هناك ما يدلُّ على زاوية انطلاقها سـوى ظلها الذي تلاشى حين شقَّت السمكة سطح الماء ولَصَفت في أشـعة الشمس. وعندما اندسّت ثانية تحت السـطح بدا ظلها كأنه يستسـلم للتيار الجارف، فعادت إلى مكانها تحت الجسـر حيث انكمشت على نفسها في مواجهة التيار.

كان قلب نك ينقبض على وقع انسياب السمكة. لقد عاوده كل ذلك الشعور القديم.

التفـت ونظر إلى مجرى النهر الذي كان يمتدُّ بعيدا، حصيبَ القعـر، ضحلَ المياه، تخترقه صخور كبيرة، ثم ينعطف عند قدم جرفٍ عالٍ لِيشكِّل بركة عميقة.

---

(١٣٥) الرفراف: طائر يعيش بقرب الأنهار ويقتات بالأسـماك، ويُسمّى بالعامية «مُلاعِب ظله»، كما له تسميات أخرى مثل القِرِلّى والقاوند [المترجم].

عاد نــك أدراجه إلى حيث ترك أمتعته بين الجمرات المطفأة بجانب ســكة القطار. كان يشعر بالغبطة. ســوَّى حزام الأمتعة وشدَّ الأربطة ثم رفعها إلى ظهره. خلَّل ذراعيه بين أربطة الكتف وحاول أن يخفف العبء عن كتفيه بإمالة رأســه إلى الأمام. لكن العبء كان أكبر من طاقته. كان يحمل محفظة صنارتَيْه الجلدية في يده، وكان يُميل رأســه إلــى الأمام كي يُبقي الثقل على أعلى كتفيه، وراح يسير على الطريق الموازي لسكة القطار، تاركا البلدة المحروقــة وراءه في هجيرها، ثم انعطف حول هضبة تحيط بها من كلا الجانبين هضبة شــاهقة سفعتها النيران، ليسلك طريقا يــؤدي إلى المروج. كان يئن مــن وطأة الحِمل. كان الطريق يرتفع تدريجيــا ما جعل صعــود الهضبة عملا شــاقا. كانت عضلاته تؤلمه، وكان النهار شــديد الحرارة، لكن نك كان ســعيدا. ها قد خلَّف كل شــيء وراءه: الحاجة إلى التفكير، الحاجة إلى الكتابة، وكل الحاجات الأخرى. لقد خلَّف كل شيء وراءه.

لقــد بدت الأمور مختلفة منذ أن نزل من القطار ورمى عاملُ الأمتعة صُرَّته من باب العربة المفتوح. لقد احترقت بلدة ســيني، واحتــرق المرج، وتبدل وجهه، لكن هــذا لا يهم، إذ لم يحترق كل شــيء. كان يدرك ذلك. كان يســير على الطريق ويَتَصَبَّب عرقا تحت الشمس حتى يعبر سلسلة الهضاب التي تفصل سكة القطار عن سهول الصنوبر.

كان الطريــق في نزولٍ حينا، لكنــه دوما في صعود. تابع نك مسيره صاعدا بموازاة سفح الهضبة المحروق. وأخيرا بلغ أعلى نقطة في الطريق. اســتند إلى جذع شجرة مقطوع، وحرر نفسه

من أربطة الحُزمة. رأى أمامه ســهلا من الصنوبر يمتد على مدِّ البصر. انتهى المرج المحروق عند سلســلة الهضاب على يساره، ونهضت أمامه جزرٌ من أشــجار الصنوبر الداكنة. وعلى مسافة بعيــدة إلى اليســار رأى نك خط النهر، فراحــت عيناه تتابعانه وتلمحان ماءه يتلألأ تحت الشمس.

لم يكن أمامه ســوى سهل الصنوبر الذي يمتد حتى الهضاب الزرقــاء البعيدة التي تحــاذي مرتفعات البحيــرة العليا. كانت الهضــاب تبدو باهتة وبعيدة في وهج الهجيــر الذي يخيِّم على السهل. كانت تتلاشى إن أمعن النظر فيها، وتبرز للعيان إن ألقى إليها نظرة عابرة.

جلس نك مســتندا إلى جذع الشــجرة المقطوع الذي سفعته النيران ليدخن سيجارة. كانت صُرّته تتعادل فوق الجذع المقطوع جاهزة للحَمْل، وقد أحدث ظَهْرُه فيها تجويفا. كان يدخِّن ويتطلَّع في المرج الممتد أمامه. لم يكن في حاجة إلى إخراج خريطته لأنه كان يعرف أين هو من موقع النهر.

وبينما كان يدخن وســاقاه ممدودتان أمامه، رأى جرادة تدبُّ على الأرض، ثم تتســلق جوربه الصوفي. عندما كان يسير على الطريق شــاهد أعدادا كبيرة من الجــراد تطير من بين التراب، وكانت جميعها ســوداء. لم تكن مــن تلك الجرادات الكبيرة ذات الأجنحة الصفراء والســوداء أو الحمراء والســوداء التي تُحْدِث أغمدة أجنحتها الســوداء أزيــزا عندما تطير. بل كانت جراداتٍ عادية ذات لونٍ هُبابي أســود. تساءل نك عن أمرها وهو يسير، لكنه في الحقيقة لم يمعن التفكير. وبعد أن رأى الجرادة السوداء

تقضم جوربه الصوفي بشفتها الرباعية الاتجاه أدرك أن عيشها في الأرض المحروقة هو الذي بدّل لونها إلى الأسود. أدرك أن الحريق حدث في السنة الماضية، لكن الجراد الآن كله أسود. وتساءل في سره إلى متى ستظل كذلك.

مد يده بحذر وأمسك بالجرادة من جناحيها. قلَبَها على ظهرها وظلت أرجلها جميعا تتحرك في الهواء. نظر إلى بطنها المُمَفصلة فإذا بها سوداء أيضا، ومُتَقَزِّحة اللون حيث الظهر والرأس كانا مُعفريْن بالغبار.

«هيا، أيتها الجرادة، طيري إلى حيث شئتِ»، قال نك وهو يتحدث بصوت عالٍ لأول مرة.

قذف الجرادة في الهواء وراقبها وهي تطير مبتعدة إلى جذع شجرة متفحِّم على الجهة الأخرى للطريق.

نهض نك وأسند ظهره إلى صُرَّته التي كانت تنتصب قائمة على جذع الشجرة المقطوع، ثم خَلَّل ذراعيه في أربطتها. حمل نك صُرَّته على ظهره ووقف على حافة الهضبة مُطِلا على النهر البعيد على الجهة الأخرى للمرج، ثم راح يهبط سفح الهضبة ويبتعد عن الطريق. كان السير على الأرض يسيرا. وبعد مائتي ياردة من سفح الهضبة توقف خط الحريق، وكانت نباتات السرخس الحلو تنمو بارتفاع الكاحل، وكانت هناك كتلٌ من أشجار الصنوبر القزمة، وبعد ذلك ينبسط مرجٌ رملي طويل متموج مفعمٌ بالحياة، وكان يرتفع تارة وينخفض أخرى.

اتّخذ نك الشمس هاديا له في مسيره. كان يعلم متى عليه أن يتوجه إلى النهر، لذلك ظل يشق طريقه عبر سهل الصنوبر،

يصعـــد مرتفَعا صغيرا ليـــرى مرتفعات صغيرة أخـــرى أمامه، وعندما يرتقي مرتفعا في بعض الأحيان كانت تطالِعه في الأفق جزيرةٌ هائلة من أشـــجار الصنوبر إما على يمينه أو على يساره. كســـر بعـــض الغُصَينات من نباتات الســـرخس الحلـــو المُرقَّط، ووضعها تحت أربطة حزمته، فتكسَّرت بسبب الاحتكاك وفاحت منها رائحة ملأت رئتيه وهو يسير.

كان متعبا وأشعة الشمس تحرقه وهو يسير في سهل الصنوبر الوعـــر الذي لا ظل له. كان يعلم أن بإمكانه الآن أن ينعطف إلى اليسار كي ينفذ إلى النهر، حيث لم يكن يبعد أكثر من ميل، لكنه تابع مســـيره نحو الشـــمال كي ينفذ إلى أقصى ما يستطيع من أعلى النهر في مسيرة يوم واحد.

بينما كان يســـير رأى واحدة من أكبر جزر الصنوبر تبرز فوق الأرض المرتفعة المنبسطة التي كان يعبرها. انحدر ثم راح يصعد رويـــدا رويدا إلى رأس الجســـر، ثم انعطف واتجه نحو أشـــجار الصنوبر.

لم تكن هناك شـــجيرات صغيرة تنمو تحت أشجار الصنوبر. كانت جذوع الأشـــجار تنتصب مستقيمة أو متمايلة بعضها نحو بعض. كانت الجذوع مستقيمة وبُنيَّة من غير أغصان، حيث كانت الأغصان مرتفعة جدا. تشابكت بعض الأغصان لتصنع ظلا كثيفا على أرض الغابة البني. كانت تحيط بالأشجار فسحةٌ خاليةٌ. شعر نك بملمسها الناعم تحت قدميه وهو يخطو فوقها. كان مردُّ هذه النعومة إلى تَشَـــكُّل نسيج متشـــابكٍ من أُبر الصنوبر، وكان هذا النســـيج يمتد على مســـافةٍ أعرضَ من الأغصان العالية. كانت

الأشــجار تتطاول والأغصان ترتفع، تاركة للشمس هذه الفسحة الخالية التي كانت في يوم من الأيام تُضْفي عليها ظلالها. كانت نباتات السرخس تنمو عند حافة الغابة المترامية.

وضع نك حزمته واســتلقى في الظــل. على ظهره وتطلَّع إلى أشجار الصنوبر فوقه، فشــعر بارتياح في رقبته وظهره وأسفل ظهره. كانت الأرض تمنح ظهره شــعورا طيبا. تطلَّع إلى السماء من خلال الأغصــان وأغمض عينيه. ثم فتحهمــا وتطلَّع ثانية. كانت الريح تعصف بأعالي الأغصان. أغمض عينيه ونام.

اســتيقظ نك متصلبا متشــنجا، وكانت الشمس توشك على المغيب. كانت الحزمــة ثقيلة، فآلَمَتْهُ أربطتُهــا عندما رفعها إلى ظهــره. انحنى والحزمة على ظهره ليلتقــط محفظة الصنارات الجلدية وانطلق نحو النهر يشــق طريقه عبر وهدة الســرخس الحلو. كان يعلم أن النهر لا يبعد أكثر من ميل واحد.

انحــدر من ســفح هضبة تغطيها جذوع الأشــجار المقطوعة نحو نهــر يتدفق عند حافة المرج. كان نك ســعيدا بوصوله إلى النهــر. عَبَر المرجَ إلى منحدر التيــار، وابتلَّ بنطاله بالندى بينما كان يســير. كان طبيعيا أن يتشكل الندى بهذه السرعة والغزارة. كان النهر صامتا، ســريعا، رقراقا. قبــل أن يصعد لكي ينصب خيمته على أرض مرتفعة، نظر نك من حافة المرج إلى النهر لكي يرى أسماك الســلمون وهي تصعد إلى السطح. كانت الأسماك تصعد لتبتلع الحشــرات الآتية مع غروب الشــمس من المستنقع الواقع على الطرف الآخــر للنهر. كانت تقفز من الماء لتلتقطها، وكانــت تقفز عاليا بينما هو يعبر رقعــة المرج الصغيرة المحاذية

للنهر. عندما نظر إلى النهر ثانية رأى الحشـرات وقد استقرت على سطح الماء لأن الأسماك كانت لا تنفكُّ تأكل طعامها في قاع النهر. كانت الأسماك لا تني ترتفع إلى السطح على مدِّ البصر، فتشكِّل دوائر يجرفها التيار معه فَتَخالُ أن المطر يهطل.

كانـت الأرض مرتفعة، حِراجية، رملية تطل على المرج والنهر والمسـتنقع. وضع نك حزمته ومحفظة الصنارة وراح يبحث عن أرض مستوية. كان جائعا لكنه كان يريد أن ينصب خيمته قبل أن يطبخ. وجد أرضا مستوية تماما بين شجرتي صنوبر صغيرتين. أخرج فأسا من الحزمة واجتثَّ جذرين ناتئين، فصار لديه مُتَّسعٌ من الأرض المسـتوية لينـام عليها. سـوَّى الأرض الرملية بيديه واجتث كل نباتات السـرخس الحلو مـن جذورها، ففاحت منها رائحة زكية. سوّى الأرض كي لا تظل هناك كتلٌ تحت البطانيات. وعندما أصبحت الأرض مسـتوية، مـدَّ بطانياته الثلاث. طوى واحـدة وفرشـها على الأرض ثم فـرش البطانيتـين الأخريين فوقها.

أخذ فأسـه واقتطع بها شـريحة ناصعة مما تبقّى من جذع صنوبـر، فجعل منها أوتادا طويلة ومتينـة ليثبت بها خيمته في الأرض. أخرج الخيمة من الحزمة وفرشـها على الأرض، فصغر كثيرا حجم الحزمة التي كانت تسـتند إلى شجيرة صنوبر. ربط نـك الحبل بجذع واحدة من أشـجار الصنوبر ليجعل منه رافدة أفقية للخيمة، ثم رفع الخيمة عن الأرض بالطرف الآخر للحبل، وربطه بشـجرة صنوبر أخرى. راحت الخيمة تتدلى على الحبل كأنها شرشـف قِنب على حبل غسـيل. رفـع الطرف الخلفي

لقماش القنب بوســـاطة عمود كان قد اقتطعه، ثم دق الأوتاد في الأطراف وجعل منه خيمة. شدَّ الأطراف شدّا متينا، ثم راح يدق الأوتاد في الأرض عميقا بوســـاطة الجزء المُسَــطَّح من الفأس. ظلَّ يدقها حتى غاصت أنشـــوطات الحبال في الأرض، وصارت الخيمة مشدودة كأنها جِلد طبل.

أســـدل نك على مدخل الخيمة ســـتارا من الشـــاش كي يمنع البعـــوض من الدخول. انـــدسَّ تحت مانع البعـــوض وراح يُخرِج أغراضه من الحزمة ويعلقها عند رأس السرير تحت الجزء المائل للخيمة. تســـلل الضوء إلى الخيمة عبر قماش القنب البني الذي كانـــت رائحتـــه الزكية تعبق داخل الخيمة. كان هناك شـــيءٌ من الألفة والغموض. شـــعر نك بالسعادة وهو يندسُّ داخلا الخيمة. لم يشـــعر بالتعاسة ســـحابةَ يومه ذاك. أمَا وقد أُنجِزت الأشياء الآن، فقد اختلف الأمر. كان عليه أن يقوم بهذا الأمر وقد فعله. كانت رحلة شـــاقة، وقد بلغ منه التعب مبلغـــا. لقد انتهى الأمر الآن. لقد نصب خيمته واســـتقر. لا يمكن لشـــيءٍ أن يؤثِّر فيه. هذا مكان جيد للتخييم. ها هو الآن في المكان المناســـب. ها هو فـــي بيته، حيث نجح. ها هو في بيتـــه الذي بناه بيده. وقد حان الآن وقت الطعام.

زحـــف خارجا من تحت مانع البعوض، وكان الظلام يخيم في الخارج. كان داخلُ الخيمة أكثرَ إضاءة.

توجَّه نك إلى الحزمة، وراح يبحث في أسفلها عن كيس ورقي فوجد فيه مسمارا طويلا. أمســـكه بإحكام ودقَّه برفق بوساطة الجزء المســـطح للفأس. ثم علق الحزمة على المسمار. كانت كل

مؤونته في الحزمـــة. وها هي الآن معلقةٌ بعيدا عن الأرض وفي حِرزٍ أمين.

شـــعر بالجوع. وظن أنه لم يَمُـــر عليه جوعٌ مثل هذا من قبل. فتح علبة لحم وفاصولياء وعلبة سباغيتّي وأفرغهما في مقلاة.

«يحـــق لي أن آكل مثل هذا الطعـــام ما دمتُ قد حملتُه»، قال نـــك. كان لصوته رنينٌ غريب في الغابـــة الغارقة في الظلام. ثم صمت بعدها صمتا مُطبِقا.

أشعل نارا في قطعٍ من خشب الصنوبر كان قد اقتطعها بفأسه من جذعٍ مقطوع. نصب مَشْـــبَكا معدنيا، ولكي يثبته في الأرض داســـه بجزمته على أرجله الأربع. وضع نك المقلاة على المشبك فوق اللهب. شـــعر بالجوع أكثر. بدأت الفاصولياء والســـباغيتّي تســـخنان. حركهما نك وخلط بعضهمـــا في بعض. راحت تتدفع منهما فقاعات صغيرة تشق طريقها إلى السطح بصعوبة. كانت تفوح منهما رائحة زكية. أخرج نك علبة من كَاتْشَـــب الطماطم، ثم قطع أربع شـــرائح من الخبز. راحت الفقاعات تتســـارع أكثر فأكثر الآن. جلس نك بجانب النار، ثم رفع المقلاة عن المشـــبك. سكب ما يقرب من نصف محتويات المقلاة في طبق من الصفيح. ســـالت المحتويات ببطء على الطبق. كان يعلـــم أن الطعام حارٌ. ســـكب عليه شيئا من الكاتشـــب. كان يعلم أن حرارة الفاصولياء والسباغيتي لا تزال شديدة. نظر إلى النار ثم إلى الخيمة، فقرر ألا يُفسد الأمر بحرق لسانه. لقد مضت سنون على حرمانه من أكل الموز المقلي لأنه لم يكن يطيق الانتظار حتى يبرد. كان لسانه شديد الحساسية، وكان جائعا جدا. رأى في الظلام شبه المطبق

ضبابا يرتفع من المستنقع على الضفة الأخرى للنهر. نظر إلى الخيمة مرة أخرى. كل شيء على ما يرام. ملأ ملعقة من الطبق ثم تناولها.

«يا سلام، يا سلام»، قال نك والسعادة تغمره.

أكل كل ما في الطبق قبل أن يخطر الخبز على باله. ثم أكل طبقا ثانيا بالخبز، وظل يمسحه حتى صار يلمع. لم يدخل الطعام جوفه منذ أن تناول شطيرة لحم وفنجانا من القهوة في مطعم محطة القطار في سينت إغْنَس. كانت هذه تجربة رائعة. لقد مرَّ بمثل هذا الجوع من قبل، لكنه لم يستطع إشباعه. كان بإمكانه أن ينصب خيمته منذ ساعات لو شاء ذلك، إذ إن النهر مُحاطٌ بعدة أماكن تصلح للتخييم. لكن هذا المكان مناسب.

دسَّ نك قطعتين كبيرتين من خشب الصنوبر تحت المشبك، فأجَّجت النار. لكن نسي أن يحضر ماء للقهوة، فأخرج من الحزمة دلوا من القنب قابلا للثني، ونزل الهضبة قاصدا النهر عند حافة المرج. كانت الضفة الأخرى يلفُّها ضبابٌ أبيض. شعر برطوبة العشب وبرودته عندما جثا على الضفة وغطَّس الدلو في النهر. جذب التيارُ الدلوَ بقوة وانتفخت بطنه. كان الماء باردا كالجليد. شطف نك الدلو بالماء ثم ملأه وعاد إلى خيمته. لم يكن الطقس بهذه البرودة بعيدا عن النهر.

دقَّ نك مسمارا آخر وعلَّق عليه الدلو المملوء بالماء. غطَّس ركوة القهوة وملأ نصفها ماء، ثم وضع مزيدا من رقائق الخشب تحت المشبك، فأذكى النار ووضع الركوة. لم يعد يتذكر كيف كان يصنع القهوة. تذكر جدالا مع هوبْكِنز حول صنعها، لكنه نسي

فــي أي صفٍّ وقف. قرر أن يترك الماء حتى يغلي، فتذكر عندئذٍ أن هــذه كانت طريقة هوپْكِنز. كان في يوم من الأيام يتجادل مع هوبكنز في كل شيء. فتح علبة مشمش صغيرة بينما كان ينتظر القهوة كي تغلي. كان يحب فتح العلب. أفرغ العلبة في فنجان من الصفيح. وبينما هو يراقب القهوة على النار، راح يشــرب عصير المشمش المُرَكَّز، مُحاذرا في البداية خشية الاندلاق، ثم مستغرقا في التفكير وهو يبتلع حبات المشمش.

بــدأت القهوة تغلي أمام عينيه. ارتفع غطاء الركوة، فســالت القهوة والثُّفْل على جوانبها. رفعها نك عن المشــبك. لقد انتصر لهوپْكِنز. وضع ســكرا في علبة المشــمش الفارغــة وصبَّ فيها بعــض القهوة كي تبرد. كانت القهوة شــديدة الســخونة، فتعذَّر عليه صبُّها، لذلك اســتخدم قبعته ليمســك بمقبض الركوة. لن يَــدَعَ القهوة تنتقع في الركوة أبــدا. ليس الفنجان الأول. إنه في صف هوپْكِنز حتى النهاية. إنه يســتحق ذلــك. كان رجلا جادا في شــرب القهوة. كان هوپْكِنز أكثر معــارف نك جدية. لم يكن ثقيــل الظل، بل كان رزينا. كان ذلك منذ زمن بعيد. كان هوپْكِنز يتكلم من دون أن يحرِّك شــفتيه. كان لاعبا للپولو. جنى ملايين الدولارات في تكســاس. وعندما وصلــت برقية تقول إن ينبوعه الأول الكبيــر قد ارتفع مدُّه، اقترض أجرة الســيارة ليذهب إلى شــيكاغو. كان بإمكانه أن يرسل برقية يطلب فيها أن يرسلوا له الأموال، لكن الأمر سيطول. كان عند هوپ فتاة يلقِّبونها ڤينوس الشقراء(١٢٦). لم يمانع هوپ هذا اللقب لأنها في الحقيقة لم تكن

(١٢٦) ڤينوس هي إلهة الحب والجمال عند الرومان [المترجم].

فتاته. كان هوپ يقول باعتداد إنه لن يجرؤ أحدٌ على السخرية من فتاته الحقيقية. وكان على حق. ورحل هوپكنز عندما وصلته البرقية. كان ذلك على النهر الأسود. استغرق وصول البرقية إليه ثمانية أيام. أهدى هوپكنز مسدسه الكولت عيار ٢٢ إلى نك. وأعطى الكاميرا إلى بِلْ. أعطاهما على سبيل الذكرى. وفي الصيف سيذهبون جميعا لصيد الأسماك كعادتهم. كان رأس هوپ مشغولا بالنقود. سيشتري يَخْتا وسيبحرون معا على طول الشاطئ الشمالي للبحيرة العليا(١٣٧). كان مبتهجا لكنه ظل محافظا على رزانته. توادعوا وشعروا جميعا بالحزن. لقد أفسد الحزن رحلتهم. وكان هذا آخر عهدهما بهوپكنز. حدث ذلك منذ عهد بعيد على النهر الأسود.

شرب نك القهوة على طريقة هوپكنز. كانت القهوة مُرَّة. ضحك نك. أضفى ذلك على القصة خاتمة سعيدة. بدأ النشاط يدبُّ في عقله. لكنه كان يدرك أن بإمكانه أن يثبطه لأنه متعب بما فيه الكفاية. أراق القهوة والثفل في النار. أشعل سيجارة ودخل الخيمة. خلع حذاءه وبنطاله، وهو يجلس على البطانيات، ثم حشا حذاءه داخل بنطاله، وجعل منهما وسادة، ثم اندس بين البطانيات.

كان يراقب النار عند مدخل الخيمة وهي تتأجج بفعل الريح. كانت ليلة هادئة. وكان المستنقع في غاية الهدوء. تمدَّد نك تحت البطانية بارتياح. طنَّت بعوضة بالقرب من أذنه. اعتدل نك في جلسته ثم أشعل عود ثقاب. كانت البعوضة تحطُّ على

---

(١٣٧) تقع البحيرة العليا إلى الشمال من ولايتي مِشيغن ووِسْكُونسِن، وهي تشكل حدا طبيعيا بينهما وبين كندا [المترجم].

القنب فوق رأسه. قَرَّب نك عودَ الثقاب منها بسرعة، واطمأن عندما سمع هسهســـة اللهب وهو يلتهم البعوضة. انطفأ عود الثقاب. اســتلقى ثانية تحت البطانية. انقلب على أحد جانبيه وأغمض عينيه. شعر بالنوم يزحف إليه. تَقَوقَع تحت البطانية ثم نام.

التعريشة الخامسة عشرة

شنقوا سام كاردينيلا في السادسة صباحا في دهليز سجن البلدة. كان الدهليز مرتفعا وضيقا تحيط به من كل جانبٍ طبقاتٌ من الزنزانات، وكانت جميعها مأهولة. أُحْضِر الرجال للشنق. كان خمسة من المحكومين بالشنق يَشْغَلون الزنزانات الخمس العليا، وكان ثلاثةٌ منهم من الزنوج. كان هؤلاء يرتعدون من الرعب. جلس أحد الرجلين الأبيضين على سريره وهو يضع رأسه بين يديه. بينما استلقى الآخر على سريره وهو يلف رأسه ببطانية.

خرجوا إلى المشنقة من بابٍ في الجدار. كانوا سبعة، وبينهم قسّيسان. كانوا يحملون سام كاردينيلا، الذي كان على هذه الحال منذ الرابعة صباحا.

بينما كان الوِثاقُ يُشَدُّ حول رجليه، رفعه حارسان، وكان القسيسان يهمسان في أذنيه. «كن رجلا، يا بُنَي»، قال له أحد القسيسين. وعندما رآهم يُحْضِرون غطاء لرأسه، فقد سام كاردينيلا السيطرة على مَصَرَّتِه الشرجية، فأنزله الحارسان اللذان كانا يرفعانه إلى الأرض، وقد شعرا بالقرف. «ما رأيك في كرسي، يا ولْ؟» سأل أحد الحارسين، فرد رجلٌ يعتمر قبعة مستديرة قائلا: «حبّذا لو جئت به».

كانت سِقالة المشنقة ثقيلة جدا ومبنية من خشب السنديان والفولاذ وتتحرك على مَحامِل كُروية. وعندما تراجع الجميع إليها، ظلَّ سام كاردينيلا مشدود الوثاق، ولم يبق عنده سوى القسيس الأصغر، راكعا بجانب الكرسي. وقُبيل أن يُرفَس الكرسي من تحت قدمي سام كاردينيلا، قفز القسيس متراجعا إلى السقالة.

نهر كبير له قلبان

الجزء الثاني

[١٩٢٥]

ارتفعت الشمس في الصباح وراح جو الخيمة يسخن. تسلل نك خارجا من تحت واقية البعوض المُسدلة على فم الخيمة لكي ينظر إلى الصباح. أحس برطوبة العشب على يديه وهو يخرج. تناول بنطاله وحذاءه. كانت الشمس قد ارتفعت من فورها فوق التلة. رأى المرج والنهر والمستنقع. كانت هناك أشجار البتولا في المستنقع الأخضر على الجهة الأخرى من النهر.

كان النهر صافيا، سريعا، رقراقا في الصباح الباكر. على مسافة مائتي متر تقريبا إلى اليسار كانت هناك ثلاثة زنود خشبية تتعامد مع عرض الجدول كله، وكان الماء ينساب فوقها سلسا وعميقا. وبينما كان نك يراقب، عبر مِنكٌ النهرَ على الزنود ودخل المستنقع[١٣٨]. كان نك مبتهجا. كان مبتهجا بالصباح الباكر والنهر. كان في عجلة من أمره. لكنه كان يدرك أن عليه أن يتناول طعام الإفطار. أوقد نارا صغيرة ووضع ركوة القهوة عليها.

بينما كان الماء يسخن في الركوة، أخذ زجاجة فارغة وانحدر نحو المرج. كان المرج نديّا وكان نك يريد أن يصطاد بعض الجراد ليستخدمه طُعما، وذلك قبل أن تجفف الشمسُ العشبَ. كان الجراد الجيد متوافرا بكثرة. كان يتجمع حول سوق العشب،

---

(١٣٨) المنك حيوان ثديي لاحم [المترجم].

وأحيانا يلتصق بالســاق نفســها . كان منكمشــا على نفسه من البرد والندى، ولا يقوى على القفز إلى أن يتدفأ بالشمس. راح نك يلتقط المتوســط الحجم منها ويضعها فــي الزجاجة. قَلَبَ أحــد الزنود، فوجد عدة مئات من الجــراد تحتمي تحت أحد طرفيه. كان هذا الزند مرتعــا للجراد. وضع نك في الزجاجة نحو خمســين جرادة متوسطة الحجم بنية اللون. بينما كان نك يلتقط الجرادات، كانت الأخرى تتنعم بدفء الشــمس، فراحت تتقافــز وتتطاير مبتعدة. كانت في البدايــة تطير دفعة واحدة وتظل متجمدة عندما تهبط، كأنها ميتة.

عرف نك أنه سيســتعيد حيويتــه المعهودة حالمــا ينتهي من الإفطار. لولا الندى في العشــب لاستغرق ملء زجاجة بالجراد الجيد يوما كاملا، ولاضطر نك إلى قتل كثير منها وهو يخبطها بقبعته. غســل يديه في النهر. كان قُربُه من النهر يُدْخِل البهجة إلى نفســه. ثم عاد إلــى الخيمة. لقد راح الجــراد يتقافز بين الأعشــاب متجمدا. وبعــد أن تدفّأت الجــرادات في الزجاجة بحرارة الشــمس، راحت تقفز أســرابا أسرابا. ســدَّ نك فوهة الزجاجة بقطعة من خشب الصنوبر تَحُول دون خروج الجرادات لكنها تسمح بمرور الهواء.

أعاد الزند الخشــبي إلى وضعيته الأولى، وهو على يقين بأنه ســيجد جرادا كل يوم. رَكَن نك الزجاجــة المملوءة بالجراد عند جذع شــجرة صنوبر. وبســرعة خلط كأســا من دقيق الحنطة الأســمر مع كأس من الماء وحركهما بسلاســة. وضع حفنة من القهوة في الركوة، ثم غَرفَ قليلا من الدهن من علبة وألقاها في

المقلاة الحامية فراحت تُفَرْقِع. سكب الدقيق المخفوق بالماء برفقٍ على المقلاة الحامية، فانســـاح كأنه حِممٌ بركانية والدهن يتفرقع بحدة. بدأ قرص الحنطة يشتد قوامه عند الأطراف ويتخذ لونا بنيا ويَتَقَرْمَش. بدأت فقاعات تظهر ببطءٍ على الســـطح وتترك فيـــه ثقوبا. دسَّ نك رُقاقة من خشـــب الصنوبـــر تحت القرصِ المحمَّصِ أسفله. هز المقلاة يمينا ويسارا، لكي يحرر القرص من الالتصاق. قال في نفســـه: لن أغامر بقـــذف القرص في الهواء لكي أقلبه. دسَّ رقاقة الخشب النظيفة تحت كامل القرص وقلبه على وجهه، وراحت المقلاة تفرقع.

عندمـــا انتهى نك من قلي القـــرص، دهن المقلاة مرة أخرى. اســـتخدم ما تبقى من الدقيق المخفوق، فصنع منه قرصا كبيرا آخر، وقرصا أصغر منه.

أكل نـــك قرصا كبيرا وقرصا صغيرا بعـــد أن دهنهما بزبدة التفـــاح. دهن القرص الثالث بزبدة التفـــاح ثم طواه مرتين ولفه بـــورق زيتي ثم وضعـــه في جيبه. أعاد زجاجة زبـــدة التفاح إلى الحُزمة وأخذ شريحتَي خبز من أجل الشطائر.

وجد في الحزمة بصلة كبيرة، فشـــطرها إلى نصفين ثم نزع القشرة الخارجية الرقيقة. قطَّع أحد نصفي البصلة إلى شرائح وصنع منها شـــطيرتي بصل. لف الشـــطيرتين في ورق زيتي ثم وضعهما في الجيب الآخر لقميصه الكاكي. قلَّب المقلاة ووضعها على المشـــبك، ثم شـــرب القهـــوة المُحلاّة وكان لونهـــا مائلا إلى الاصفرار بسبب الحليب المُرَكَّز. ثم أعاد ترتيب المخيم بعد ذلك. حتى صار على ما يُرام.

أخـــرج صنارته مـــن محفظتها الجلدية، ثـــم ركَّب أوصالها، وأعـــاد المحفظة إلـــى الخيمة. ركَّب البكـــرة ونَظَمَ الخيط عبر الموجِّهـــات. كان عليه أن يمســـك الخيط بكلتـــا يديه، وإلا فإنه سينزلق بسبب ثقله. كان خيطا ثقيلا مزدوجا مُسْتَدِقَّ الطَّرَف. كان نك قد اشـــتراه بثمانية دولارات منذ زمن بعيد. كان ثقيلا بحيـــث يصعب رفعه إلى الوراء في الهـــواء ثم قذفه إلى الأمام بشكل مستقيم، وكان ثقيلا ومستقيما بحيث يصعب قذف طُعم لا وزن لـــه. فتح نك صندوق الطعم المصنوع من الألمنيوم. كانتْ الطعوم منكمشـــة على ذاتها بين كمّادات القماش التي كان نك قد رطَّبَها بماء الثلاجة في القطار الذاهب إلى ســـينت إغْنَس. كانت الطعوم قد لانـــت بفضل الكمادات الرطبة، فأخذ واحدة منها ثم ربطها بوســـاطة أُنشـــوطة إلى طرف الصنارة الثقيل. وبعد ذلك ثبَّت خطافـــا على نهاية الطعم. كان خطافا صغيرا، دقيقا، مرنا.

أخـــذ نك الخطـــاف مـــن محفظة، وجلـــس والصنـــارة في حضنه. شـــدَّ على الخيط ليختبر العقدة ونابض الصنارة. أحس بالاطمئنان، وحاذر ألا يُكَلِّب الخطاف بإصبعه.

انحدر نحو النهر وهو يمسك بصنارته وزجاجة الجراد تتدلى من رقبته بوساطة سير جلدي ملفوف حول عنق الزجاجة. وكانت شبكة الصيد تتدلى من قِشاطه بوساطة خطاف. ألقى على كتفه كيسَ دقيقٍ طويلا عُقِدت كل زاوية من زواياه على شكل أذن. كان الحبل فوقَ كتفه، والكيس يخبط ساقَيْه.

شعر نك بسعادة المحترف الخرقاء الناجمة عن اعتزازه بعُدته

التي تتدلى منه. كانت زجاجة الجراد تتأرجح على صدره. وكان جيبا قميصه ينتفخان بطعام غدائه ودفتر ملاحظاته.

خاض في النهر، وكانت برودة الماء شديدة. التصق بنطاله بساقيه. أحسَّ بالحصى تحت حذائه.

كان التيار الجارف يشد ساقيه شَدّا. وكان الماء، حيث يقف، فوق ركبتيه. خاض مع التيار، وكان الحصى ينزلق تحت حذائه. نظر إلى دوّامات الماء حول ساقيه، ثم قلب الزجاجة ليُخْرِجَ جرادة.

قفزت أول جرادة من عنق الزجاجة، فجرفها التيار معه. سحبتها الدوامة عند ساق نك اليمنى، ثم طفت على السطح بعد مسافة قريبة، تسافر مع التيار. حملها التيار سريعا وهي ترفس. كانت تدور بسرعة، فتُكَدِّر سطح الماء الرقراق، لكنها اختفت. لقد التهمتها إحدى سمكات السلمون.

مدت جرادة أخرى رأسها من الزجاجة، وارتجفت قرون استشعارها. أخرجت أرجلها الأمامية استعدادا للقفز. لكن نك أمسك بها من رأسها ثم سلَّك الخطاف من تحت ذقنها ثم عبر قفصها الصدري حتى نهاية جوفها. أمسكت الجرادة الخطاف بأرجلها الأمامية، ثم بصقت عليه سائلا كعُصارة التبغ. ألقاها نك في الماء.

أمسك عصا الصنارة بيمينه، وأرخى الخيط لتجرفه الجرادة معها في التيار. وبيده اليسرى جعل الخيط ينسلخ عن البكرة بِحُرِيَّة. كان يرى مويجات التيار تحمل الجرادة بعيدا وتواريها عن الأنظار.

شـعر بالخيط ينشدُّ، فشده نحوه. ها هو صيده الأول. ودبَّت الحيـاة في عصا الصنارة التي راحـت تتأرجح الآن فوق التيار. سـحب نك الخيط بيده اليسـرى. كانت الصنارة تنحني وترتجّ بسبب اصطدام سمكة السـلمون بالتيار. لقد عرف أنها سمكة صغيرة. رفع عصا الصنارة بشـكل مستقيم في الهواء، فانحنت بسبب الشد.

لاحـظ نك أنه كلما تبدّل اتجاه خيط الصنارة في الماء، كانت سمكة السلمون الرقطاء تقذف رأسها وجسدها بعكسه.

تناول نك خيط الصنارة بيده اليسرى وسحب السمكة المنهكة القوى إلى السـطح. كان ظهرها مُرَقَّشـا يشبه لون الحصى في الماء الصافي، وكان جانبها يلتمع في الشمس. انحنى نك، وعصا الصنـارة تحت ذراعـه اليمنى. غمس يمينه في الماء، فأمسـك بالسـمكة التي لا تهدأ، ونزع الخطاف من فم السمكة وألقى بها في الماء.

جرفهـا التيـار جرفا أخـلّ بتوازنها، ثم اسـتقرت في القاع بجانـب حَجَرة. مدَّ نك يده ليلمس السـمكة، فغاصت يده حتى المرفق تحت الماء. اسـتعادت السمكة توازنها في التيار الجاري، ثم اسـتقرت على الحصى بجانب حجر. ولم تكد أنامله تمسها برفق، وكانـت ذات ملمس ناعم بارد، حتى تلاشـت في غمامةٍ انساحت على عرض قاع النهر.

إنها سمكة لا بأس بها، قال نك في سره. إنها مُتعَبة فقط.

كان قد بلَّل يده قبل أن يلامس السـمكة كي لا يتحسـس غطاؤها المخاطي الرقيق. لأنه إذا ما لامست يدٌ جافة سمكةَ

سـلمون، فإن فطرا أبيض يهاجـم المنطقة المنزوعة الحماية. قبل سـنوات عندما كان نـك يصطاد في الأنهـار المزدحمة بالصيادين، وجد أسـماك سـلمون ميتة هنا وهناك يغطيها فـروٌ فطري أبيض. لم يكن نك يحبِّذ الصيد مع الآخرين في الأنهار، لأن هؤلاء يفسدون متعة الصيد برمتها، ما لم يكونوا من طينتك.

خاض في الماء الذي كان يغطي ركبتيه مسـافة خمسـين ياردة في المياه الضحلة فوق كومة الزنود الخشـبية التي تمتد على عرض النهر. لم يضع طعما آخر في الخطاف الذي كان يحملـه في يده وهـو يخوض في الماء. كان يعلـم أن بإمكانه اصطياد أسماك السـلمون الصغيرة في المياه الضحلة، لكنه لم يكن راغبا في ذلك. أما الأسـماك الكبيرة، فلا وجود لها في المياه الضحلة في هذا الوقت من النهار.

فاجأه الماء الآن بعمقه الحاد البارد الذي يغطي فخذيه. كان أمامه فيضٌ من الماء الرقراق الذي تحتجزه الزنود الخشبية. كان الماء رقراقا داكنا، وكان المرج يطل عليه بحافته المنخفضة من اليسار، والمستنقع من اليمين.

انحنـى نك بعكـس التيار وأخرج جرادة مـن الزجاجة. نظَم الخطاف داخـل الجرادة، وبصـق عليها، طَلَبا للحظ. سـحب عـدة ياردات مـن خيط الصنارة، ثم ألقى بالجـرادة إلى الأمام في الماء الجارف الداكن. طافت باتجاه الزنود الخشـبية، بيد أن ثقل الخيط شـدها إلى الأسفل. أمسك نك عصا الصنارة بيده اليمنى، جاعلا الحبل يمر من خلال أصابعه.

أحس نك بشدٍّ على مسافة بعيدة. جذب الصنارة إليه، فاشتعلت حيوية وخطورة، وانثنت عصا الصنارة وأخذ الحبل ينشدُّ باطراد ويرتفع فوق الماء، ثم ينشد شدّا ثقيلا، خطرا، مُطَّرِدا. أحس نك أن الشَّصَّ سينفلت لو استمر الشد، لذلك أرخى الحبل.

كرَّت البكرة بصورة آلية صاخبة، والحبل يَتَخَلَّل من البكرة باندفاع سريع لم يتمكن نك من لجمه. وكان حفيف البكرة يرتفع شيئا فشيئا.

عندما برز عضد البكرة، شعر نك بأن قلبه سيتوقف من الفرح، فمال إلى الوراء بعكس التيار الذي كان يلسع فخذيه ببرودته، وكبح البكرة بإبهامه الأيسر بشدة. لم يكن من السهل أن يُدخِل إبهامه في إطار البكرة.

وبينما هو يضغط هكذا انشدَّ خيط الصنارة وتصلَّب فجأة، ثم نهضت من خلف الزنود الخشبية سمكة سلمون رقطاء هائلة. وعندما قفزت السمكة، أنزل نك مقدمة عصا الصنارة لكي يخفف من حدة الشد، لكنه سرعان ما شعر بأن الشد أصبح أكبر من أن يُطاق. لقد تحرر الطعم من الصنارة. لم يكن من الصعب على نك أن يشعر بأن خيط الصنارة فقد كل مرونته وأصبح جافا وقاسيا. ثم ارتخى.

أدار نك البكرة إلى الوراء، صاديَ الحلق، مهمومَ الفؤاد. لم يشاهد في حياته سمكة بهذا الحجم. عندما قفزت تراءى له وزنها الهائل، وقوتها التي لا تُدانى، وضخامتها. كانت بعرض سمكة سلمون عادية.

كانت يد نك ترتجف، وهو يُرجِع البكرة ببطء. كانت بهجته تفوق الحدود. أحس بغثيان غامض جعله يُؤْثِر الجلوس.

كان الخطاف قد تحرر من خطاف الصنارة، فتناوله نك بيده. وراح يفكر في سمكة السلمون القابعة في مكان ما في القاع، تحاول أن تثبِّت نفسها فوق الحصى، تحت عتمة الزنود الخشبية، والخطاف عالق في فكها. كان يعرف أن السمكة ستتمكن من قطع وتر الخطاف بأسنانها، وبعدها سيستقر الخطاف في فكها. لا بد أنها غاضبة. أي شيء بهذا الحجم سيغضب. وتلك سمكة سلمون رقطاء. لقد علق الخطاف في فكِّها تعلُّقا لا فِكاكَ منه. كأنه الصخر الأصمُّ. وهي أيضا كالصخرة الصمّاء. لقد كانت والله سمكة كبيرة. إنها والله أكبر سمكة سمعتُ بها في حياتي.

صعد نك إلى المرج، ثم توقف والماء يسُحُّ على بنطاله ويندفق من حذائه. مضى إلى الزنود الخشبية وجلس عليها. لم يكن راغبا في استعجال أحاسيسه.

حرَّك أصابع قدميه في الماء، وهو مُنتَعِلٌ حذاءه، ثم أخرج سيجارة من جيب قميصه وأشعلها. ثم ألقى بعود الثقاب في الماء الهادر تحت الزنود. ولم يكد التيار السريع يجرفه، حتى التقطته سمكة سلمون رقطاء صغيرة. ضحك نك. سيدخن سيجارته حتى النهاية.

جلس على الزنود الخشبية يدخن ويجفف نفسه تحت أشعة الشمس التي تدفئ ظهره، وكان النهر الضحل يدخل الغابة أمامه ثم ينعطف فيها. مياه ضحلة، وضوء يتلألأ، وصخور هائلة صقلتها المياه، وأشجار الأرز والبتولا البيضاء تحفُّ ضفة النهر،

والزنود الخشبية تستمد دِفئها من أشعة الشمس، صقيلة تطيب للجلوس، منزوعة اللحاء، رمادية الملمس، وشيئا فشيئا فارقته خيبة الأمل. فارقته ببطء خيبةُ الأمل التي دهمته فجأة بعد تلك الرعشة التي آلمت كتفيه. كل شيء على ما يرام الآن. ها هي عصا صنارته الآن مُلقاة على الزنود الخشبية. ربط نك خطافا جديدا إلى الطعم، ثم شد أحشاء الطعم حتى تكوَّرت على هيئة عُقدة قاسية.

جهز الطعم ثم التقط عصا صنارته وقصد الطرف الآخر للزنود ليخوض في الماء الذي لم يكن عميقا جدا هناك. تحت الزنود ووراءها كانت هناك بركة عميقة. استدار نك حول الرف الصخري الضحل القريب من شاطئ المستنقع إلى أن بلغ سرير النهر الضحل.

إلى اليسار، حيث ينتهي المرج وتبدأ الغابة، اجتُثَّت شجرة دَرْدار عظيمة من جذورها. كانت عاصفةٌ قد أطاحت بها وألقتها في الغابة، وكانت جذورها تَغُصُّ بالتراب والعشب ينمو عليها، فشكلت ضفة متينة للنهر. كان النهر يصل إلى حافة الشجرة المُجتثَّة. كان بإمكان نك أن يرى، من حيث يقف، قنواتٍ كالأخاديد شقّها جريان التيار في سرير النهر الضحل. كان السرير مُحصِبا حيث يقف، ومحصبا وصخريا وراءه، وطينيا عندما ينعطف النهر قرب جذور الشجرة، وكانت أوراق الأعشاب الخضراء تَتَسرِبُ في أخاديد الماء العميقة.

ألقى نك بعصا صنارته على كتفه ثم قذفها نحو الأمام، فانحنى خيط الصنارة وألقى بالجرادة في واحدة من القنوات العميقة

بين الأعشـــاب. عضت سمكة ســـلمون على الطعم فاجتذبها نك بالخطاف.

أمســـك نك بعصـــا الصنارة باتجـــاه الشـــجرة المجتثة، وكان يتراجع متخبطا في الماء وهو يحاول أن يُخلِّص السمكة من خطر الأعشـــاب فيوجهها إلى النهر الفســـيح، وكانت السمكة تغوص عميقا في المـــاء، فتنحني عصا الصنارة معها. كان نك يمســـك بعصـــا الصنارة التي كانت تصطدم بالتيار، حتى تمكن من جذب السمكة إليه. كانت السمكة تندفع هاربة من حين إلى آخر، لكنها كانت تعود إليـــه، وكان نابض الصنارة مِطواعا لاندفاعاتها. راح نك يسير مع التيار مُجاراة لاندفاعات السمكة. قاد السمكة نحو الشبكة وهو يرفع عصا الصنارة فوق رأسه، ثم رفع الشبكة.

تدلَّت ســـمكة السلمون ثقيلة في الشبكة، وكان ظهرها أرقط وبدا جانباها الفضيان من خلال خيوط الشبكة. نزع نك الخطاف من فمها، وكانت ثقيلة الجانبين، رائعة الملمس، بارزةَ الأسنان في الفك الأسفل، ثم دسّها، وهي تحاول التملص، في الكيس الطويل الذي كان يتدلّى من كتفيه إلى الماء.

فتح نك فم الكيس معاكســـا لجريـــان التيار حتى امتلأ. صار الكيس مُثقلا بالماء. ثم رفعه، وأسفله في النهر، فانساح الماء من جوانبه. وظلت سمكة السلمون الرقطاء الكبيرة في قعر الكيس، على قيد الحياة في الماء.

تابع نك ســـيره مع التيار. وكان الكيس يشدُّه من كتفيه ويسير أمامه، ثقيلا، غارقا في الماء بدأت الحرارة تشتد، والشمس تُلهب رقبته من الخلف.

لقد أصبح عند نك سمكة سلمون رقطاء كبيرة وجيدة. لم يكن يريــد أكثر من ذلك. أصبح النهــر الآن ضحلا وعريضا. وكانت الأشجار تحفُّ به من جانبيه. كانت أشجار الضفة اليسرى تُلقي بظلالها القصيرة على التيار في شمس الضحى. كان نك يعلم أن أسرابا من السلمون الأرقط تكمن تحت كل ظل. أما في العصر، عندما تتجه الشــمس نحو التلال، فإن الأســماك ســتنتقل إلى الظلال الباردة على الجهة الأخرى للنهر.

ستتجمع أكبر الأسماك قريبا من الضفة. بإمكانك أن تجدها أنّى شــئت في النهر الأســود. وعندما تنخفض الشمس، تنتقل جميعا إلى وســط التيار. أما قُبَيْــلَ الغروب، عندما يصبح بريقُ الشمس على الماء يُعمي الأبصار، فإنك تصادف أسماك السلمون في أي مكان في التيار. حينها يستحيل الصيد، حيث إن صفحة الماء تُعمي الأبصار، كأنها مرآة تلتمع في الشمس. طبعا بإمكانك أن تصطاد في أعالي النهر، أما في نهر كهذا أو كالنهر الأســود، فعليــك أن تخوض عكس التيار وفي مــكان عميق حيث يتكدَّس الماء من حولك. لا متعة في الصيد في أعالي النهر عندما يكون التيار هائلا كهذا.

ســار نك عبر الميــاه الضحلة وهــو يُنَقِّب عن حُفَــرٍ عميقة بمحاذاة الضفتين. كانت شــجرة زان تنتصــب قريبا من النهر، وكانت أغصانها تتدلى في الماء. كان التيار يرتدُّ تحت الأشــجار. وفي مكان كهذا تكثر أسماك السلمون الرقطاء.

لم يكن نك متحمســا للصيد في هذه الحفرة، لأنه كان واثقا بأنه سيعلق بين الأغصان.

بـــدت الحفرة عميقة. ألقى بالجـــرادة، فجرفها التيار وغاصت تحـــت الغصن المتدلي. انشــدَّ خيط الصنـــارة، فاجتذبه نك نحوه. كانت سمكة سلمون، تتخبط باهتياج، ونصفها خارج الماء بين الأوراق والأغصان. علق الخيط. شــده نك بقوة فتملصت السمكة وهربت. كرَّ البكرة إلى الوراء، وتناول الخطاف بيده، ثم سار مع التيار.

أمامه، وقريبا من الضفة اليســرى، كان هناك زند خشــبي كبير، أجوف. كان التـيار يدخـله من طـرفـه الأعلى بانسـياب، ولا يُحــدث ســوى مويجة صغيــرة تمتد بحــذاء الزند من كلا الجانبـــين. أصبح الماء يـــزداد عمقا. كان أعلـــى الزند الأجوف رماديا وجافا. وكان جزء منه في الظل.

فتـــح نك زجاجة الجرادات، وكانــت إحدى الجرادات متعلقة بالســـدادة. انتزعها نك، ثم أدخل الخطاف فيها، وألقى بها في الماء. مدَّ عصا الصنارة إلى أقصى ما يســتطيع كي يتمكن التيار مـــن حمل الجرادة إلى داخل الزنـــد الأجوف، إذا ما أخفض نك عصا الصنارة. كان هناك شـــدٌ ثقيل. اجتذب نك الصنارة نحوه. شـــعر كأن الصنـــارة علقت بالزند ذاته، لولا تلـــك الحيوية التي كانت تسري إليه عبر خيط الصنارة.

حـــاول أن يُجْبِـــر الســـمكة على الخـــروج إلى التيـــار. أتت متثاقلة.

ارتخى خيط الصنارة، فظن نك أن السمكة أفلتت منه. ثم رآها قريبة جدا منه، تهز رأســـها في التيار لعلها تتملص من الصنارة. كان فمها مغلقا كأنما بِرِتاج. كانت تتصارع مع الخطاف وســـط التيار الدافق الصافي.

نَشَطَ نك خيط الصنارة بيده اليسرى، ودفع العصا كي يشد الخيط، ثم حاول أن يستدرج السمكة نحو الشبكة، لكنها توارت عن الأنظار، وكان الخيط ينخفض في الماء ثم يرتفع. تعارك معها نك بعكس التيار، تاركا إياها تتخبط في الماء وتصارع نابض الصنارة. نقل عصا الصنارة إلى يده اليسرى، ثم استدرج السمكة المتخبطة إلى الشبكة. انتشلها من الماء، فإذا بها تشكل نصف دائرة ثقيلة في الشبكة التي كانت تقطر ماء. حررها من الخطاف وقذفها داخل الكيس.

فتح فم الكيس ونظر إلى سمكتَي السلمون الحيَّتين في الماء داخله.

راح نك يخوض في الماء المتزايد عمقا باتجاه الزند الأجوف. رفع الكيس ومرَّره فوق رأسه، فراحت السمكتان تتخبطان، ثم دلاه كي تغمر المياهُ العميقة السمكتين. رفع نفسه وجلس على الزند، وكان الماء ينساب من بنطاله ونعليه لينضمَّ إلى التيار. وضع صنارته إلى جانبه، ثم انتقل إلى الطرف الظليل للزند وأخرج الشطائر من جيبه. غمس الشطائر في الماء البارد، فحمل التيار الفُتات. أكل الشطائر، ثم ملأ قبعته ماء، وكان الماء ينسرب من خلال نسيجها قبل أن يشربه.

كان الظل، حيث يجلس على الزند، باردا. أخرج لفافة تبغ ثم قدح عود ثقاب على الخشب الرمادي ليشعلها. غاص عود الثقاب في الخشب، جاعلا فيه أخدودا صغيرا. مال إلى جانب الزند فوجد مكانا صلبا وأشعل عود الثقاب عليه. جلس يدخن ويراقب النهر.

كان النهر يضيق أمامه ثم يدخل مستنقعا. صار النهار رقراقا وعميقا، وكان المستنقع يزدحم بأشجار الأرْزِ التي تتلاصق جذوعها وتتداخل أغصانها. كان عبور مستنقع كهذا ضربا من المستحيل. كانت الأغصان تتدلى بشكل منخفض جدا. ولكي تتحرك يتعين عليك أن تحبو. ولا يمكنك اختراق الأغصان. إذن، لأجل هذا خُلِقت الحيوانات التي تعيش في المستنقعات على ما هي عليه، قال نك في سره.

تمنى لو كان لديه ما يقرأه. شعر برغبة في القراءة. لم يكن راغبا في الخوض في المستنقع. نظر إلى النهر أمامه. كانت شجرة أرز تنحني على عرض النهر بأكمله. وبعدها يدخل النهر في المستنقع.

لم يكن نك راغبا في دخوله الآن. كانت فكرة الخوض في ماءٍ يبلغ إبطيه ليصطاد أسماك السلمون الكبيرة في أماكن يستحيل صيدها تملأه نفورا. كانت ضفتا النهر في المستنقع جرداوين، وكانت أشجار الأرز تتكاثف فوقه إلى درجة تحجب أشعة الشمس باستثناء بعض الأماكن. في مثل هذه العتمة والماء الجارف، سيكون الصيد مأساويا. كان الصيد في المستنقع مغامرة مأساوية. ولم يكن نك راغبا في ذلك. لم يكن راغبا في المضي أكثر من ذلك في النهر هذا اليوم.

أخرج سكينه وفتحها ثم غرزها في الزند. ثم انتشل الكيس من الماء، ومد يده داخله، وأخرج إحدى السمكتين. أمسك بها قريبا من ذيلها، وكانت تتملص من قبضته، فخبطها على الزند. ارتعشت السمكة ثم تصلَّبت. مدَّدها نك على الزند في الظل ثم

كســـر رقبة السمكة الأخرى بالطريقة نفسها. مدَّدهما جنبا إلى جنب على الزند. كانتا سمكتين رائعتين.

شــقَّهما نك من الشـــرج إلى رأس الفــك لينظفهما. خرجت الخياشيم والأحشاء واللسان قطعة واحدة. كانا ذكَرَين: شرائط بيضاء رماديــة طويلة من غدد التلاقح، ملســاء ونظيفة. كانت الأحشاء كلها نظيفة ومتراصة. ألقى نك بالنفايات على الشاطى لعل حيوانات المِنْك تعثر عليها.

غسل الســمكتين في النهر. وعندما أعادهما إلى الماء ظهرا كأنهمــا لا تزالان على قيد الحياة. لم يبهت لونهما بعد. غســل يديه ثم جففهما على الزند. مدَّد السمكتين على الكيس المفروش على الزند ثم لفَّهما به، وربط الصُّرة ووضعهما في شبكة الصيد. كانت ســكينه لا تزال منتصبة، ونصلها مغروز في الزند. نظفها على الزند ثم وضعها في جيبه.

وقف نك على الزند، وهو يمسك بعصا صنارته وشبكة الصيد تتدلى ثقيلة، ثم خاض في الماء قاصدا الشاطئ. تسلَّق الضفة ثم اخترق الغابة مُتَّجها إلى الأرض المرتفعة. كان يســير عائدا إلى مخيمه. نظر وراءه، فرأى النهر من خلال الأشجار. الأيام القادمة كثيرة، ويستطيع حينها أن يصطاد السمك في المستنقع.

كان الملك يعمل في الحديقة(١٣٩). كان مسروراً جداً لرؤيتي. مَشَيْنا في الحديقة. هذه هي الملكة، قال لي. كانت تُقلِّم مجموعة من أشجار الورد. كيف حالك؟ سألتني. جلسنا إلى مائدة تحت شجرة كبيرة وأمر الملك بإحضار المشروب والصودا. قال: على الأقل لدينا مشروب جيد. أخبرني أن اللجنة الثورية لا تسمح له بالخروج خارج أسوار القصر. پلاستيراس رجل طيب جدا على ما أعتقد، لكنه صعب المراس، قال لي(١٤٠). وأعتقد أنه أحسن صنعا بإطلاق النار على أولئك الشباب. لو أن كيرنِسْكي أعدم بضعة من الرجال، لربما اختلفت الأمور تماما(١٤١). لكن أهم شيء في مثل هذه الأمور هو، بطبيعة الحال، أن تنجو بجلدك.

كان لقاء رائعا جدا وتحدثنا فيه طويلا. كان، كسائر اليونانيين، يريد الذهاب إلى أمريكا.

---

(١٣٩) الإشارة هنا إلى الملك جورجيوس الثاني الذي خُلع عن عرش اليونان العام ١٩٢٤، لتصبح بعد ذلك جمهورية حتى العام ١٩٣٥ [المترجم].

(١٤٠) نيكولاس پلاستيراس: سياسي يوناني تسلم رئاسة مجلس الوزراء مدة يوم واحد (١٩٣٣/٣/٦) في عهد الرئيس پاڤلوس كوندوريوتس (١٩٢٦ - ١٩٣٥) [المترجم].

(١٤١) ألكسندر فيودوروڤيتش كيرنسكي: زعيم ثوري روسي أصبح رئيسا للوزراء في الحكومة الانتقالية بعد ثورة فبراير العام ١٩١٧، لكن البلاشِفة أطاحوا به في نوفمبر من العام نفسه [المترجم].

الصامد
[١٩٢٦]

صعد مانويل غارسيا الدرج قاصدا مكتب دون ميغيل ريتانا. وضع حقيبتــه على الأرض ثم قرع الباب. لم يُجِب أحدٌ. شــعر مانويل وهو يقف في الممر أن في الغرفة أحدا. تســلل إليه هذا الشعور عبر الباب.

«ريتانا»، نادى وهو يُصغي.

لم يُجِب أحدٌ.

إنه موجود بلا شك، قال مانويل في نفسه.

«ريتانا»، نادى وهو يخبط الباب خبطا.

«مَن هناك؟» ردَّ شخصٌ من المكتب.

«أنا مانولو»، قال مانويل.

«ماذا تريد؟» سأله الصوت.

«أبحث عن عمل»، قال مانويل.

طقطق الباب عدة مرات ثم انفتح. دخل مانويل حاملا حقيبته.

كان رجلٌ صغير الحجم يجلس خلف مقعد في أقصى الغرفة. وفوق رأسه رأسُ ثورٍ مُصَبَّر، وعلى الجدران تلتصق صور مؤطرة وملصَقات عن مصارعة الثيران.

ظل الرجل الصغير جالساً وهو يتفحَّص مانويل، ثم قال: «ظننت أنهم قتلوك».

خبــط مانويل المقعد بقبضة يـــده، وظل الرجل الصغير يرنو إليه من الطرف الآخر للمقعد.

«كم مرة اشـــتركت في مصارعة الثيران هذه الســـنة؟» سـأله ريتانا.

«مرة واحدة»، أجابه مانويل.

«هي تلك المرة فقط؟» سـأله الرجل الصغير.

«هذا كل ما لدي».

«لقد قرأت عنها في الصحف»، قال ريتانا، ثم مال إلى الوراء في كرسيه، وراح يرنو إلى مانويل.

نظـــر مانويل إلى الثـــور المُصَبَّر. لقد رآه مـــرات عديدة من قبل. انتابه شعور عائلي تجاه الثور. فهذا الثور قتل أخاه الواعد منذ تســـع ســـنوات تقريباً. تذكر مانويل ذلك اليوم. كانت هناك صفيحة نحاســـية على درع الســـنديان الحامل لـــرأس الثور. لم يســـتطع مانويل قراءتها، لكنه تخيَّل أنها تُخَلِّدُ ذِكْر أخيه. ولم لا، فقد كان ولدا طيبا.

تقول الصفيحة: «الثور ماريبـــوزا[١٤٢] العائد للدوق بيراغوا، وقد تلقى ٩ طعنات من ٧ فرسان، وأودى بحياة أنتونيو غارسيا، الغِرِّ في مصارعة الثيران، ٢٧ أبريل ١٩٠٩»

رآه ريتانا وهو يرنو إلى رأس الثور المُصَبَّر.

«الفريق الذي أرســـله إليّ الدوق من أجل يوم الأحد ســـيثير فضيحة. كلهم مصابون في أرجلهم. تُرى، ما الذي يقولونه عنهم في المقهى؟»

«لا أعرف»، قال مانويل. «لقد وصلت لتوّي».

«أجل، لا تزال حقيبتك معك»، قال ريتانا.

---

(١٤٢) «ماريبوزا»: كلمة إسبانية تعني «فراشة» [المترجم].

كان ريتانا يستلقي إلى الوراء خلف المقعد الكبير وينظر إلى مانويل، فقال له:

«اجلس، واخلع قبعتك».

جلس مانويل، وخلع قبعته، فتغير وجهه. بدا شاحبا، وكانت الضفيرة في مؤخرة رأسه المُسَبَلة إلى الأمام لكي لا تبدو من تحت القبعة قد أضفت عليه منظرا غريبا.

«لا تبدو على ما يرام»، قال ريتانا.

«لقد خرجت لِتَوّي من المستشفى»، قال مانويل.

«سمعت أنهم قطعوا ساقك،» قال ريتانا.

مال ريتانا إلى الأمام على المقعد، ودفع صندوقا خشبيا من السجائر نحو مانويل، وقال:

«خُذْ سيجارة».

«شكرا».

أشعلها مانويل.

«تدخِّن؟» قال وهو يقدِّم عود الثقاب إلى ريتانا.

«لا»، قال ريتانا مُلَوِّحا بيده. «أنا لا أدخِّن أبدا».

راح ريتانا يراقبه وهو يدخن.

«لماذا لا تحصل على وظيفة تعمل فيها؟» سأله ريتانا.

«لا أريد أن أعمل»، قال مانويل. «أنا مصارع ثيران».

«لم يعد هناك مصارعو ثيران»، قال ريتانا.

«أنا مصارع ثيران»، قال مانويل.

«أجل، ما دمتَ هناك»، قال ريتانا.

ضحك مانويل.

جلس ريتانا مُحدِّقا في مانويل، صامتا.

«سأدرِجُك في مباراة ليلية إن شئتَ»، عرض عليه ريتانا.

«متى؟»

«ليلة الغد».

«لا أريـد أن أكون بديلاً من أحـد»، قال مانويل. هكذا مات الجميع. هكذا مات سِلڤادور. خبط الطاولة بيده.

«هذا كل ما عندي»، قال ريتانا.

«لماذا لا تُدرِجني في الأسبوع القادم؟» اقترح عليه مانويل.

«لـن تجتذب الجماهير»، قال ريتانا. «إنهم لا يريدون سـوى ليتري، وروبيتو، ولاتوري. هؤلاء الصبيان رائعون».

«بل ستأتي الجماهير لمشاهدتي»، قال مانويل ونفسه مفعمة بالأمل.

«لا، لن يفعلوا. لقد نَسَوكَ».

«لدي كثير من المؤهلات»، قال مانويل.

«إنـي أعرض عليك أن أضعك لمباراة ليلة الغد»، قال ريتانا. «يمكنـك أن تتعاون مع الشـاب هيرنانديـز وتقتلا عجلين على طريقة الأخوين تشارلوت».

«ولمن هذان العجلان؟» سأله مانويل.

«لا أعرف. أي شيء لديهم في الزرائب. أي شيء لا يُفلِح في اجتياز الاختبار البيطري نهارا».

«لا أرغب في أن أنوب عن أحد»، قال مانويل.

«يمكنـك أن تقبل عرضي أو ترفضه»، قال ريتانا. انكب على الأوراق التـي أمامه. لم يعد مباليـا. لم يعد مبهورا بمانويل كما

كان قبل لحظة عندما استذكر الأيام الخوالي. يريده أن ينوب عن لاريتا لأنه يستطيع أن يستأجره بثمن بخس، كما يستطيع أن يستأجر الآخرين. ولكنه يريد أن يساعده، وها هُوَ يمنحه فرصة. الأمر عائدٌ إليه.

«كم ستعطيني؟» سأله مانويل. كانت فكرة الرفض لا تزال تراوده، لكنه كان يعلم أنه لا يستطيع أن يرفض.

«مائتان وخمسون بيزيتا»، قال ريتانا. كان يريد أن يقول خمسمائة، لكنه عندما فتح فمه قال: مائتان وخمسون.

«لكنك تدفع سبعة آلاف إلى بِيالتا»، قال مانويل.

«وأنت لستَ بيالتا»، ردَّ ريتانا.

«أعرف ذلك،» قال مانويل.

«وهو يستحق ذلك، يا مانولو»، قال ريتانا شارحا.

«بالتأكيد»، قال مانويل ثم نهض واقفا. «أعطني ثلاثمائة ريتانا».

«لا بأس»، قال ريتانا موافقا. مدَّ يده داخل سحابٍ يبحث عن ورقة.

«هل يمكنك أن تعطيني خمسين الآن؟» سأله مانويل.

«بالتأكيد»، قال ريتانا. أخرج ورقة من فئة الخمسين بيزيتا من محفظة نقوده ثم فرشها على الطاولة.

أخذها مانويل ووضعها في جيبه.

«وماذا عن فريق العمل؟» سأل مانويل.

«يمكنك الاستعانة بالصبيان الذين يعملون عندي ليلا»، قال ريتانا. «لا بأس بهم».

«وماذا عن البيكادورات؟» سأله مانويل.

«ليسوا ممن يُعتَمد عليهم»، قال ريتانا معترفا.

«يلزمني بيكادور جيد»، قال مانويل.

«جِدْ واحدا، إذن»، قال ريتانا. «اذهب وَجِدْهُ».

«ليس من حسابي»، قال مانويل. «لن أدفع من حسابي عندما يكون أجري ستين دورو»[١٤٣].

لم يقل ريتانا شيئا، لكنه حدَّق في مانويل الجالس على الطرف الآخر من المقعد الكبير.

«أنت تعلم أنه يلزمني بيكادور جيد»، قال مانويل.

لم يقل ريتانا شيئا، لكنه حدَّق في مانويل من مسافة بعيدة.

«ليس هذا من الإنصاف في شيء»، قال مانويل.

ظلَّ ريتانا يتأمله، وهو يسترخي في كرسيه، وكان يتأمله من مسافة بعيدة جدا.

«لدي بيكادورات عاديون»، قال عارضا عليه.

«أعلم ذلك»، قال مانويل. «أنا أعرف ما لديك».

لم يبتسم ريتانا، فعرف مانويل أن الأمر انتهى.

«كل ما أريده هو فرصة متكافئة»، قال مانويل مُعَلِلاً. «أريد أن أكون متفوقاً على الثور عندما أدخل الحلبة. وما يلزمني هو بيكادور جيد».

كان يتحدث إلى رجلٍ لم يعد ينصت إليه.

«إذا أردت شيئا متميزا»، قال ريتانا، «فاذهب وجِدْهُ بنفسك. ليس لدي سوى فريق عادي. اجلِب ما شئت من البيكادورات.

(١٤٣) الدور هو دولار إسباني فضي، وهو يساوي خمس بيزيتات (أو بسيطات كما تسمى في المغرب) [المترجم].

تنتهي المهزلة في العاشرة والنصف».
«لا بأس»، قال مانويل. «إذا كان هذا هو رأيك».
«نعم، هذا هو رأيي»، قال ريتانا.
«سأراك ليلة الغد»، قال مانويل.
«سأكون هناك»، قال ريتانا.
حمل مانويل حقيبته وخرج.
«أغلِق الباب»، نادى ريتانا.
التفت مانويل وراءه. كان ريتانا منكبّا على بعض الأوراق. سحب مانويل الباب بقوة فأغلقه.
نزل الدرجات خارجا من الباب إلى بريق الشارع الملتهب. كان الشارع يلتهب وكان النور المنعكس على البنايات البيضاء مفاجئا لا تحتمله عيناه. سار على الجانب الظليل للشارع المنحدر باتجاه «پوێرْتا دِلْ سول»[١٤٤]. كان الظل متصلا وباردا كالماء الجاري. هبت الحرارة فجأة وهو يقطع الشوارع المتقاطعة. لم ير مانويل واحدا يعرفه من بين كل الذين مرّوا به.
قبيل «پوێرْتا دل سول» عرَّج على أحد المقاهي.
كان الهدوء يخيم على المقهى. كان هناك بضعة رجال يتحلّقون حول الموائد قبالة الجدار. على إحدى الطاولات كان أربعة رجال يلعبون الورق. كان معظم الرجال يجلسون قبالة الجدار ويدخنون وتتناثر على الطاولات أمامهم فناجين القهوة وأقداح المشروبات الفارغة. شقَّ مانويل طريقه عبر الغرفة الطويلة إلى غرفة صغيرة في الخلف. كان رجل يجلس إلى طاولة في الزاوية ويغط

---

(١٤٤) «پويرتا دل سول»: ميدان في وسط مدريد ويعني «بوابة الشمس» [المترجم].

في نوم عميق. جلس مانويل إلى إحدى الطاولات.

حضر نادلٌ ووقف بجانب طاولة مانويل.

«هل رأيت زوريتو؟» سأله مانويل.

«كان هنا قبل الغداء»، رد النادل. «لن يعود قبل الساعة الخامسة».

«أحضر لي شيئا من القهوة والحليب ومشروبي المعتاد»، قال له مانويل.

عاد النادل إلى الغرفة يحمل صينية وفيها كأس قهوة كبيرة وكأسٌ من المشروب. وفي يده اليسرى كان يحمل زجاجة مشروب. وضع هاتين بخفة ورشاقة على الطاولة، وصبَّ صبيٌّ كان يتبعه القهوة والحليب في الكأس من دلَّتين تلتمعان ولكل منهما مِقْبَضٌ طويل.

خلع مانويل قبعته، فلاحظ النادل ضفيرته المُسْبَلة إلى الأمام فوق رأسه. غمز لساقي القهوة بينما كان هو يصب المشروب في الكأس الصغيرة بجانب قهوة مانويل. راح ساقي القهوة يحدق في وجه مانويل الشاحب بفضول.

«هل أنت تصارع هنا؟» سأله النادل وهو يَسُدُّ الزجاجة بالسدادة الفلينية.

«نعم»، قال مانويل. «غدا».

ظلَّ النادل واقفا وهو يمسك بالزجاجة على أحد وركيه.

«هل أنت في فريق المهرجين؟» سأله النادل.

أشاح ساقي القهوة بنظره خجلا.

«لا. بل في مصارعة عادية».

«ظننت أننا سنشاهد شافيز وهيرنانديز»، قال النادل.

«لا. أنا وشخصٌ آخر».

«مَنْ؟ شافيز أو هيرنانديز؟».

«هيرنانديز على ما أظن».

«وشافيز؟».

«إنه مصاب».

«من قال لك هذا؟»

«ريتانا».

«لِوي، لِوي»، نادى النادل شخصا في الغرفة المجاورة. «شافيز بقَرَه أحد الثيران».

كان مانويل قد نزع الغلاف عن كُتل السكر وألقاها في قهوته. حركها ثم شربها، وكانت ساخنة، حلوة، تجلب الدفء إلى معدته الفارغة. ثم شرب المشروب.

«أعطني جرعة أخرى من هذا»، قال للنادل.

فتح النادل الزجاجة ثم ملأ الكأس، ودَلَقَ جرعة أخرى في الصُّحَيْفة. جاء نادل آخر ووقف أمام الطاولة، فمضى ساقي القهوة في سبيله.

«هل إصابة شافيز خطيرة؟» سأل النادل الثاني مانويل.

«لا أعرف»، قال مانويل. «لم يخبرني ريتانا».

«وماذا يهمه؟» قال النادل الطويل. لم يره مانويل من قبل. لا بد أنه وصل لتوه.

«إن كنت ذا حظوةٍ عند ريتانا في هذه المدينة، فلا خوف عليك»، قال النادل. «وإن لم تكن، فمن الأجدر بك أن تنتحر».

«نِعْـمَ القول»، قـال النادل الآخر الذي وصـل لتوه. «لقد أحسنت القول».

«وهل لديك شكٌ في ذلك؟» قال النادل الطويل. «أنا أعرف تماما ما أقوله عندما أتحدث عن ذلك الشخص».

«انظروا ماذا فعل ببيالتا»، قال النادل الأول.

«ليـس هذا كل ما فعل»، قال النادل الطويل. «انظروا ماذا فعل لمارسال لالاندا. انظروا ماذا فعل لناسيونال».

«نِعْمَ القول أيها الفتى»، قال النادل القصير موافقا.

نظر إليهم مانويل وهم يتحدثون أمام طاولته. لقد شـرب كأسـه الثانية من المشـروب. لقد نسـوه. لم يعودوا يعيرونه انتباهاً.

«انظروا إلى تلك المجموعة من الجِمال»، تابع النادل الطويل قائلاً. «هل رأيتم ناسيونال الثاني هذا؟».

«لقد رأيته يوم الأحد الماضي»، قال النادل الأول.

«إنه زرافة»، قال النادل القصير.

«ماذا قلت لكم؟» قال النادل الطويل. «إنهم فتيان ريتانا».

«هـات لي جرعـة أخرى من ذاك»، قـال مانويل. كان قد صب المشـروب الذي دلقـه النادل في الصحيفة في كأسـه وشربه بينما كانوا يتحدثون.

ملأ النادل الأصلي كأسـه بحركـة آلية، وخرج الثلاثة من الغرفة وهم يتحدثون.

كان الرجل في الزاوية البعيدة لا يزال نائماً، ويغطُّ غطيطاً طفيفاً عندما يستنشق الهواء، ورأسه مُسنَدٌ إلى الحائط.

شرب مانويل الكأس. وشعر بالنعاس. كان الطقس حاراً جداً يجعل التفسُّح في المدينة مستحيلاً. ثم إنه لم يكن لديه ما يفعله. كان يريد أن يرى زوريتو، وسينام بينما ينتظره. برفسة واحدة وضع حقيبته تحت الطاولة كي يطمئن إلى وجودها هناك. ربما يجدر به أن يعيدها إلى تحت المقعد، مسنداً إياها إلى الجدار. ثم أكبَّ على الطاولة ونام.

عندما أفاق من نومه وجد رجلاً يجلس قبالته. كان رجلاً ضخماً له وجهٌ أسمر ثقيل كأنه هندي. صار له مدة وهو يجلس هناك. كان قد أشار بيده إلى النادل أن ابْتَعِد، وجلس يقرأ الجريدة، ويتطلع من حين إلى آخر إلى مانويل النائم أمامه ورأسه على الطاولة. كان يقرأ بمشقة كبيرة، فيشكِّل الكلمات بشفاهه بينما يقرأ. وعندما أعْيَته القراءة، راح ينظر إلى مانويل. جلس على الكرسي متثاقلاً، وكانت قبعته القرطبية السوداء مُنَكَّسةً إلى الأمام.

اعتدل مانويل ونظر إليه ثم قال:

«مرحباً، يا زوريتو».

«مرحباً، يا بُني»، قال الرجل الضخم.

«كنتُ نائماً»، قال مانويل وهو يفرك جبينه بظاهر يده.

«ظننتُ ذلك».

«كيف الأحوال؟»

«بخير. كيف أحوالك أنت؟»

«ليست على ما يرام».

صمت الاثنان. نظر زوريتو، البيكادور، إلى وجه مانويل

الأبيــض. نظر مانويل إلى يدي البيكادور الهائلتين وهما تطويان الجريدة لتضعاها في جيبه.

«أود أن تُسدي إليَّ معروفاً، يا مانوس»، قال مانويل.

كان زوريتو يُعرَف بلقب «مانوس ديوروس»(١٤٥). ما إن يســمع هــذا اللقب حتى يشــرع في التفكير بيديــه الهائلتين. وضعهما أمامه على الطاولة باستحياء.

«دعنا نشرب»، قال زوريتو.

«بالتأكيد»، قال مانويل.

جاء النادل وخرج، ثم عاد. خرج من الغرفة وهو يلتفت وراءه إلى الرجلين الجالسين إلى الطاولة.

«مــا الأمر، يا مانولو؟» قــال زوريتو وهو يضع كأســه على الطاولة.

«هل يمكنك أن تكون شــريكي بصفة بيكادور ليلة الغد؟» قال مانويل وهو يتطلَّع إلى زوريتو قبالته.

«لا»، قال زوريتو. «لا يمكنني ذلك».

نظر مانويل إلى كأسه أمامه. كان يتوقع جواباً كهذا، وها هُوَ قد سمعه الآن. أجل، لقد سمعه.

«أنا آسف، يا مانولو، لكنني لم أعد أصلح لهذه المهمة»، قال زوريتو وهو ينظر إلى يديه.

«لا عليك»، قال مانويل.

«لقد تقدَّم بي العُمْرُ»، قال زوريتو.

«كان مجرد سؤال»، قال مانويل.

---

(١٤٥) «مانوس ديوروس» عبارة بالإسبانية تعني حرفيا «اليدين القاسيتين أو الخشنتين»، أي أن لقب زوريتو هو «ذو اليدين القاسيتين أو الخشنتين» [المترجم].

«هل هي مباراة ليلية غداً؟».

«نعـم. قلت لنفسـي إن كان لدي بيكادور جيد، يمكنني أن أفوز».

«كم سيدفعون لك؟».

«ثلاثمائة بيزيتا».

«أنا أتقاضى أكثر من هذا».

«أعرف ذلك»، قال مانويل. «لم يكن لدي حقٌّ في أن أسألك».

«ما الذي يدفعك إلى الاستمرار في هذا؟» سأله زوريتو. «لماذا لا تقص الضفيرة في مؤخرة رأسك، يا مانولو؟».

«لا أعرف»، قال مانويل.

«تكاد تكون في مثل سنّي»، قال زوريتو.

«لا أعـرف»، قال مانويل. «عليَّ أن أقوم بهذا. لو تمكنت من ترتيب الأمور بحيث تستوي خسارتي مع ربحي، فهذا كل ما أريده. عليَّ أن أصمد، يا مانوس».

«لا، ليس عليك هذا»، قال زوريتو.

«بل علي أن أصمد. لقد حاولت الابتعاد».

«أنا أعلم ما هي مشاعرك. لكن ما تقوم به ليس صحيحاً. عليك أن تُقلِع عن هذا الأمر ولا تعود إليه».

«لا أستطيع ذلك. ثم إنني تحسنتُ كثيراً في الأيام الأخيرة».

نظر زوريتو إلى وجهه.

«لقد كنتَ في المستشفى».

«لكن أدائي كان رائعاً عندما أُصِبتُ».

لم يقل زوريتو شيئاً. سكب المشروب المدلوق في الصُّحَيْفة في كأسه.

«قالت الصحف إنها لم تر قط أداءً أفضل منه».

نظر إليه زوريتو.

«أنت تعلم أنني أُبلي بلاء حسناً عندما أنطلق»، قال مانويل.

«لقد تقدم بك العمر كثيراً»، قال الپيكادور.

«لا»، قال مانويل. «أنت تكبرني بعشر سنين».

«الأمر مختلف معي».

«لستُ عجوزاً»، قال مانويل.

جلسا صامتين، وراح مانويل يراقب وجه الپيكادور.

«كانت الأمور تسير سيراً حسناً إلى أن أُصبْت»، قال مانويل.

«وكان عليك أن تراني، يا مانوس»، قال معاتباً.

«لا، لا أريد أن أراك»، قال زوريتو، «لأن رؤياك تجعلني متوتراً».

«لم تَرَني أخيرا».

«لقد رأيتك كثيراً».

نظر زوريتو إلى مانويل، متفادياً نظراته، وقال:

«عليك أن تعتزل، يا مانولو».

«لا أستطيع»، قال مانويل. «أموري تسير سيراً حسناً هذه الأيام».

انكبَّ زوريتو إلى الأمام، واضعاً يديه على الطاولة.

«أنصِت إلي. سأشترك معك بصفة پيكادور، وإن لم تَفُزْ ليلة الغد، فعليك أن تُقْلِعَ عن هذا الأمر. مفهوم؟ هل تفعل هذا؟»

«بالتأكيد».

اعتدل زوريتو في جلسته، وقد اطمأن.

«عليك أن تعتزل»، قال زوريتو. «بلا تدليس أو خداع. وعليك أن تقص ضفيرتك».

«ليس لزاماً علي أن أعتزل»، قال مانويل. «سترى. لدي المقدرة».

نهض زوريتو. لقد أرهقه الجدال.

«عليك أن تعتزل»، قال له. «وسأقص ضفيرتك بنفسي».

«لا، لن تفعل»، قال مانويل. «لن تُتاح لك الفرصة لذلك».

نادى زوريتو على النادل.

«هيا بنا»، قال زوريتز. «هيا بنا إلى المنزل».

تناول مانويل حقيبته من تحت الطاولة. كان سعيداً. كان يعلم أن زوريتو سيشترك معه بصفة پيكادور. وهو أفضل پيكادور على قيد الحياة. لقد هانت الأمور الآن.

«هيا بنا إلى المنزل لنتناول الطعام».

وقف مانويل في فناء الفرسان ينتظر انتهاء المهرِّجين. وقف زوريتو إلى جانبه. كان الظلام يخيم من حولهما. كان الباب العالي المؤدي إلى حلبة المصارعة مغلقاً. سمعا قهقهة فوقهما، تبعتها قهقهة أخرى. ثم ساد الصمت. أحب مانويل رائحة الإسطبلات التي تملأ فناء الفرسان. كانت رائحة طيبة في الظلام. انطلقت رائحة أخرى من الساحة، ثم تلاها تصفيق مُستديم.

«هل رأيت هؤلاء الفتيان؟» سأل زوريتو، وقد بدا كبيراً ومشعّاً في الظلام إلى جانب مانويل.

«لا»، قال مانويل.

«إنهـم مضحكـون جداً»، قال زوريتو، وابتسـم لنفسـه في الظلام.

انفتـح الباب العالي المـزدوج المُحْكَم الإغـلاق والمؤدي إلى حلبـة المصارعة، فرأى مانويل الحلبة في النور الباهر للمصابيح المُتَقَوِّسة، وكانت الساحة ترتفع أمامه والظلام يحيط بها من كل الجهات. كان رجلان يرتديان زي المتسـولين يركضان وينحنيان، يتبعهمـا ثالـث يرتدي زي نُـدُل الفنـادق، وكان ينحني ليلتقط القبعات والعصي الملقاة على الرمال، فيقذفها في الظلام.

أُشْعِل المصباح الكهربائي في الفناء.

«سـأمتطي أحد الأحصنة بينما أنـت تُحْضِر الفتيان»، قال زوريتو.

سـمعا وراءهما خشخشـة البغال في طريقها إلى السـاحة لسحب الثور الميت.

عـاد أفراد الفريق يمشـون ووقفوا جميعـاً يتحدثون تحت المصبـاح الكهربائي في الفناء، بعد أن شـاهدوا العرض الهزلي من المَعْبَر بين السـياج والمقاعد. توجه شـاب وسيم يرتدي بزة فضية وبرتقالية إلى مانويل وابتسم.

«أنا هيرنانديز»، قال وهو يمد يده مصافحاً.

صافحه مانويل.

«ما لدينا الليلة هي فِيَلَة عادية»، قال الغلام متشجعاً.

«لكنها كبيرة وذات قرون»، قال مانويل موافقاً.

«لقد نلتَ أسوأ حظ»، قال الغلام.

«لا عليك»، قال مانويل. «كلما كانت كبيرة كَثُر الطعام للفقراء».
«من أين أتيت بهذا؟» سأله هيرنانديز مبتسماً.
«إنه قــول مأثور»، قال مانويل. «صُــف فريقك لكي أرى ما لدي».
«لديــك فتِيــانٌ رائعون»، قال هيرنانديــز. كان مبتهجاً. لقد اشترك من قبل في مباراتين ليليتين وقد صار لديه بعض الأنصار في مدريد. كان مسروراً لأن المباراة ستبدأ بعد دقائق.
«أين البيكادورات؟» سأله مانويل.
«فــي الزرائب يتقاتلون على من ســينال الأحصنة الجميلة»، قال هيرنانديز مبتسماً.
جاءت البغال مندفعةً، والســياط تُلهِب ظهورها، والأجراس تُجَلجِل، وكان العِجل يحرث الرمل حرثاً.
اصطفّوا للعرض حالما دخل العجل.
وقف مانويل وهيرنانديز في المقدمة. واصطفَّ فتيان الفريق وراءهما، يحملون إزاراتهم الثقيلة على أيديهم. وفي الخلف كان البيكادورات الأربعة يمتطون جيادهم، شــاهِرين مهاميزَهم ذات الرؤوس الفولاذية المدببة في عتمة الزرائب.
«غريبٌ أن ربّنا لا يُعطينا ما يكفي من الإضاءة لنرى خيولنا»، قال أحد البيكادورات.
«إنه يعلم أنه من الأفضل لنا ألاّ ندقق كثيراً في هذه الجُلود»، رد بيكادور آخر.
«هذا الشيء الذي أمتطيه لا يكاد يحملني عن الأرض»، قال البيكادور الأول.

«إنها أحصنة في كل الأحوال».

«طبعاً أحصنة».

تحدثـوا وهم ينتظرون علـى صهوات خيولهـم الهزيلة في الظلام. بقي زوريتو صامتاً. كان الوحيد من بين المجموعة الذي لديـه حصان موثوق به. كان قد جرَّبه بين الزرائب وكان يتجاوب مع كبـح اللجام ونخز المهمـاز. كان قد نـزع الغمامة عن عينه اليمنى، وقطع الأسلاك التي كانت تشد أذنيه من أسفلهما. كان حصانا جيداً، موثوقاً بـه، ثابت الأقدام. كان هذا كل ما يريده. كان ينـوي أن يمتطيه مـن أول المعبر إلى آخره. فمنذ أن امتطى حصانه وجلس وسـط العتمة على السرج الكبير المُضَرَّب ينتظر بـدء الاسـتعراض، راح يخز الثور في خياله مـن أول الممر إلى آخره. ظـل البيكادورات الآخرون يواصلـون حديثهم من حوله، لكنه لم يسمع ما يقولونه.

اصطف الماتَادوران أمام معاونيهما الثلاثة، وكانا يطويان إزارَيْهما فوق ذراعيهما اليسريين بذات الطريقة. كان مانويل يفكر في الفتيان الثلاثة وراءه. كان ثلاثتهم مـن أبناء مدريد، مثل هيرنانديز، تُناهز أعمارهم التاسعة عشرة. كان أحدهم غجرياً، رزيناً، متحفظاً، داكن البشرة، فأعجبه منظره. التفت إليه مانويل وسأله:

«ما اسمك، يا بُنَيّ؟»

«فوِينْتيس»، رد الغجري.

«هذا اسم جميل»، قال مانويل(١٤٦).

ابتسم الغجري مُكَشِّراً عن أسنانه.

---

(١٤٦) يعني اسم «فوينتيس» بالإسبانية «مناهل» أو «ينابيع» [المترجم].

«تَلَقَّـفِ الثور واجْعَلْـه يجري قليلاً عندما يخـرج»، قال له مانويل.

«حسـنٌ»، قال الغجري، والجِـدُّ بادٍ على وجهه. ثم راح يفكر بما يجب عليه فعله.

«ها قَد أتى»، قال مانويل لهيرنانديز.

«حسنٌ، سنذهب نحن».

بـرؤوس مرفوعـة تتمايل على أنغـام الموسـيقى، وأيديهم اليمنى تعلو وتهبط، دخلوا يعبرون الحلبة الرملية تحت الأضواء المُقَوَّسـة. وراح الفريق ينتشر ذات اليمين وذات الشمال، يتبعهم البيكادورات على صهوات جيادهم، وهؤلاء يتبعهم سَدَنة الحلبة والبغال ذات الأجراس. صفق الجمهور لهيرنانديز بينما كان هو وزملاؤه يعبـرون الحلبة. كانوا يتمايلون تيهـاً وينظرون أمامهم بشكل مستقيم وهم يسيرون.

انحنـى الموكب أمام الرئيس ثـم تفرقوا كلٌّ إلى مكانه. اتجه مصارعو الثيران نحو السياج، فخلعوا عباءاتهم الثقيلة واستبدلوها بإزاراتٍ قتالية خفيفة. خرجت البغال وكان البيكادورات يطوفون بخيولهم حول الحلبة، وخـرج اثنان منهم من البوابة التي دخلوا منها. سوَّى الخدمُ الرملَ ومهّدوه.

شـرب مانويل كأسـاً من الماء صبّها له أحد معاوني ريتانا، وكان يعمل مديراً لأعماله وحاملاً لسيفه. عاد هيرنانديز بعد أن تحدث مع مديره.

«أنت فتى بارع، يا بني»، قال له مانويل مادحاً.

«إنهم يحبونني»، قال هيرنانديز بسعادة.

«كيف كان الموكب؟» سأل مانويل معاونَ ريتانا.

«كحفلة عرس»، قال معاون ريتانا. «رائع. لقد كنت مثل خوزليتو وبِلمونتي».

مرَّ زوريتو على ظهر حصانه كأنه تمثال فارس هائل. أدار رأس حصانه وجعله في مواجهة حظيرة الثور. كان الوقوف تحت الضوء المقوَّس أمراً غريباً. لقد عمل بصفة پيكادور في شمس الظهيرة اللاهبة لقاء مبالغ هائلة من المال. لم يكن يعجبه الوقوف تحت الضوء ليلاً. لذلك تمنى لو يبدأون.

تقدم مانويل منه وقال:

«اطعنه يا مانوس. اطعنه ودعني أتمكن منه».

«سأطعنه، يا بني»، قال زوريتو وهو يبصق على الأرض. «بل سأجعله يهرب من الحلبة».

«ضع كل ثقلك عليه، يا مانوس»، قال مانويل.

«سأفعل ذلك»، قال زوريتو. «ما الذي يؤخره؟»

«ها قد أتاك الآن»، قال مانويل.

انتظر زوريتو: قدماه في الرِّكاب، وساقاه الهائلتان في الدرع المغطاة بجلد الغزال لحماية زَوْر الحصان، والأعنَّة في يساره والرمح الطويل في يمينه، وطاقيته العريضة مُسدلة فوق عينيه لحمايتهما من الأضواء، يراقب باب الحظيرة البعيد. اشرأبَّت أذنا حصانه، فَرَبَّتَ زوريتو عليه بيده اليسرى.

فجأة ارتد باب الحظيرة الأحمر، وللحظةٍ ركز زوريتو أنظاره على الممر الخالي على الطرف الآخر البعيد لساحة المُنازَلة. عندئذ اندفع الثور منطلقاً، ثم راح يتدحرج على قوائمه الأربع

عندمـــا صار تحت الأضـــواء، وراح يعدو عَدْواً هجومياً ســـريعاً متزناً، لا تســـمع له سوى زفير منخاريه الواسعين، فَرِحاً بتحرره من حظيرته المظلمة.

علـــى مضـــض، كان يجلس في الصف الأمامـــي من المقاعد وكيلُ مراسل «إل هيرالدو» المسؤول عن أخبار مصارعة الثيران. كان ينكب على الجدار الأســـمنتي أمامه ليخربش هذه الكلمات: «كامپانيرو، أسود، ٤٢، انطلق بسرعة ٩٠ ميلا في الساعة بكثير من الزخم...»

كان مانويـــل يســـتند إلى الســـياج ويرقب الثـــور، فلوَّح بيده وراح الغجري يعدو ســـاحباً إزارَه وراءه. كان الثور ينطلق بأقصى ســـرعة، فاســـتدار وهجم على الإزار، مطأطئَ الـــرأس، مرفوعَ الذيل. تحرك الغجري بخط متعرج، وما إن مرَّ بسلام حتى لمحه الثور، فهجر الإزار ليهجم على الرجل. ولىَّ الغجري هارباً وقفز من فوق السياج الأحمر في اللحظة التي نطح فيها الثور السياجَ بقرنيه. نطحه مرتين، وكان يرتطم بالخشب كالأعمى.

أشعل مراسل «إل هيرالدو» سيجارة وقذف بعود الثقاب على الثور، ثم كتب في دفتر ملاحظاته، «كامبانيرو ثور هائل له قرنان يعجبان هواة جمع الأموال، وله ميل واضح في التجاوز على أرض المصارعين».

وقـــف مانويـــل على الرمل القاســـي بينمـــا كان الثور ينطح الســـياج. بطرف عينـــه لمح زوريتو الـــذي كان ينتظر على صهوة جواده الأبيض بالقرب من السياج على مسافة تقارب ربع محيط الحلبة إلى اليســـار. كان مانويل يمسك الإزار قريباً منه وأمامه،

حامــلاً في كل يدٍ طَيَّةً، فصاح بالثور: «هه! هه!» اســتدار الثور وكأنه يســتند إلى الســياج عندما هجم على غيــر هدى باتجاه الإزار، فتجنَّبــه مانويل، واســتدار على عَقِبَيْــهِ مع هجوم الثور، ســاحباً الإزار قبل أن يلامسه قرنا الثور. ما إن انتهى من سحب الإزار حتى وجد نفســه مرة أخرى في مواجهة الثور، فأمســك بالإزار بذات الطريقة، أمامه وقريباً من جســمه، واستدار ثانية عندما كرَّ الثور ثانية. كان الجمهور يصيح كلّما استدار مانويل.

اســتدار أربع مرات مع الثــور، وكان في كل مرة يرفع الإزار عالياً حتــى ينتفخ بالهواء، وكان في كل مرة يســتدرج الثور إلى مهاجمته مرة أخرى. ثم في نهاية الاســتدارة الخامســة، أسدل الإزار على وركه ثم استدار استدارة سريعة جعلت الإزار ينفرش كأنه تنّــورةُ راقصةٍ باليه، وجعل الثور يلتفــت حوله كأنه حزام، فيبتعــد هو ويترك الثور في مواجهــة زوريتو على صهوة جواده الأبيــض. كان زوريتو قد تقدم نحــو الحلبة واتخذ موقعه، وكان الحصان في مواجهة الثور وأذناه إلى الأمام، وشــفتاه متوترتان، وكان زوريتو يســدل قبعته فوق عينيه، مائلاً نحو الأمام، متأبطاً رمحاً طويلاً تحت يمينه في زاوية حادة، مُسدِّداً رأسَه الحديدي المثلث نحو الثور.

ســحب مراســل «إل هيرالدو» نفثة من دخان سيجارته وهو يسدد نظراته إلى الثور، ثم كتب: «نفذ المصارع المخضرم مانولو سلســلة من الورنيقات المقبولة، ثم أضفى عليها في النهاية لمسة من لمســات بِلمونتي مما نال إعجاب العامة، ثم دخلنا في مرحلة الفرسان».

كان زوريتــو ينتظــر على صهوة جواده ويقيس المســافة بين الثور ونهاية الرمح. وبينما هو ينظر، استجمع الثور قواه ثم هجم وعيناه مســددتان نحو زور الحصان. ولما طأطأ رأسه ليبقر زور الحصــان بقرنيه، غــرز زوريتو رأس الرمح فــي كتلة العضلات المتورمة فوق كتفيه، ثم ألقى بكل ثقله على الرمح، وبيده اليسرى رفع الحصان الأبيض في الهواء على قائمتيه الخلفيتين، ثم أداره نحــو اليمين بعــد أن دفع الثور نحو الأرض كــي يمر قرنا الثور بأمان من تحت بطن الحصان. أنزل الحصان قائمتيه الأماميتين وهو يرتجف، فمــسَّ ذيلُ الثور صدره عندمــا هجم على الإزار الذي لوَّح له به هيرنانديز.

ركــض هيرنانديز بشــكل جانبي محاولاً أن يســتدرج الثور باتجــاه البيكادور الآخر. ثم ثبَّته بحركة مــن إزاره فجعله وجهاً لوجــه مــع الحصان والفــارس، ثم تراجــع. عندمــا رأى الثورُ الحصان هجم عليه. انزلق رمح البيكادور مع طول ظهره، ونتيجةً لصعقة الهجوم ارتفع الحصان، وكان البيكادور يوشــك سلفاً أن يسقط عن السرج عندما أبعد ساقه اليمنى بعد أن أخطأ رمحُه إصابته، فسقط عن يسار الحصان ليجعله بينه وبين الثور. سقط الحصان الجريح فوق الثور فغاص قرناه فيه، أما البيكادور فقد دفع الحصان بقدميه دفعاً قوياً حتى صار في مأمن من الخطر، وراح ينتظر مَنْ يأتي لإخلائه ووضعه على قدميه.

تــرك مانويل الثورَ يبقر الحصــان الممدد أرضاً. لم يكن في عجلة من أمره، إذ إن البيكادور لم يكن في خطر، ثم إن بيكادوراً مثــل هذا يحتاج إلى القلــق لعله في المــرة القادمة يصمد مدة

أطول. يا لهم من بيكادورات قذرين! ثم راح ينظر إلى زوريتو في الطـــرف المقابل وهو ينتظر على صهوة جواده المتجمد، قريباً من السياج.

«هه»، صاح بالثور. «هيا»، قال وهو يمســـك الإزار بكلتا يديه لعلـــه يلفت أنظار الثـــور. ابتعد الثور عـــن الحصان وهجم على الإزار، ثم ركض مانويل بشـــكل جانبي وهو يبسط الإزار أمامه، ثم توقف واســـتدار على عقبيه استدارةً جعلت الثور في مواجهة زوريتو.

«كامبانيرو تلقى طعنتين لقتله حصاناً رديئاً بينما كان هيرنانديز وما نولو بعيدين»، كتب مراســـل «إل هيرالدو». «كان يضغط على الحديد، وكان واضحاً أنه لا يحب الخيول. زوريتو المخضرم أظهر براعته القديمة باستعمال الرمح، ولا سيما في....»

«أحســـنت، أحسنت»، صاح الرجل الذي يجلس بجانبه. لكن الصيحة ضاعت في خضم الضجيج من حوله، فصفع المراســـلَ بيده على ظهره. مطّ المراســـل عنقه ليرى زوريتو الذي كان يقف تحته مباشـــرة. كان زوريتو ينكب فوق حصانه، وكان طول رمحه ينهـــض في زاوية حادة تحت إبطـــه، وكان يحمل الرمح من عند مقدمته تقريباً، وكان يلقي بكامل ثقله على الرمح كي يصد الثور بينما كان الثور يحاول جاهداً أن يصل إلى الحصان. لكن زوريتو كان منكبـــاً نحو الأمام فوق الثور ويصده ويصده حتى اســـتطاع أخيراً، رغم الضغط، أن يدير رأس الحصان ويخلصه من الثور. شـــعر زوريتو أن الحصان قد أصبح في مأمن وأن الثور يستطيع أن يتخطـــاه، لذلك خفـــف من مقاومته الفولاذيـــة التي لا تلين،

ففغـاص رأس رمحه الفولاذي المثلث في كتلة العضلات بين كتفي الثـور عندما انطلق ليجـد إزار هيرنانديز أمـام خطمه. هجم كالأعمى على الإزار فاستدرجه الغلام إلى الحلبة المفتوحة.

توقـف زوريتو يُرَبِّت على حصانه ويراقـب الثور وهو يهجم على الإزار الذي يهزُّه له هيرنانديز تحت الضوء السـاطع بينما الجمهور يصيح.

«هل رأيت؟» قال لمانويل.

«كان رائعاً»، قال مانويل.

«لقـد نلت منه»، قال زوريتو. «انظر إليه الآن». ما إن تخطى الثور الإزار، بعد أن كاد يمزقه، حتى انزلق واقعاً على ركبتيه. لكنه نهض في الحال، وشاهد مانويل وزوريتو، من موقعه على الطرف الآخر للرمل، لمعانَ الدم المتدفق على كتِف الثور الأسود.

«لقد نلت منه من أول مرة»، قال زوريتو.

«إنه ثور رائع»، قال مانويل.

«لو أعطوني فرصة أخرى، لَقَتَلْتُهُ»، قال زوريتو.

«سيغيرون الجولات علينا»، قال مانويل.

«انظر إليه الآن»، قال زوريتو.

«علـيَّ أن أذهـب إلى هنـاك»، قال مانويـل وراح يعدو إلى الطرف الآخر من الحلبة حيث كان مسـاعدو البيكادور يقودون حصاناً من لجامه نحو الثور، وكانوا يضربونه بالعصي وسـواها علـى أرجله، يحاولون الواحد تلو الآخـر أن يضعوه في مواجهة الثـور الذي كان يقف مطأطئ الرأس ويحرث الأرض بقـائمتيه، لا يعرف إن كان عليه أن يهجم أو لا.

كان زوريتــو ينتظــر على صهوة حصانه، يراقب كل شــاردة وواردة، فقطب جبينه وقاد حصانه نحو المشهد.

أخيراً هجم الثور، فهرب مســاعدو البيكادور نحو الحاجز، وأخطــأ البيكادور هدفه، فاندسَّ الثــور تحت الحصان ثم رفعه وقذفه على ظهره.

ظل زوريتو يراقب. هُرع المســاعدون ذوو القمصان الحمراء لإخلاء البيكادور. نهض البيكادور على قدميه وراح يشــتُم ويلوح بذراعيــه. كان مانويل وهيرنانديز يقفان على أُهبة الاســتعداد بإزارَيْهما. وكان الثور الأســود الهائــل يحمل على ظهره حصاناً تتدلــى حوافره على جانبيه ولجامُه عالــقٌ في قرنيه. كان الثور الأسود يحمل حصاناً على ظهره، فيتمايل على قوائمه القصيرة، ثم تتقوَّس رقبته، ثم يرفــع ويدفع ويهجم كي يُنزل الحصان عن كاهلــه، وينزلق الحصان أرضاً. بعدها يهجم الثور هجوماً عنيفاً على الإزار الذي يبسطه له مانويل.

شــعر مانويل بأن الثور أخذ يتباطأ الآن. كان ينزف بغزارة، وكان الدم الدافق يغطي كامل خاصرته.

بســط له مانويل الإزار مرة أخــرى، فأتى وعيناه المفتوحتان القبيحتان تراقبان الإزار. انتحى مانويل جانباً ورفع ذراعيه وشدَّ الإزار أمام الثور من أجل تمريرة الورنيقة.

أصبح الآن في مواجهة الثور. نعم، راح رأسه يطأطئ قليلاً. صار أخفض مما كان. كان ذلك زوريتو.

خفق مانويــل الإزار، فأتى الثور. تَنَحّى وأدى تمريرة ورنيقة أخرى. خطر لمانويل أن الثور يسدد بدقة متناهية. لقد اكتفى من

القتـــال، لذلك فهو يراقب الآن. إنه يـــروم صيداً. وعينه مُصوَّبةٌ نحوي. لكنه لن ينال مني سوى الإزار.

هز له الإزار، فأتاه الثور صائلاً. لكنه تَنَحّى. كاد يُرّديه أرضاً هذه المرة. لا أريده أن يقترب مني إلى هذه الدرجة.

تبلل طرف الإزار بالدم عندما لامس ظهر الثور وهو يمر.

حسن، هذه آخر واحدة.

كان مانويل يقف في مواجهة الثور، فبسط له الإزار بكلتا يديه، وكان يستدير مع كل هجوم. نظر إليه الثور. كانت عيناه تراقبان، وقرناه مُصوبان نحو الأمام. ظل الثور ينظر إليه مترقباً.

«هيّــا، أيها الثور»، قال مانويل، ثم انحنـــى إلى الوراء، ولوَّح بالإزار أمامه. هاهُوَ يأتي. انتحى جانباً وخطف الإزار إلى خلفه ثم اســـتدار، فراح الثور يدور وراء دوامة الإزار كأنه يطارد سراباً أذهلـــه. بيد واحدة لوَّح مانويل بالإزار تحت خطمه ليرى الجميع أن الثور في حالة ذهول، ثم ابتعد عنه.

لم يكن هناك تصفيق.

عَبَــر مانويـــل الرمـــلَ قاصداً الســـياج، بينما خـــرج زوريتو وحصانـــه خارج الحلبة. انطلق صوت البـــوق إيذاناً ببدء مرحلة غـــرز الســـهام، بينما كان مانويل يتعامل مع الثـــور. لم ينتبه إلى ذلك. كان مســـاعدو البيكادور يغطون الحصانين الميتين بنســـيج القنب وينثرون نشارة الخشب حولهما.

جاء مانويل إلى السياج طالباً شربة ماء. ناوله مساعد ريتانا زِقّاً ثقيلاً ذا مسامات.

كان فوينتس، الغجري الطويل، يقف ماسكاً زوجاً من السهام،

وكان كل سهم عبارة عن عود أحمر رفيع له رأس مدبب كالصنارة. نظر إلى مانويل، فقال له هذا:

«هيا إلى النزال».

ســـار الغجري متبختراً. وضع مانويــل الزق وراح يراقب، ثم مسح وجهه بمنديله.

تنـــاول مراســـل «إل هيرالدو» زجاجة المشـــروب الســـاخنة المنتصبة بين قدميه، فأخذ جرعة منها، وأنهى فقرته:

«لم ينل العجوز مانولو تصفيقاً لسلسلة من الطعنات المبتذلة التي أداها بوساطة إزاره، ثم دخلنا مرحلة التخزيق».

كان الثـــور لا يـــزال يقف مذهـــولاً ووحيداً وســـط الحلبة. ســـار نحوه فوينتس، الغجري الطويل ذو الظهر المســـطح، سيراً متغطرســـاً، مبســـوطَ الذراعين، يحمل برؤوس أصابعه سهمين أحمرين رفيعين مُصَوَّبين نحو الأمام. تقدم فوينتس نحو الأمام. وراءه وإلـــى أحد جانبيه كان يقف خادم يحمـــل إزاراً. نظر إليه الثور وخرج من ذهوله.

راقبت عيناه فوينتس الذي كان متســـمراً مكانه. انحنى نحو الوراء وناداه. هز فوينتس الســـهمين، فإذا برأسيهما الفولاذيين يلتمعان في الضوء ويشدان انتباه الثور.

ارتفع ذيله ثم هجم.

كان هجومه رأســـياً وكانت عيناه مصوبتين نحو الرجل. ظل فوينتس بلا حراك، وينحني إلى الوراء، بينما السهمان مصوَّبان نحو الأمام. وعندما أخفض الثور رأســـه لينطح، انحنى فوينتس نحـــو الخلف، جامعاً ذراعيه، رافعاً إياهما، فتلامســـت قبضتاه،

بينما كان السهمان يبدوان كخطين أحمرين نازلين. انحنى فوينتس نحو الأمام وغرز الرأسين المدببين في كتف الثور، وتمادى في انحنائه فوق قرني الثور، ثم استدار حول السهمين المغروزين المستقيمين، وهو يضم قدميه ضماً وثيقاً ويحني جسده جانباً ليسمح للثور بتجاوزه.

«أحسنت!» صاح الجمهور.

كان الثور مهتاجاً، ويقفز كسمكة سلمون، رافعاً قوائمه الأربع في الهواء. وكانت أعواد السهام تتمايل كلما قفز.

لاحظ مانويل الذي يقف عند السياج أنه دوماً ينظر إلى اليمين.

«قل له أن يصوّب الزوج التالي على الجهة اليمنى»، قال للفتى الذي راح يعدو نحو فوينتس حاملاً إليه السهمين الجديدين.

لامست كتفه يدٌ ثقيلة. إنها يد زوريتو.

«كيف حالك، يا بني؟» سأله.

كان زوريتو يراقب الثور.

مال زوريتو نحو الأمام على السياج، واضعاً ثقل جسده على ذراعيه. التفت إليه مانويل.

«إنك تبلي بلاء حسناً»، قال زوريتو.

هز مانويل رأسه. لم يكن لديه ما يفعله حتى الجولة التالية. كان الغجري راميَ سهام بارعاً. سيأتيه الثور في الجولة التالية على خير ما يرام. كان ثوراً جيداً. الأمر سهل حتى الآن. إن ما يقلقه هو استخدام السيف في المرحلة النهائية. لكنه لم يقلق قلقاً حقيقياً. بل إنه لم يفكر في الأمر. لكن الانتظار جعله ينوء

تحت وطأةِ تَوَجُّــسٍ ثقيل. نظر إلى الثور وهو يُعِدّ العُدَّة للتعامل مع البيــارق الحمراء التي يُنتظر منهــا أن تُخضع الثور وتجعله طَوْعَ بنانِه.

راح الغجري يســير نحو الثور ثانية، وكان يسير مزهواً على عقبيــه ورؤوس أصابعه، كأنه راقص باليه، بينما كان الســهمان يتمايلان مع مشــيته. راح الثور، الذي خرج مــن ذهوله، يراقبه ويتحــين الفرصة لقنصــه، لكنه يريده أن يقتــرب كي ينال منه بالتأكيد ويبقره بقرنيه.

وبينما فوينتس يســير هجم الثور. جرى فوينتس مسافة ربع دائــرة أمام الثــور المهاجم، وعندما تراجع ليُفْسِــح المجال لمرور الثور، توقــف وانكفأ إلى الأمام وهو ينهض على أصابع أقدامه، وذراعاه ممدودتان إلى الأمام، فغرز السهمين في منتصف عقدة عضلات الكتــف الكبيرة في ذات اللحظة التي أخطأ فيها الثور هدفه.

هاج الجمهور وماج.

«لن يطول بقاء هذا الفتى في المباريات الليلية»، قال مساعد ريتانا لزوريتو.

«إنه جيد»، قال زوريتو.

«راقبه الآن».

راقباه معاً.

كان فوينتس يقف وظهره إلى الســياج. كان اثنان من الفريق يقفان خلفه، وكل منهما مستعد لضرب إزاره على السياج لتشتيت انتباه الثور.

كان الثـــور يراقـــب الغجري، مندلعَ اللســـان، منتفخ الجذع. ظن أنه تمكن منه الآن. هناك في الخلف على الألواح الخشـــبية الحمراء. وثبة قصيرة ليس إلا. ظل الثور يراقبه.

انحنى الغجري إلى الوراء، ثم سحب ذراعيه إلى الوراء أيضاً، موجهاً سهميه نحو الثور. نادى على الثور، وخبط الأرض بإحدى قدميه. كان الثور متوجساً. كان يريد الرجل مزيداً من الطعنات في الكتف.

اقتـــرب فوينتس مـــن الثور قليلاً، وهو محنـــي الظهر. ناداه ثانية. أطلق واحدٌ من الجمهور تحذيراً.

«إنه قريب جداً»، قال زوريتو.

«انظر إليه»، قال مساعد ريتانا.

ظل فوينتس منحنياً نحو الوراء وهو يســـتفز الثور بســـهميه، ثـــم قفز رافعاً كلتا قدميه عـــن الأرض. ولما قفز ارتفع ذيل الثور فهجم. حـــطَّ فوينتس على أصابع قدميـــه، وذراعاه ممدودتان، وجســـده يتقوس نحو الأمام، ثم غرز الســـهمين بسرعة وخطف نفسه مبتعداً عن قرن الثور الأيمن.

ارتطم الثور بالسياج الذي استدرجته إليه الإزارات المُطوحة التي شتتت انتباهه عن الرجل.

جاء الغجري يعدو، محاذياً السياج، باتجاه مانويل والجمهور يصفق له. كانت ســـترته ممزقة، إذ لم تنجُ تماماً من قرن الثور. لقد أســـعده هذا الأمر، فـــراح يُريها للمتفرجـــين، وهو يطوف بالحلبـــة. رآه زوريتـــو يمر من أمامه مبتســـماً، وهو يشـــير إلى سترته، فابتسم.

كان شـــخص آخر يغرز آخر سهمين، لكن أحداً لم يكن يعيره أي اهتمام.

دس مســـاعد ريتانا عصا في قماش البيرق الأحمر، ثم لفها بالقماش وناولها إلى مانويل من فوق السياج. مد يده في حقيبة السـيوف الجلدية، فأخرج سـيفاً، وناوله إلـى مانويل من فوق السياج، وهو يمسك به من غمده الجلدي. أمسك مانويل السيف من مقبضه الأحمر، ثم استله من الغمد الذي تهاوى متراخياً.

نظـــر إلى زوريتو. رأى الرجل الضخـــم أنه يتصبب عرقاً، فقال له:

«والآن، عليك به، أيها الفتى».

هز مانويل رأسه.

«إنه في أفضل حال»، قال زوريتو.

«تماماً كما تريده»، قال مساعد ريتانا من باب الطمأنة.

أعلــن نافخ البــوق القابع في المؤخرة تحت الســقف إيذاناً ببدء الفصل الأخير، فســار مانويل عبر الحلبة إلى حيث يجلس الرئيس في إحدى المقصورات العليا المظلمة.

في الصف الأمامي من المقاعد تناول مراســل «إل هيرالدو» جــرعة كبيــرة من المشــروب الدافـئ. كان قــد قرر أن الأمــر لا يستحق أن يُكتب عنه قصة مسلسلة وأنه سيكتب عن الموضوع عندما يعود إلى المكتب. فما هي إلا مباراة ليلية. وإن فاته شـــيٌّ، فســيحصل عليه من صحافة الصباح. ثم أخذ جرعة أخرى من المشــروب. كان لديه موعد غرامي في مقهى ماكسيم في الثانية عشرة. فمن يكون هؤلاء المصارعون؟ إنهم أولاد وصعاليك. شلة

من الصعاليك. وضع كرّاساً وورقياً في جيبه، ثم رنا بنظره إلى مانويل الذي كان يقف وحيداً في الحلبة وهو يومئ بقبعته تحيةً إلى مقصورة لا يراها في الساحة المظلمة. كان الثور يقف هادئاً في الحلبة، لا ينظر إلى شيء.

«أهدي هذا الثور إليك، سيدي الرئيس، وإلى أهل مدريد، أعقلِ الناس في الدنيا وأكرمِهم». كان هذا ما قاله مانويل. إنها لازمة معهودة. قالها كلها. كانت طويلة قليلاً بحيث لا تتناسب وهذه المباراة الليلية.

انحنى نحو الظلام، ثم اعتدل، وألقى بقبعته فوق كتفه، وسار نحو الثور، حاملاً البيرق بيساره والسيف بيمينه.

سار مانويل نحو الثور. نظر الثور إليه. وكانت عيناه يقظتين. لاحظ مانويل كيف كانت السهام تتدلى على كتفه اليسرى، وكيف كان الدم يسيل مِدْراراً بفضل طعنات زوريتو. كما لاحظ كيف كانت أقدام الثور. وبينما هو يتقدم، حاملاً البيرق بيساره والسيف بيمينه، ظل يراقب أقدام الثور. لا يستطيع الثور أن يهجم من دون أن يضم أقدامه بعضها إلى بعض. لكنه الآن يتربَّع عليها تَرَبُّعاً كسولاً.

سار نحوه مانويل وهو يراقب أقدامه. هذا أمر لا بأس به. إنه قادر عليه. عليه أن يستدرج الثور لكي يخفض رأسه وهكذا يتمكن من تجاوز قرنيه فيقتله. لم يفكر في أمر السيف، ولا في قتل الثور. كان يفكر في كل أمر على حدة. وكانت الأمور الآتية ثقيلة الوطء عليه. وبينما هو يتقدم ويراقب أقدام الثور، رأى، على التوالي، عينيه، وخطمه المبلل، وقرنيه الواسعين المصوَّبين

نحو الأمـــام. كانت تنطلق من عيني الثور دوائر ضوئية. كانت عيناه تراقبـــان مانويل. أحسَّ أنه ســـينال مـــن هذا الصغيـــر ذي الوجه الأبيض.

كان مانويل يقف بلا حراك، ناشراً البيرق الأحمر بسيفه، وكان يخز القماشة برأس السيف الذي كان يحمله بيساره، فينشرها كأنها شـــراع قارب. انتبه مانويل إلى الطرفـــين المدببين لقرني الثور. كان أحدهما قد تشـــظّى نتيجة الارتطام بالسياج، بينما كان الآخر حاداً كأنه إبرة شَـــيْهَم. بينما كان مانويل ينشـــر البيرق لاحظ أن قاعدة القرن البيضاء ملطخة بالأحمر. وبينما هو يلاحظ هذه الأشياء، لم يحوّل ناظريه عن أقدام الثور. وكان الثور لا ينفكّ يراقبه.

إنـــه في وضع الدفـــاع الآن، قال مانويل في ســـره. إنه يُحْجِم. وعليَّ أن أُخْرِجَه من هذا وأستدرجه لكي يخفض رأسه. لقد أخفض زوريتو رأســـه مرة، لكنه عاد. سينزف عندما أستفزُّه للحركة، وهذا ما سيُخْفِض رأسه.

أمســـك البيرق أمامه وراح يزيده انتشـــاراً بسيفه الذي يحمله بيساره، ونادى على الثور.

نظر الثور إليه.

انحنى إلى الوراء ازدراءً وهزّ البيرق المنشور على آخره.

رأى الثور البيرق وكان ذا لون قرمزي فاقع يسطع تحت الأنوار. انقبضت سيقان الثور.

ها قد أتى: ووش! استدار مانويل عندما انطلق الثور ورفع البيرق ومرّره فوق قرني الثور، ماسِـــحاً ظهره العريض من رأسه حتى ذيله. لقد ذهبت هجمة الثور في الهواء. لم يتزحزح مانويل من مكانه.

وفي نهاية الشـــوط استدار الثور كما يســـتدير قِطٌّ عند زاوية، وصار وجهاً لوجه مع مانويل.

هـــا قد أصبح في وضع الهجوم مرة أخرى. لقد غادره التثاقل. لاحـــظ مانويل كيـــف كان دمٌّ جديدٌ ينحدر ملتمعـــاً على كتف الثور الأسود ويتدفق على ساقه. اســـتل سيفه من البيرق وحمله بيمينه. أمســـك البيرق بيســـاره ومال به نحو الأرض وإلى اليسار، ثم نادى على الثور. انقبضت ســـيقان الثور، وركـــزَّ عينيه على البيرق. هاقد أتى، قال مانويل في سره. يا سلام!

اســـتدار مع الهجوم، مُلَوحاً بالبيرق أمام الثور، وقدماه ثابتتان، وســـيفه يتســـاوق مع انحناءة البيرق وكأنه شـــعلة مـــن لهب تحت المصابيح.

كَرَّ الثور ثانية عندما انتهى الشوط الطبيعي ورفع مانويل البيرق من أجـــل تمريرةِ صدر. ظـــل مانويل ثابت القدم عندمـــا مرّ الثور بمحاذاة صدره تحت البيرق المرفوع. أمال مانويل رأســـه إلى الخلف لكي يتفادى الاصطدام بأعواد السهام. عندما مرَّ الثور لامس جسمُه الأسود الساخن صدر مانويل.

لقـــد اقترب كثيراً، قال مانويل في ســـره. انحنـــى زوريتو فوق السياج وتحدث بســـرعة مع الغجري الذي جاء إلى مانويل مهرولاً، يحمل إزاراً. شـــد زوريتو قبعته إلى الأســـفل ونظـــر إلى مانويل في الحلبة.

ها هُوَ مانويل في مواجهة الثور مرة أخرى، يمسك البيرق على يســـاره بشـــكل منخفض. كان رأس الثور منخفضـــاً وهو يراقب البيرق.

«لو كان بِلمونتي هو الذي يقوم بهذه الأشياء، لَجُنَّ جنونُهم»، قال مساعد ريتانا.

لم يقل زوريتو شيئاً. كان يراقب مانويل في وسط الحلبة.

«من أين أتى المعلم بهذا الشخص؟» سأل مساعد ريتانا.

«من المستشفى»، قال زوريتو.

«وإليه سيعود بطرفة عين»، قال مساعد ريتانا.

التفت إليه زوريتو وقال وهو يشير إلى السياج:

«دُقّ على ذاك».

مالَ مساعد ريتانا إلى الأمام وطرق السياج ثلاث مرات.

«انظر إلى أدائه»، قال زوريتو.

كان مانويل في وسط الحلبة يركع تحت الأنوار في مواجهة الثور، وعندما رفع البيرق بكلتا يديه، رفع الثور ذيله وهجم.

نأى مانويل بجسمه عن الثور المهاجم، ولما كرَّ الثور ثانية لفَّ مانويل البيرق على شكل نصف دائرة جعلت الثور على ركبتيه.

«حقاً، إنه مصارع ثيران عظيم»، قال مساعد ريتانا.

«لا، إنه ليس كذلك».

نهض مانويل حاملاً البيرق بيساره، والسيف بيمينه، وقدم شكره للتصفيق المنطلق من الساحة المظلمة.

نهض الثور متثاقلاً على قدميه، وانتظر وهو مطأطئ الرأس.

تحدث زوريتو إلى اثنين آخرين من فريق الإسناد، فانطلقا ليقفا وراء مانويل، يحمل كلٌّ منهما إزاراً. لقد أصبح وراءه الآن أربعة رجال. كان هيرنانديز قد تبعه منذ أن جاء بالبيرق في

البداية. كان فوينتس يقف منتظراً، يسدل إزاره على جسده، طويل القامة، مسترخياً، يراقب بعينين كسولتين. وعندما جاء هذان، أشار إليهما هيرنانديز أن يقف كل واحد منهما على أحد جانبيه. كان مانويل يقف وحيداً في مواجهة الثور.

أشار مانويل إلى مؤازريه ذوي الإزارات أن يتراجعوا. وبينما هم يتراجعون بحذر، رأوا وجهه شاحباً ويتصبب عرقاً.

ألم يعرفوا أن عليهم أن يظلوا في الخلف؟ هل كانوا يريدون لفت انتباه الثور بإزاراتهم بعد أن أصيب بالذهول وأصبح جاهزاً؟ لقد كان لديه ما يكفيه من الهجوم من دون هذا الأمر.

كان الثور يقف متربعاً على أقدامه الأربعة، وكان ينظر إلى البيرق. لفّ مانويل البيرق بيده اليسرى. وكانت عينا الثور تراقبه. كان جسده ثقيلاً على أقدامه. كان مطأطئ الرأس قليلاً.

رفع مانويل البيرق له، لكن الثور لم يتزحزح. فقط عيناه ظلتا تراقبان.

إنه رصاص كله، قال مانويل في سره. كله زوايا قائمة. إنه في الوضع المناسب. فريسة سهلة.

كانت اللغة التي يفكر فيها مستمدة من حلبة المصارعة. كانت تخطر له في بعض الأحيان خاطرة، لكن التعبير العاجي الخاص لا يحضره فلا يستطيع أن يحقق ما يخطر له. كانت غرائزه ومعارفه تعمل بشكل تلقائي، وكان مخّه يعمل ببطء ومن خلال اللغة. كان يعرف كل شيء عن الثيران. لم يكن في حاجة إلى التفكير بشأنها. لقد كان يؤدي العمل المناسب ليس إلا. كانت

عيناه تلاحظان الأشـياء، وكان جسده يقوم بالإجراءات اللازمة من دون تفكير. فلو فكَّر، لانتهى أمره.

أمَـا وقد أصبح الآن في مواجهة الثـور، فقد كان يعي عدة أشـياء في الوقت نفسـه. فهناك قرنان، واحدٌ مُتَشظٍّ، والآخر حادٌّ أملس، وهو في حاجة إلى أن يضع نفسه في مواجهة القرن الأيسـر، وأن يهجم هجوماً رأسـياً قصيراً، وأن يُخْفِض البيرق ليستدرج به الثور، ثم يُمَرِّرَه فوق القرنين، ليغرز سيفه في نقطة صغيـرة بحجم قطعة الخمس بيزيتات فـي مؤخرة الرقبة عند التقاء الكتفين. عليه أن يقوم بكل هذا ثم يخرج من بين القرنين. كان يدرك أن عليه أن يقوم بكل هذا، لكن فكرته الوحيدة جاءت في كلمتين: «قصير ورأسي».

«قصير ورأسـي»، قال في سـره، وهو يطوي البيرق. قصير ورأسـي. قصير ورأسـي، ثم استل سـيفه من البيرق، واستدار بحيث يضع نفسـه في مواجهة القرن الأيسر المتفتت، ثم أسدل البيرق على جسـده، ورسم إشارة الصليب بيده اليمنى والسيف اللذيـن كانا على مسـتوى نظره، ثم نهض علـى أصابع قدميه، وسدد سيفه على النقطة المرتفعة بين كتفي الثور.

وهكذا كان هجومه على الثور: قصيراً ورأسياً.

حدث اصطدامٌ شـعر بعده بأنه يرتفع في الهواء. وبينما هو يرتفع ثم يهبط كان يدفع سيفه دفعاً، فطار من يده. وما إن حطَّ علـى الأرض، حتـى كان الثور فوقه. ظل مانويل مسـتلقياً على الأرض، وراح يرفـس خطـم الثور بخُفيه. يظـل يرفس ويرفس والثور وراءه، تارةً لا يصيبه لفرط هياجه، وتارة ينطحه برأسـه،

وتــارة يغوص قرناه في الرمال. كان مانويل يحاول أن يُفَوِّت على الثور أي إصابة مباشرة، وكأنه رجل يُنَطِّط كرةً في الهواء.

شعر مانويل بالهواء يلفح ظهره من جراء الإزارات التي تَهتَزُّ في وجه الثور، ثم مضى الثور، مضى فوقه مندفعاً. خيّم الظلام حول مانويل عندما مرَّت بطن الثور من فوقه. لكنه مرّ من فوقه بسلام.

نهــض مانويل والتقط البيرق. ناوله فوينتس السـيف. وكان محنياً بســبب ارتطامه بكتف الثور. قــوَّم مانويل اعوجاجه على ركبتــه وراح يعدو نحــو الثور الذي كان يقــف الآن بجانب أحد الأحصنة الميتة. وبينما كان يعدو راحت ســترته الممزقة من عند إبطه تُطَوِّح وراءه.

«أخرِجْــه من هناك»، صاح مانويــل على الغجري. كان الثور قد شــم رائحة دم الحصــان الميت، فَبَقَرَ غطــاء القنب بقرنيه. هجم على إزار فوينتيس وغطاء القنب يتدلى من قرنه المتشظي، فضحك المتفرجــون. حاول الثور وهو في الحلبة أن يتخلص من الإزار. فجــاء هيرنانديز يعدو من خلفه وأمســك بطرف الإزار وانتزعه ببراعة من قرن الثور.

هجم الثور على الإزار لكنه ما لبث أن توقف تماماً. لقد اتخذ وضعية الدفاع ثانية. سار إليه مانويل بالسيف والبيرق. لوّح إليه مانويل بالبيرق لكنه لم يهجم.

استدار مانويل لمواجهة الثور، ثم سدد بسيفه المتدلي الرأس. ظــل الثور بلا حراك، وكأنــه مات واقفاً، لا يقــوى على هجوم آخر.

نهض مانويل على أصابع قدميه، ثم سدد بسيفه، وهجم.

ومرة أخرى أحس بصدمة ترفعه سريعاً في الهواء، ثم تلقيه على الرمال بلا رحمة. لم يعد الرفس متاحاً هذه المرة. وقف الثور فوقــه. رقد مانويل كالميِّت، ورأســه على ذراعيه، والثور ينطحه. كان ينطحــه في ظهره، ويدفن وجهه فــي الرمال. أحس بالقرن وهو يخترق الرمل بين ذراعيه المطويتين. أصابه الثور في أســفل ظهــره. غاص وجهه في الرمل. اخترق القرنُ أحَدَ كُميَّةٌ فتمزق. أُبْعِد مانويل وراح الثور يطارد الإزارات.

نهض مانويل، وجد الســيف والبيرق. تحسس رأس السيف بإبهامه، ثم هُرِع إلى السياج طالباً سيفاً جديداً.

ناوله مساعد ريتانا السيف من فوق السياج، وقال له:

«امسح وجهك».

عــاد مانويل راكضاً صوب الثور، وهو يمســح وجهه المدمى بمنديله. لم يشاهد زوريتو. تُرى، أين ذهب زوريتو؟

ابتعد مساعدو مانويل عن الثور وانتظروا مستعدين بإزاراتهم. وقف الثور متثاقلاً، بطيئاً بعد العراك.

ســار مانويل نحوه حاملاً البيرق. توقــف ثم هز البيرق. لم تبدر من الثور أي اســتجابة. هزّه أمــام خطم الثور ذات اليمين وذات الشمال مرتين. كانت عيناه تراقبان البيرق وتلتفتان مع كل تطويحة، لكن من غير هجوم. كان ينتظر مانويل.

بــدأ مانويل يقلق. ليس أمامه من خيار ســوى الانقضاض: قصيراً ورأســياً. اقترب من الثور، رســم إشــارة الصليب أمام جســده بالبيرق، ثم انقض. ولما غرز السيف، خطف جسده نحو

اليســـار لكي يبتعد عـــن القرن. تخطاه الثور وطار الســـيف في الهواء، يلتمع تحت أنوار المصابيح، ليســـقط على الرمل بمقبضه الأحمر.

أســـرع مانويل والتقطه. وجده محنياً، فعدّل اعوجاجه على ركبته.

وبينمـــا كان يعدو باتجـــاه الثور، الذي عاد مـــرة أخرى إلى ذهوله، مر بمحاذاة هيرنانديز الواقف مستعداً بإزاره.

«كله عظام»، قال الصبي مشجعاً.

هز مانويل رأســـه، ومســـح وجهه. وضع المنديل الملطخ بالدم في جيبه.

كان الثور يقف قريباً من السياج. اللعنة عليه. ربما يكون كله عظاماً. قد لا يكون فيه موضع واحد يخترقه الســـيف. أيُّ هراء هذا؟ سيثبت لهم عكس ذلك.

طوَّح بالبيرق لكن الثور لم يتزحزح. هزه أمامه، لكن من دون جدوى.

طوى البيرق، واســـتل سيفه، ثم اســـتدار وهجم على الثور. شـــعر أن الســـيف يلتوي عندما غرزه ومال بثقلـــه عليه، ثم طار يتقلّـــب في الهواء لينتهي بـــين الجمهور. كان مانويل قد ابتعد لما رأى السيف يقفز.

لـــم تُصِبْهُ الوســـائد الأولـــى التي قذفها الجمهـــور من بين الظـــلام(١٥٠) بعدها أصابته واحدة فـــي وجهه المدمى الناظر إلى الجمهور. كانت الوســـائد تتوالى عليه ســـريعاً. كأنها نقاط في

---

(١٥٠) قذف الوسائد دلالة على عدم رضا الجمهور عن أداء المصارع [المترجم].

الرمال. قذف أحدهم بزجاجة مشروب فارغة من مسافة قريبة، فأصابت مانويل في قدمه. وقف يراقب الظلام الذي كانت تتهال منه هذه الأشـــياء. بعدئذ اخترق الهواءَ حفيفُ شــيءٍ وقع قريباً منه. مال مانويل عليه والتقطه، فإذا به ســيفه. قوَّمه على ركبته وأومأ به إلى الجمهور، وقال:

«شكراً لكم، شكراً لكم».

إنهم ســفلة قذرون! ســفلة قذرون! أوّاه من هؤلاء الســفلة القذرين! ثم رفس وسادة وهو يعدو.

كان الثــور علـــى حاله كما من قبل. حســـنٌ، أيها الســـافل القذر!

لوّح مانويل بالبيرق أمام خطم الثور الأسود.

لا شيء يحرك هذا الثور.

إذن، لـــن تتحـــرك. لا بأس. اقتربَ من الثــور، وبقوة عنيفة أدخل نتوء البيرق الحاد في خطمه المبلل.

ومـــا إن تراجع وتعثّر بإحدى الوســـائد حتى كان الثور فوقه وقرنه يخترق خاصرته. أمسك القرن بكلتا يديه. كان راكباً على قرن الثور بالمقلوب، ويتمســـك به. قذفـــه الثور وحرره من قرنه. رقد بلا حراك. لا بأس. لقد ولّى الثور.

نهض وهو يسعل ويشعر بالخزي والانكسار. السفلة القذرون!

«أعطوني السيف»، صاح منادياً. «أعطوني العدة».

جاءه فوينتيس بالبيرق والسيف.

طوقه هيرنانديز بذراعه وقال:

«اذهب إلى المستوصف، يا رجل. لا تكن أحمق».

«اغــرب عن وجهـــي»، قال مانويــل. «قلت لـــك اذهب إلى الجحيم». حرر نفسه من ذراع هيرنانديز. هز هيرنانديز بكتفيه. انطلق مانويل يعدو نحو الثور.

كان الثور يقف متثاقلاً، وأقدامه راسخة في الأرض.

لا بأس، أيها الوغد! استل مانويل سيفه من البيرق وسدّد في آن معاً، ثم ألقى بنفسه على الثور. شعر بالسيف ينغرز كله. حتى النصـــل. أربعة أصابع وإبهامه في الثـــور. كان الدم يتدفق حاراً على مفاصل أصابعه، وكان فوق الثور.

ترنح الثور تحته وبدا أنه يتهاوى، فترجَّل عنه. نظر إلى الثور وهو يتهاوى شيئاً فشيئاً على أحد جانبيه، وفجأة انتصبت أقدامٌ أربعة في الهواء.

أومأ إلى الجمهور بيده الدافئة من دم الثور.

حسنٌ، أيها الأوغاد! أراد أن يقول شيئاً، لكنه راح يَسْعُل. كان الجو حاراً وخانقاً. بحث تحته عن البيرق. عليه أن يذهب ويحيّي الرئيس. رئيس الجحيم! جلس يرنو إلى شيء. إلى الثور. وأرجله الأربع في الهواء. ولسانه الغليظ يتدلى. أشياء تتدلى على بطنه وتحت أرجله. تتدلى حيث يخفُّ الشَّــعر. ثور ميت. ليذهب إلى الجحيـــم. ليذهبوا جميعاً إلى الجحيـــم. بدأ ينهض على قدميه وراح يَسْعُل. عاوَدَ الجلوس وهو يَسْعُل. جاء أحدهم وأنهضه.

حملوه من الحلبة إلى المســـتوصف، يركضون به عبر الرمال، وعندمـــا دخلت البغال عبر البوابة ســـدت طريقهم، فالتفّوا من تحـــت المعبر المظلم، وكانوا يلهثـــون عندما حملوه على الدرج، ثم وضعوه أرضاً.

كان الطبيب واثنان يرتديان الأبيض في انتظاره. مدّدوه على المنضدة. راحوا يشـقون قميصه. شـعر مانويل بالإعياء. شعر بصدره يلتهب من الداخل. راح يَسْـعُل، فوضعوا شيئاً على فمه. كان الكل منشغلاً جداً.

كان نورٌ كهربائي في عينيه. أغمض عينيه.

سـمع أحدَهـم وهو يصعد الدرج بتثاقل شـديد. ثم لم يعد يسـمع. ثم سـمع ضجة بعيدة. كان هذا هو الجمهور. حسـن، سـيتوجب على أحدٍ غيره قتل ثوره الآخر. لقد انتهوا من شـق قميصه كله. ابتسم له الطبيب. لقد جاء ريتانا.

«مرحباً، يا ريتانا»، قال مانويل. لم يستطع سماع صوته.

ابتسـم له ريتانا وقال له شـيئاً. لم يستطع مانويل سماع ما قيل له.

كان زوريتو يقف بجانب المنضدة، وكان ينحني ليرى ما يفعله الطبيب. كان يرتدي بزة البيكادور من دون قبعة.

قال له زوريتو شيئاً ما، لكن مانويل لم يسمعه.

تحـدث زوريتو مع ريتانا. ابتسـم أحد الرجلـين في الرداء الأبيض وناول ريتانا مَقصّاً. أعطى ريتانا المقص إلى زوريتو. قال زوريتو شيئاً لمانويل، لكنه لم يسمعه.

اللعنة على منضدة العمليات! لقد مرَّ على كثير من هذه المناضد من قبل، ولن يموت! ولو كان سيموت، لأحضروا القسيس.

كان زوريتو يقول له شيئاً، وهو يمسك بالمقص نحو الأعلى.

إذن، هذا ما كانوا ينوون! كانوا يريدون قص ضفيرته. يريدون قص ضفيرته.

اعتـــدل مانويل في جلســـته على منضدة العمليـــات. ابتعد الطبيب غاضباً. أمسك به أحدهم وثبّته.

وفجأة، سمع صوت زوريتو واضحاً جلياً.

«لا بأس»، قال زوريتو. «لن أفعل. كنت أمزح».

«لقـــد أبليتُ بلاءً حســـناً»، قال مانويل. «لكننـــي كنتُ عاثرَ الحظ. هذا كل ما في الأمر».

استلقى مانويل على ظهره. كانوا قد وضعوا شيئاً على وجهه. لقد مرَّ بكل هذا من قبل. تنفس بعمق. شـــعر بإعياء شديد. لقد كان إعياؤه شديداً. أزاحوا الشيء عن وجهه.

«لقـــد أبليتُ بلاءً حســـناً»، قال مانويل بصـــوت واهن. «لقد أبليتُ بلاء عظيماً».

نظر ريتانا إلى زوريتو واتجه نحو الباب.

«سأبقى معه»، قال زوريتو.

هز ريتانا بكتفيه.

فتح مانويل عينيه ونظر إلى زوريتو.

«ألَمْ أُبْلِ بلاءً حسناً، يا مانوس؟» سأل مانويل طالباً المصادقة على قوله.

«بلا شك»، قال زوريتو. «لقد أبليتَ بلاء عظيماً».

وضع مســـاعد الطبيب القُمع على وجه مانويل، فتنفس هذا بعمق. وقف زوريتو يراقب مرتبكاً.

في بلاد أخرى
[١٩٢٧]

في الخريف ظلت الحرب قائمة كما كانت، لكننا لم نعد نذهب إليها. كان الخريف في ميلانو بارداً وكان الظلام يحل باكراً. كانت المصابيح الكهربائية تُنار، وكان النظر في نوافذ المحلات على الشارع أمراً ممتعاً. كانت واجهة المحلات تزدحم بالصيد البري، وكان الثلج يتسلل إلى فراء الثعالب، وكانت الريح تداعب أذيالها. كانت الغزلان تتدلى متخشبة، وثقيلة، وجوفاء، وكانت الطيور الصغيرة تتطاير في الريح وكانت الريح تُقَلِّب ريشاتها. كان خريفاً بارداً، وكانت الريح تنحدر من الجبال.

كنا نجتمع كلنا في المستشفى عصر كل يوم، وكانت هناك طرق مختلفة للمجيء عبر المدينة إلى المستشفى ساعةَ الغسق. اثنتان من هذه الطرق كانتا بمحاذاة القناة، لكنهما طريقان طويلتان. لكنه لا مناص أبداً من عبور أحد الجسور على إحدى القنوات لدخول المستشفى. وعلى المرء أن يختار واحداً من بين ثلاثة جسور. على واحدٍ من هذه كانت امرأة تبيع الكستناء المحمصة. كان الدفء يلفحك وأنت تقف أمام النار المنطلقة من موقدها الفحمي، وبعدها يلازمك هذا الدفء من خلال حبات الكستناء في جيبك. كان المستشفى قديماً جداً وجميلاً جداً، وكنت تدخل من بوابة، فتعبر باحة لتخرج من بوابة على الطرف الآخر. كانت الجنائز عادة ما تنطلق من الباحة. كانت تقوم خلف المستشفى مقصورات جديدة مبنية من القرميد،

وكنا نجتمع هنـــاك عصر كلّ يوم، وكنا جميعاً في غاية اللباقة ومهتمـــين بما يجري حولنا، وكنا نجلس فـــي تلك الآلات التي غيرت مجرى الأمور كثيراً.

جاءني الطبيب وأنـــا أجلس في آلتي وقال، «ما هي هوايتك المفضلة قبل الحرب؟ هل كنت تمارس رياضة ما؟»

قلت له، «نعم، كرة القدم».

«جيد»، قال. «وستســـتطيع أن تلعب كـــرة القدم مرة أخرى، وخيراً من أي وقت مضى».

لم أكن قادراً على ثني ركبتي، وكانت ســـاقي بلا ربلة وتتدلى بشـــكل مســـتقيم من ركبتي إلى كاحلي، وكان المفروض أن تقوم الآلـــة بثني الركبـــة وتحريكها كما في ركـــوب دراجة ذات ثلاث عجلات. لكنها لم تنثنِ بعد، بل كانت الآلة تترنح عندما نصل إلى نقطة الثني. قال الطبيب، «كل هذا سيزول. أنت شاب محظوظ. وستلعب كرة القدم مرة أخرى مثل الأبطال».

في الآلة التي تلي آلتي كان يقبع ضابط برتبة رائد، وكانت له يـــدٌ صغيرة كأنها يد طفل. غمز لي بعينه عندما فحص الطبيب يده التـــي كانت معلقة بين حزامين جلديين كانا ينطّان ويضربان أصابعه المتخشـــبة، وقال، «وهل ســـأتمكن أنا أيضاً من لعب كرة القدم، سيدي النقيب الطبيب؟» لقد كان مبارزاً عظيماً جداً، بل أعظم مبارز بالسيف في إيطاليا قبل الحرب.

ذهب الطبيـــب إلى مكتبه في غرفـــة خلفية وأحضر صورة تظهـــر يداً كانت قـــد ذبلت فأصبحت بحجم يـــد الرائد تقريباً، وبعـــد أن أُخْضِعت لدورة علاج بالآلة صـــارت أكبر قليلاً من يد

الرائد. أمسك الرائد الصورة بيده السليمة وتأملها ملياً، ثم سأل، «جُرح؟».

«بل حادث في مصنع»، قال الطبيب.

«رائع جداً، رائع جداً»، قال الرائد وأعاد الصورة إلى الطبيب.

«عندك ثقة؟»

«لا»، قال الرائد.

كان ثلاثة شباب في مثل سني تقريباً يأتون يومياً. كانوا جميعاً من ميلانو، كان واحدٌ منهم يريد أن يصبح محامياً، والثاني رسّاماً، والثالث جندياً، وكنا أحياناً، بعد انتهاء جلسات العلاج الآلي، نترافق معاً إلى مقهى «الكهف» الذي كان بجانب الصالة. كنا نختصر الطريق بالمرور من الحي الشيوعي لأننا كنا أربعة. كان الناس يكرهوننا لأننا كنا ضباطا، وكنا نسمع أحدهم ينادي من مقهى «يسقط الضباط!» ونحن نمر. كان شاب خامس يرافقنا أحياناً، وكان يضع على وجهه منديلاً حريرياً أسود لأن أنفه قد جُدِعت وكان وجهه بحاجة إلى ترميم. كان قد ذهب إلى الجبهة من الأكاديمية العسكرية، وجُرح خلال ساعة من وصوله إلى خط الجبهة لأول مرة. رمّموا وجهه، ولكنه كان سليل أسرة عريقة جداً، فلم يستطيعوا أن يعيدوا الأنف إلى ما كانت عليه تماماً. ذهب إلى أمريكا الجنوبية وعمل في أحد المصارف. لكن هذا كان منذ وقت طويل، ولم يكن أيٌّ منا يعلم كيف ستؤول الأمور بعد ذلك. كل ما كنا نعلمه أن الحرب ستظل قائمة، لكننا ما عدنا نذهب إليها.

لقـــد نلنا جميعـــاً ذات الأوســـمة، ما عدا الشـــاب صاحب الضمادة الحريرية الســـوداء على وجهه، حيث لم يطل مكثه في الجبهة ليســـتحق وساماً. كان الشاب الطويل ذو الوجه الشاحب جداً والطامح إلى سلك المحاماة ملازماً في سلاح المغاوير وحاز ثلاثة أوســـمة من النوع الذي لم ننل منه سوى واحد. لقد عايش المـــوت زمناً طويلاً، فأصبح مُنزوياً إلى حـــد ما. لقد كنا جميعاً منزويـــن إلى حد ما، ولم يكن هناك ما يجمع بيننا ســـوى لقائنا عصر كل يوم في المستشـــفى. بيد أننا كنا نشـــعر، ونحن نســـير إلى مقهى «الكهف» عبر حـــارة «الزعران»، أو في الظلام، حيث الأنوار والأغانـــي تنطلق من المقاهي، أو عندمـــا نضطر أحياناً إلى المشـــي في الشارع لأن حشوداً من الرجال والنساء وقفت لنا على الرصيف فلا نستطيع أن نشق طريقنا إلا بشق الأنفس، كنا نشعر أن شيئاً ما قد حدث، فربَطَنا برابطة لا يدرك كُنْهَها هؤلاء الكارهون لنا.

أما نحن فقد فهمنا «الكهف» حيث الترف، والدفء، والاعتدال في الإضاءة الســـاطعة، والضوضاء، والدخان الكثيف في بعض الأحيـــان، والفتيـــات اللواتي يطوفـــن بالطاولات علـــى الدوام، والصحف المصورة المعلقة على مشبك في الجدار. كانت الفتيات فـــي «الكهف» يتفجرن وطنيةً، ولقد وجدت أن أكثر الناس وطنية في إيطاليا هن فتيات المقاهي، وأعتقد أنهن ما زلن كذلك.

كان الشـــبان فـــي البداية لبقين جداً فيما يتعلق بأوســـمتي، وكانوا يســـألونني عما فعلته كي أستحقها. أخرجت لهم الأوراق، التي كانـــت مكتوبة بلغة جميلة جداً وتزدحـــم بعبارات «الأخوة»

و«الإيثار» بيــد أنها، إذا ما حُذِفت النعــوت، كانت في الحقيقة تقول إنني نلتها لأنني أمريكي. تغيرت نظرتهم بعد ذلك تجاهي، رغم أنني بقيت صديقاً لهــم رغم الغرباء. بقيت صديقاً، لكنني في الحقيقة لم أكن واحداً منهم بعد أن قرأوا الإشادة ببطولاتي، حيــث إن الأمر كان مختلفاً معهم، وقد قاموا بأمور مختلفة جداً عمــا قمت به لكي ينالوا أوســمتهم. صحيح أنني جُرِحت، لكننا جميعــاً نعلم أن الجرح في الواقع ليس ســوى حــادث عَرَضي. لم أخجل أبداً من شــرائطي، بل كنت أحيانــاً أتخيل بعد انتهاء ســاعة الكوكتيل أنني فعلت كل ما فعلوه لكي ينالوا أوســمتهم، لكنني عندما أعود ليلاً إلى البيت عبر الشوارع المقفرة والمحلات المغلقة والريح الباردة تلفحني، وأنا ألازم الســير تحت المصابيح، كنت أعلم في قرارة نفســي أنه ما كان في إمكاني قط أن أفعل مثل هذه الأشياء، وأنني كنت شديد الخشية من الموت، وكنت في أغلب الأحيان أســتلقي في فراشــي ليلاً وحدي ومخاوف الموت تتناهبني وأتساءل عما ســتؤول إليه حالي إن عدت إلى الجبهة مرة أخرى.

كان الثلاثــة أصحاب الأوســمة كالصقور الجارحة، ولم أكن صقــراً، مع أنني قد أكون صقراً لأولئك الذين لم يعرفوا الصيد قــط. كان الثلاثة أدرى بحالي، فافترقنــا. لكنني بقيت صديقاً للشــاب الذي أصيب في يومه الأول فــي الجبهة، لأنه ليس في وســعه الآن أن يعرف إلامَ كانت ســتؤول أمــوره، وبالتالي فإنهم ســينبذونه أيضاً، كمــا أنني أحببته لأنني ظننــت أنه لن ينقلب صقراً.

لم يكن الرائد، المبارز العظيم سابقاً، يؤمن بالاستبسال، وقد أمضى جُـلَّ وقته ونحن في الآلات يُصَـوِّب حديثي من الناحية النحويـة. كان قد أثنى علـى حديثي المُتَمَكِّـن بالإيطالية، وكنا نتحدث معا بيسر شـديد. وفي يوم من الأيام قلتُ إن الإيطالية تبدو بالنسبة إلي لغة سهلة تجعلني لا أهتم بها كثيراً، فكل شيء فيها سـهلٌ قوله. «نعم»، قال الرائد. «لماذا، إذن لا تدرس النحو الإيطالي؟» وهكذا بدأنا دراسة النحو الإيطالي، فإذا بالإيطالية لغة عسـيرة جعلتني أخشـى الحديث إليه بها قبل أن أتمكن من قواعد النحو.

كان الرائد يتردد على المستشفى بانتظام شديد. ولا أظن أنه فـوَّت يوماً واحداً، مع أنني على يقـين أنه لم يكن يؤمن بجدوى الآلات. فـي وقت من الأوقـات لم يكن أحدٌ منـا يؤمن بجدوى الآلات، وفـي يـوم من الأيام قـال الرائد إن الأمـر بِرُمَّتِه هُراءٌ بهـراء. كانت الآلات حينهـا جديدة، وكان علينـا نحن أن نثبت جدواها. قـال إنها فكرة غبية، ونظرية مثـل كل النظريات. لم أتعلم القواعد، فقال عني إنني عارٌ على البشرية وغبي لا يطاق، أما عن نفسه فقال إنه كان أحمق حين تورط في هذا الأمر. كان رجلاً صغير الحجم، وكان يجلس بشـكل مسـتقيم في كرسيه، واضعـاً يده اليمنى فـي الآلة، وينظر أمامه إلـى الجدار بينما الحزامان المحيطان بأصابع يده ينتفضان صعوداً وهبوطاً.

«ماذا ستفعل عندما تنتهي الحرب، هذا إن انتهت؟» سألني، ثم أردف قائلاً: «تحدث بشكل نحويٍّ صحيح!».

«سأعود إلى أمريكا».

«هل أنت متزوج؟».

«لا، ولكني آمل أن أتزوج».

«وهــذا دليلٌ آخر على حُمّقِك»، قال لــي. بدا غاضباً جداً. «على الرجل ألاّ يتزوج».

«لماذا، يا سيدي الرائد؟».

«لا تقل لي، سيدي الرائد».

«لماذا على الرجل ألا يتزوج؟»

«لا يمكنه أن يتزوج. لا يمكنه أن يتزوج»، قال بغضب شديد. «إن كان يريد أن يخســر كل شيء، فعليه ألا يضع نفسه في مثل هذا الموضع. عليه ألا يجعل نفسه عُرضة للخسارة. عليه أن يجد أشياء لا يمكنه أن يخسرها».

تحدث بغضب ومرارة شديدين، وكان ينظر أمامه وهو يتحدث.

«ولماذا يخسرها بالضرورة؟».

«سيخســرها»، قال الرائد. كان ينظــر إلى الجدار. ثم نظر إلــى الآلة أمامه وانتزع يده الصغيرة من بين الحزامين، وخبطها بشــدة على فخذه. «سيخســرها»، قال بصوت أشبه بالصراخ. «لا تجادلني!» ثم نادى على المســؤول عن تشــغيل الآلات. «تعال وأطفئ هذه الآلة اللعينة».

توجه إلى الغرفة الأخرى من أجل العلاج الضوئي والتدليك. ثم ســمعته يطلب إلى الطبيب أن يســتخدم هاتفه وأغلق الباب. عندمــا عاد إلى الغرفة، كنت أجلــس في آلة أخرى. كان يرتدي مئــزره وقبعتــه، واتجه مباشــرة نحو آلتي، ووضــع ذراعه على كتفي.

«أنا آسف جداً»، قال وهو يربّت على كتفي بيده السليمة. «لم أقصد أن أسيء الأدب، لكن زوجتي ماتت لتوّها. أرجو أن تسامحني».

«أوه...»، قلت وأنا أشعر بالغثيان من أجله. «بل أنا الذي يأسف جداً».

ظل واقفاً وهو يعض على شفته السفلى. «إنه أمر في غاية الصعوبة»، قال. «لا أستطيع أن أتقبَّل الأمر».

راح يسدد نظراته التي تجاوزتني إلى النافذة التي خلفي. ثم راح يبكي. «لا أستطيع أبداً أن أتقبل الأمر»، قال وهو يَغُصُّ بدموعه. هكذا تخطى الآلات وخرج من الباب باكياً، مرفوعَ الرأس، يحدق في الفراغ، ماشياً بخط مستقيم على شاكلة الجنود، يعض على شفتيه، والدموع تنهمر على خديه.

قال لي الطبيب إن زوجة الرائد، التي كانت في ميعة الصبا ولم يتزوجها إلا بعدما أُخرج من ساحة القتال خروجاً لا عودة عنه، قد توفيت بداء ذات الرئة. لم يَطُل مرضها إلا بضعة أيام. لم يتوقع أحدٌ أنها ستموت. توقف الرائد عن المجيء إلى المستشفى لمدة ثلاثة أيام. بعد ذلك جاء في ميعاده، وهو يرتدي شريطاً أسود على ردن لباسه العسكري. عندما عاد، وجد صوراً كبيرة مؤطرة معلقة على الجدار تُظهِر شتى أنواع الجروح قبل علاجها بالآلات وبعده. أمام الآلة التي يستخدمها الرائد كانت هناك ثلاث صور لأيدٍ كَيَدِهِ فتمَّ ترميمها تماماً. لا أعرف من أين حصل عليها الطبيب. ما كنت أعرفه دوماً هو أننا أول من استخدم هذه الآلات. لم يأبه الرائد كثيراً للصور، لأنه كان يسدد نظراته خارج النافذة.

تلالٌ كَالفيَلَة البيضاء
[١٩٢٧]

كانت التلال الواقعة على الجهة الأخرى من وادي إيبرو بيضاء طويلة. أما في هذه الجهة فلم يكن هناك ظلٌّ ولا أشجار، وكانت المحطة بين خطين من السكك الحديد في الشمس. بلصق المحطة كان ظل المبنى دافئاً، وكانت هناك ستارة مصنوعة من خرز الخيزران مسدلةٌ على الباب المؤدي إلى البار لمنع الذباب من الدخول. جلس الأمريكي والفتاة التي معه إلى مائدة في الظل خارج المبنى. كان الطقس حاراً والقطار السريع الآتي من برشلونة سيصل خلال أربعين دقيقة. كان القطار يتوقف عند هذه المحطة لمدة دقيقتين ثم يواصل سيره إلى مدريد.

«ماذا سنشرب؟» سألت الفتاة بعد أن خلعت قبعتها ووضعتها على المائدة.

«إن الطقس حارٌ جداً»، قال الرجل.

«لنشرب الشراب».

«كأسان من الشراب»، وجه الرجل كلامه عبر الستارة.

«كبيرتان؟» سألتْ امرأة تقف في المدخل.

«نعم، كبيرتان».

جاءت المرأة بكأسين من الشراب وواقيتين من اللباد. وضعت الواقيتين وكأسي الشراب على المائدة ونظرت إلى الرجل والفتاة. كانت نظرات الفتاة تسرح في التلال. كانت التلال بيضاء في الشمس وكانت الأرض الريفية داكنة جافة.

«تبدو كأنها فِيَلَةٌ بيضاء»، قالت الفتاة.

«لم أر فيلاً أبيض قط»، قال الرجل وهو يكرع شرابه[١٤٨].

«ومن أين لك أن تراها؟»

«قد أراها»، قال الرجل. «إن قولكِ هذا لا يبرهن شيئاً».

نظرت الفتاة إلى ستارة الخرز. «لقد رسموا عليها شيئاً. هل تعرف ماذا يقول الرسم؟» سألته.

«أنيس دِل تورو. إنه مشروب».

«هل يمكننا أن نجربه؟»

نادى على النادلة عبر الستارة، فجاءت.

«أربعة ريالات»[١٤٩].

«نريد كأسين من أنيس دِل تورو».

«بالماء؟».

«هل تريدينه بالماء؟»

«لا أعرف»، قالت الفتاة. «هل هو طيب مع الماء؟».

«لا بأس به».

«هل تريده بالماء؟» سألت النادلة.

«نعم، بالماء».

«يشـــبه طعمُه طعمَ السوس»، قالت الفتاة وهي تضع الكأس من يدها.

«هكذا هي الحال مع كل شيء».

---

(١٤٨) لعبـــارة «فيل أبيض» معنى مجازي في الإنجليزية، وهو أن يكون لدى المرء ملك يحتاج إلى رعاية ونفقة كبيرة ولا يعطي ســـوى مردود ضعيف. لذلك يرى بعض النقاد أن شخصيتي القصة تتجادلان حول عملية إجهاض بسبب حمل غير مرغوب فيه [المترجم].

(١٤٩) الريال الإسباني هو ربع بيزيتا [المترجم].

«نعم»، قالت الفتاة. «كل شـــيء له طعم السـوس، ولا سيما الأشياء التي ننتظرها طويلاً، كمشروب الأفسنتين»[١٥٠].

«كفى، كفى!».

«أنت الذي بدأ»، قالت الفتاة. «لقد كنت أتسلى وأستمتع بوقتي».

«حسنٌ، لنحاول أن نستمتع بوقتنا».

«لا بأس. لقد كنت أحاول. لقد قلتَ إن الجبال تبدو كأنها فِيَلَةٌ بيضاء. أليس هذا قولاً ذكياً؟».

«إنه كذلك».

«أردت أن أجرب هذا المشروب الجديد. أليس هذا كل ما نفعله؟ ننظر إلى الأشياء ونجرب المشروبات الجديدة؟».

«أعتقد ذلك»

سرحت الفتاة بنظراتها نحو التلال.

«إنها تلال رائعة»، قالت الفتاة. «إنها في الحقيقة لا تبدو كالفيلة البيضاء. كنت أقصد فقط لون قشرتها كما يبدو من بين الأشجار».

«هل نتناول مشروباً آخر؟».

«لا بأس».

هبت الريح الدافئة، فارتطمت ستارة الخرز بالمائدة.

«الشراب لذيذ وبارد»، قال الرجل.

«إنها رائعة»، قالت الفتاة.

«إنها في الحقيقة عملية بسيطة جداً، يا جيغ»، قال الرجل.

«إنها في الحقيقة ليست عملية على الإطلاق».

---

(١٥٠) الأفسنتين: عشبة تستخدم في صناعة الأدوية الهاضمة والمدرة، كما تدخل أيضا في صناعة مشروب ثقيل باسمها [المترجم].

نظرت الفتاة إلى الأرض التي تقف عليها أرجل الطاولة.

«أعرف أنك لا تمانعين، يا جيغ. إنها لا شـــيء في الحقيقة. إنها تسمح بدخول الهواء فقط».

لم تقل الفتاة شيئاً.

«سـأذهب معك وســأبقى معك دائماً. كل ما هنالك هو أنهم يســمحون بدخول الهواء، وبعدها تســير الأمور بشــكل طبيعي تماماً».

«وماذا سنفعل بعدئذ؟».

«سنكون على ما يرام بعدها. تماماً كما كنا من قبل».

«ما الذي يجعلك تعتقد ذلك؟»

«هذا هو الشــيء الوحيد الذي يكدر عيشــنا. إنه الســبب الوحيد لشقائنا».

نظــرت الفتاة إلى ســتارة الخرز، ثم مدَّت يدها وأمســكت بخيطين من الخرز.

«وأنــت تظن أننا بعدها ســنكون ســعيدين وعلــى خير ما يرام».

«أنا أعلم أننا ســنكون كذلك. لا داعي للخوف. أعرف كثيراً من الناس الذين فعلوها من قبلنا».

«وكذلــك أعرف أنا»، قالــت الفتاة. «وبعدهــا كانوا جميعاً سعداء».

«علــى أي حال»، قــال الرجل، «لا لِزامَ عليــك إن كنت غير راغبة في ذلك. لا أريدك أن تفعلي هذا إن لم تكوني راغبة فيه. لكنني أعلم أنها بمنتهى البساطة».

«وهل هذا حقاً ما تريده أنت؟».

«أعتقد أنها أفضل شيء نفعله. لكنني لا أريدك أن تفعلي إن لم تكوني حقاً راغبة».

«وإن فعلت، هل ستكون سعيداً، وتعود الأمور إلى سابق عهدها وتحبني؟».

«أنا أحبك الآن. وأنت تعلمين أنني أحبك».

«أجل، أعلم. لكنني إن فعلتُ، فهل ستمانع إن قلتُ إن الأشياء تشبه الفِيَلة البيضاء؟».

«بل سأحب مثل هذا القول. أنا أحبه الآن، لكن المشكلة هي أنني لا أستطيع التفكير في مثل هذه الأمور الآن. أنت تعرفينني عندما أصير نهباً للقلق».

«وإن فعلتها، ألن يعاودك القلق أبداً؟».

«لن أقلق بشأن ذلك لأنني أعلم أنها عملية في منتهى البساطة».

«إذن، سأفعل. سأفعل لأنني لا أبالي بنفسي».

«ماذا تقصدين؟».

«لا أبالي بنفسي».

«ولكنني أبالي بك».

«أوه، طبعاً. لكنني لا أبالي بنفسي. وسأفعلها وستكون الأمور بعدها على خير ما يرام».

«لا أريدك أن تفعلي إن كان هذا هو شعورك».

نهضت الفتاة وسارت إلى نهاية المحطة. وعلى الطرف الآخر كانت حقول الحبوب والأشجار تمتد على ضفاف نهر إيبرو.

وخلف النهر في البعيد كانت هناك جبال. عَبَر ظلٌّ سحابةٍ حقلَ الحبوب وشاهدت الفتاةُ النهرَ من بين الأشجار، وقالت:

«وبعدها يمكننا أن نملك كل هذا. ويمكننا أن نملك كل شيء وكل يوم نجعل الأمر أكثر استحالة».

«ماذا قلت؟».

«قلت يمكننا أن نملك كل شيء».

«بإمكاننا أن نملك كل شيء».

«لا، لا يمكننا».

«بإمكاننا أن نملك الدنيا بأكملها».

«بإمكاننا أن نسافر إلى أي مكان نشاء».

«لا، لا يمكننا. لم يعد هذا بوسعنا».

«بل هو كذلك».

«لا، ليس كذلك. متى أخذوا منك شيئاً، فلا تستطيع أن تسترده».

«لكنهم لم يأخذوه».

«سننتظر ونرى».

«هيا، عودي إلى الظل»، قال لها. «يجب ألا تشعري على هذا النحو».

«لا أشعر لا على هذا النحو ولا ذاك. كل ما هنالك هو أنني أعرف كيف هي الأمور».

«لا أريدك أن تفعلي شيئاً لا تريدينه...».

«وليس في هذا ما يضيرني»، قالت له. «أعرف ذلك. هل لنا بكأس أخرى من الشراب؟».

«لا بأس. ولكن عليك أن تدركي...».

«إني أُدرك»، قالت الفتاة. «هلاّ توقفنا عن الحديث؟».

جلسا إلى المائدة وراحت نظرات الفتاة تسرح في التلال الواقعة على الطرف القاحل للوادي، ونظر الرجل إليها وإلى المائدة، وقال:

«عليك أن تدركي أنني لا أريدك أن تفعلي شيئاً لا تريدينه. إنني على استعداد تام لِتَقَبُّل الأمر إن كان هذا الأمر يهمك».

«وأنت، ألا يهمك هذا الأمر؟ بإمكاننا أن نتعايش معه».

«بالطبع، يهمني الأمر، ولكني لا أريد أحداً غيرك. لا أريد أحداً غيرك. كما إنني أعلم أن المسألة في منتهى البساطة».

«نعم، أنت تعلم أن المسألة في منتهى البساطة».

«لا بأس أن تقولي ذلك، لكن هذه هي الحقيقة التي أعلمها».

«هلاّ أسديت لي معروفاً الآن؟».

«أنا رهن إشارتك لأي شيء».

«أرجوك، أرجوك، أرجوك، أرجوك، أرجوك، أرجوك، أرجوك، هلاّ توقفت عن الحديث؟».

لم ينبس ببنت شفة، بل نظر إلى الحقائب بلصق جدار المحطة. وكانت تحمل قسائم من كل الفنادق التي أقاموا فيها.

«لكني لا أريدك أن تفعلي. لست أهتم للأمر كثيراً».

«سأصرخ»، قالت الفتاة.

جاءت النادلة من بين الستائر تحمل كأسين من الشراب ووضعتهما على واقيتَيّ اللباد المبللتين، وقالت: «سيصل القطار خلال خمس دقائق».

«ماذا قالت؟».

«قالت إن القطار سيصل بعد خمس دقائق».

ابتسمت الفتاة للمرأة ابتسامة صافية لتشكرها.

«من الأفضل لي أن أنقل الحقائب إلى الطرف الآخر من المحطة»، قال لها الرجل، فابتسمت له.

«لا بأس. عُد بعد ذلك لنكمل الشراب».

حمل الحقيبتين ودار بهما حول المحطة باتجاه السكة الأخرى. نظر إلى أعلى السكة فلم ير القطار. عاد سائراً عبر الحانة حيث كان الناس المنتظرون يحتسون الشراب. تناول كأساً من «أنيس» ونظر إلى الناس. كانوا جميعاً ينتظرون القطار انتظاراً لا يشوبه قلق. خرج عبر ستارة الخرز. كانت تجلس إلى المائدة، فابتسمت له.

«هل تشعرين بالتحسن»، سألها.

«أنا بخير»، قالت. «ليس فيَّ ما يدعو إلى التساؤل. أنا بخير».

المؤلف في سطور

إرنست همنغواي

● ولد سنة ١٨٩٩ في أوك پارك، في ولاية إلينوي الأمريكية.

● بعد تخرجه في المدرسة الثانوية، عمل صحافيا لمدة ستة أشهر، قبل أن يلتحق بالجبهة الإيطالية بصفة سائق سيارة إسعاف متطوع خلال الحرب العالمية الأولى. ثم حصل على وسامين من الحكومة الإيطالية تقديرا لشجاعته.

● انتقل للعيش في باريس سنة ١٩٢١، حيث انضم إلى مجموعة كتاب المهجر الأمريكان من أمثال غيرترود شتاين وإزرا پاوند. لكنه عاش أيضا في ما بعد في كي وست، في ولاية فلوريدا، وإسبانيا، وكوبا.

● بالإضافة إلى الحرب العالمية الأولى، شهد همنغواي أيضا الحرب اليونانية - التركية، والحرب الأهلية الإسبانية، ثم الحرب العالمية الثانية. وقد استقى موضوعات عددٍ من قصصه ورواياته من هذه التجارب التي عاينها بصفة مراسل حربي.

● نشر عددا كبيرا من الروايات والمجموعات القصصية، وله مسرحية واحدة.

● نال جائزة پولتسر، وهي أرفع جائزة أمريكية أدبية سنة ١٩٥٣، كما منحته الأكاديمية الأمريكية للآداب ميدالية الاستحقاق للرواية. وفي سنة ١٩٥٤ نال جائزة نوبل للآداب.

● كان أسلوبه في السرد الأدبي من نوع السهل الممتنع، حيث يترك شخوصه يعيشون حياتهم ولا يقول عنهم شيئا، بل يجعل أفعالهم هي التي تشي عن دواخلهم. وقد تأثر عدد كبير من الكتاب بهذا الأسلوب.

● تزوج أربع مرات، وكان يعشق الصيد بأنواعه والحياة البرية، ويهوى الملاكمة ومصارعة الثيران. لكنه في السنوات الأخيرة من حياته تكالبت عليه الأمراض، فمات منتحرا سنة ١٩٦١.

المترجم في سطور

د. موسى الحالول

- من مواليد ١٩٦٥، الرقة، الجمهورية العربية السورية.
- درس الأدب الإنجليزي في جامعة حلب، وتخرج فيها سنة ١٩٨٧.
- حصل على الماجستير والدكتوراه في الأدب المقارن من جامعة بنسلفانيا الحكومية، الولايات المتحدة الأمريكية، وتخرج سنة ١٩٩٥.
- درس الأدب الإنجليزي في جامعة تشرين بسورية، ثم في جامعتي جرش والعلوم التطبيقية بالأردن. وهو الآن أستاذ مشارك في جامعة الطائف بالمملكة العربية السعودية.
- نشر عددا من الكتب المترجمة عن الإنجليزية هي: «النبوءة والرونيات: من الأدب الإسكندنافي»، «خفايا ما بعد الحداثة»، «هكذا تكلم الفايكنغ»، «حكايات الهنود الأمريكيين وأساطيرهم»، «حكايات إيسوب» (وهذا الأخير بالاشتراك مع سمر رزق).
- كما ترجم إلى الإنجليزية رواية فخري قعوار، «عنبر الطرشان»، وجزءا من رواية رشيد بوجدرة، «ليليات امرأة آرق».
- له مجموعة قصائد وقصص قصيرة منشورة بالإنجليزية بعنوان: «قواعد جديدة للنظام العالمي الجديد»، وآخر إصداراته كتاب نقدي عن الأدب العربي بعنوان «العربية المعذبة».

المراجع في سطور

د. إسماعيل صافية

- من مواليد سورية ١٩٦١.
- حاصل على الإجازة الجامعية في اللغة الإنجليزية وآدابها، من جامعة دمشق العام ١٩٨٣.
- ماجستير في علم اللغة، وعلم اللغة التطبيقي من جامعة إلينوي - شامبي - بالولايات المتحدة الأمريكية العام ١٩٨٩، ودكتوراه في علم اللغة من الجامعة نفسها العام ١٩٩٢.
- يعمل أستاذا مساعدا في اللغة الإنجليزية، بالجامعة العربية المفتوحة.
- ناشط ومهتم جدا بالبحث العلمي في اللغويات وطرق تدريس اللغة الإنجليزية كلغة أجنبية وكلغة ثانية.
- له عدد من الترجمات والمراجعات مع سلسلة «إبداعات عالمية»، ومجلة «الثقافة العالمية».

إصدارات قادمة

المجموعة القصصية الكاملة

(الجزء الثاني)

لإرنست همنغواي

ترجمة: د. موسى الحالول

مراجعة: د. إسماعيل صافية

(تُرجمت عن الإنجليزية)

ما صدر من هذه السلسلة

318	نون والقلم	تأليف : جلال آل أحمد
319	سيري سامبيجي	تأليف : تشاندرا سيخار كامبار
320	أيام بورمية	تأليف : جورج أورويل
321	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف : ايتالو كالفينو
322	السكرتير الخصوصي	تأليف : ت. س. إليوت
323	قصص برازيلية	تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
324	شذرات من خطاب في العشق	تأليف : رولان بارت
325	لون الماء	تأليف : جيمز ماكبرايد
326	وجهان لحواء	تأليف : أمريتا بريتام
327	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف : اليخاندرو كاسونا
328	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
330	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف : بهرام بيضائي
331	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف : بنانا يوشيموتو
332	الطباخون الأشرار	تأليف : جونتر جراس
	الجرة المكسورة	تأليف : هاينرش فون كلايست
333	شمل تشابه ضائع	تأليف : أندريه شديد
334	حكايات الهنود الأمريكيين وأساطيرهم	تأليف : فلاديمير هلباتش
335	زهرة الصيف	تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
336	طام - طام زنجي	تأليف : ليوبولد سيدار سنغور
337	اليبروح	تأليف : نيكولو ماكيافللي
338	منزل النور	تأليف : جوهر مراد
339	كثبان النمل في السافانا	تأليف : تشنوا أشيبي
340	أناتول وجنون العظمة	تأليف: أرتور شنيتسلر
341	غرام ميتيا	تأليف: إيفان بونين
342	آرنجتدن والحارس الليلي	تأليف: فيمي أوسوفيسان
343	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: تنغ - هسنغ يي
344	مدرسة الدكتاتور	تأليف: إيريش كستنر
345	رسائل عيد الميلاد	تيد هيوز
346	حكايات وخرافات أفريقية (1) الطفل الملك	تأليف: سليمان جيغو ديوب
347	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر
348	حكايات وخرافات أفريقية (2)	تأليف: سليمان جيغو ديوب

صدر من هذه السلسلة

	الأدغال والسهول العشبية تحكي	
349	القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية
350	مسرحيتا: -1 محنة الأخ جيرو -2 تحوُّل الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: أو. هنري
352	مسرحية «أنتيجون»	تأليف: ب. بريشت
353	أجمل حكايات الزن	تأليف: هنري برونل
354	يتبعها فن الهايكو مسرحية «المقهى»	تأليف: لاوشه
355	مسرحيتا: -1 صناعة تاريخ -2 ترجمات	تأليف: برايان فرييل
356	رواية «الشباب»	تأليف: ج. م. كويتزي
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
358	مسرحيتا: -1 تلاميذ الخوف -2 الغزاة	تأليف: إيجون وولف
359	اسمي آرام (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام ساroyان
360	حامل الإكليل (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
361	الصُّــورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروجيك
362	الأيــام الخمسة الأخيـرة لرسول (رواية)	تأليف: تحسين يوجل
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولند)	تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي أندجي ماليشكا ستانيسلاف ليم (ستانيسواف) سوافومير مروچيك
364	سبع نساء... سبع قصص	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: نويل كاورد
366	بالأبيض على الأسود (رواية)	تـألـيـف: رُويـــين دايـڤـيـد غونساليس غاليغو
367	مسرحيتا: -1 سهرة في المقهى -2 موت ممثل مشهور	تأليف: تيان هان
368	إمرأة وحيدة «فروغ فرخزاد وأشعارها» سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان

صدر من هذه السلسلة

369	«الملاح» (مسرحية من الأدب البولندي)	تأليف: ييجي شانيافسكي
370	ليلة التنبؤ (رواية)	تأليف: بول أوستر
371	هذا الجيل المحظوظ (مسرحية)	تأليف: نويل كاورد
372	لا وجود لخصومات صغيرة	تأليف: أمادو همباطي با
373	الليلة التي أمضاها ثورو في السجن (مسرحية)	تأليف: جيروم لورنس وروبرت إي. لي
374	مختارات من الشعر الإيراني الحديث	تأليف: مجموعة من الشعراء الإيرانيين
375	العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)	تأليف: بول بولز
376	العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)	تأليف: بول بولز
377	«الأسيرة» (مختارات من ديوان شعر)	تأليف: فروغ فرخزاد
378	شارع بريك لين (الجزء الأول)	تأليف: مونيكا علي
379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)	تأليف: مونيكا علي
380	الطريق (رواية)	تأليف: كورماك مكارثي
381	مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية	تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك
382	عشيق الصين الشمالية (رواية)	تأليف: مارغريت دوراس

قسيمة الاشتراك

البيان	إبداعات عالمية		مجلة الثقافة العالمية		مجلة عالم الفكر		سلسلة عالم المعرفة	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
المؤسسات داخل الكويت	٢٠	-	١٢	-	١٢	-	٢٥	-
الأفراد داخل الكويت	١٠	-	٦	-	٦	-	١٥	-
المؤسسات في دول الخليج العربي	٢٤	-	١٦	-	١٦	-	٣٠	-
الأفراد في دول الخليج العربي	١٢	-	٨	-	٨	-	١٧	-
المؤسسات في الدول العربية الأخرى	-	٥٠	-	٣٠	-	٢٠	-	٥٠
الأفراد في الدول العربية الأخرى	-	٢٥	-	١٥	-	١٠	-	٢٥
المؤسسات خارج الوطن العربي	-	١٠٠	-	٥٠	-	٤٠	-	١٠٠
الأفراد خارج الوطن العربي	-	٥٠	-	٢٥	-	٢٠	-	٥٠

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ **تجديد اشتراك** ☐

الاسم:	
العنوان:	
اسم المطبوعة:	**مدة الاشتراك:**
المبلغ المرسل:	**نقداً/ شيك رقم:**
التوقيع:	**التاريخ: / / ٢٠٠م**

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت.

وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

أسماء وكلاء التوزيع

الكويت:
شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع
الشويخ - المنطقة التجارية الحرة - شارع الموفنبيك -
مبنى رقم D14 الدور الأول
ص. ب ٢٩١٢٦ - الرمز البريدي ١٣١٥٠
ت ٠٠٩٦٥٢٤٦١٣٥٣٥ فاكس ٠٠٩٦٥٢٤٦١٣٥٣٦

الإمارات:
شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع
دبي، ت: ٩٧١٤٢٦٦٦١١٥ - فاكس: ٢٦٦٦١١٢٦
ص. ب ٦٠٤٩٩ دبي

السعودية:
الشركة السعودية للتوزيع
الإدارة العامة - شارع الملك فهد (الستين سابقا) - ص. ب ١٣١٩٥
جدة ٢١٤٩٣ ت ٦٥٣٠٩٠٩ - فاكس ٦٥٣٣١٩١

سورية:
المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
سوريا - دمشق ص.ب (٩٦٣١)١٢٠٣٥
ت - ٢١٢٧٧٩٧ فاكس ٢١٢٢٥٣٢

مصر:
دار الأخبار للتوزيع
شارع الجلاء رقم ٦ - القاهرة
ت - ٥٨٠٦٤٠٠ فاكس ٥٧٨٢٦٣٢

المغرب:
الشركة العربية الأفريقية للتوزيع والنشر والصحافة (سبريس)
زنقة سجلماسة الدار البيضاء ٧٠
ت ٢٢٢٤٩٢٠٠ فاكس (٢١٢) ٢٢٢٤٩٢١٤

تونس:
الشركة التونسية للصحافة
تونس - ص. ب ٤٤٢٢
ت - ٣٢٢٤٩٩ فاكس - ٣٢٣٠٠٤ (٢١٦٧١)

لبنان:
شركة الشرق الأوسط للتوزيع
ص. ب ١١/٦٤٠٠ بيروت ١١٠٠١/٢٢٢٠
ت - ٤٨٧٩٩٩ فاكس - (٩٦١١) ٤٨٨٨٨٢

اليمن:
القائد للتوزيع والنشر - ص. ب ٣٠٨٤
ت - ٣/٢/٣٢٠١٩٠١ فاكس (٩٦٧) ٧/٣٢٠١٩٠٩

الأردن:
وكالة التوزيع الأردنية
عمان ص.ب ٣٧٥ عمان - ١١١١٨
ت - ٥٣٥٨٨٥٥ فاكس (٩٦٢٦) ٥٣٣٧٧٣٣

البحرين:
مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف
ص. ب ٢٢٤/ المنامة - البحرين
ت ٢٩٤٠٠٠ - فاكس (٩٧٣) ٢٩٠٥٨٠

عمان:
المتحدة لخدمة وسائل الإعلام
مسقط ص. ب ٣٣٠٥ - روي الرمز البريدي ١١٢
ت ٧٠٠٨٩٦ - ٧٨٨٣٤٤ فاكس ٧٠٦٥١٢

قطر:
دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع
الدوحة ص. ب ٣٤٨٨ - قطر
ت ٤٦٦١٦٩٥ فاكس (٩٧٤) ٤٦٦١٨٦٥

فلسطين:
وكالة الشرق الأوسط للتوزيع
القدس/ شارع صلاح الدين ١٩
ص. ب ١٩٠٩٨ ت ٢٣٤٣٩٥٤ فاكس ٢٣٤٣٩٥٥

السودان:
مركز الدراسات السودانية
الخرطوم ص. ب ١٤٤١ ت ٤٨٨٦٣١ (٢٤٩١١)
فاكس ٣٦٢١٥٩ (٢٤٩١٣)

نيويورك:
MEDIA MARKETING RESEARCHING
25 - 2551 SI AVENUE LONG ISLAND CITY
NY - 11101 TEL - 4725488
FAX 1718 - 4725493

لندن:
UNIVERSAL PRESSؤ MARKETING LIMITED
POWER ROAD. LONDON W 4SPY
TEL 020 8742 3344
FAX: 2081421280

سلسلة إبداعات عالمية

«إبداعات عالمية» سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، وكانت في السابق تصدر - شهريا - عن وزارة الإعلام تحت اسم سلسلة «من المسرح العالمي» حتى بعد انضمامها إلى المجلس الوطني العام ١٩٩٤، وكانت تعنى بنشر المسرحيات العالمية فقط.

وقد صدر العدد الأول من سلسلة «من المسرح العالمي» في أكتوبر ١٩٦٩، تحت عنوان مسرحية «سمك عسير الهضم»، تأليف: مانويل جاليتش، وبعد تغيير مسماها إلى سلسلة «إبداعات عالمية» العام ١٩٩٨، أصبحت تعنى بنشر الترجمات الإبداعية الراقية من لغات مختلفة، وتنطلق أهداف السلسلة (إبداعات عالمية) من فلسفتها في نشر الوعي الثقافي القائم على التراث الإنساني، من خلال نشر وتقديم ترجمات رصينة من الآداب العالمية، من روايات وقصص قصيرة ودواوين شعر ومسرحيات... وغيرها، من لغاتها الأصلية، بهدف تزويد المكتبة العربية بآثار هذه الثقافات المختلفة.

وترحب السلسلة باقتراحات النشر والترجمة المقدمة من المتخصصين، على أن تكون وفق الشروط التالية:

١ - أن تكون المادة المقترح ترجمتها مميزة في المستوى الفكري والأدبي الرفيع، ولم يسبق نشرها في أي مكان آخر.

٢ - يجب ألا يزيد حجم المادة على ٣٥٠ صفحة من القطع المتوسط، وأن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدواه.

٣ - يجب تقديم النص الأدبي المقترح نشره، أو ترجمته مع الكتاب في لغته الأصلية، ويرسل مطبوعا على الآلة الكاتبة مع وضع نسخة من النص المترجم في ديسك أو CD، مع تدوين أرقام صفحات الكتاب الأصلي المقابلة للنص المترجم على جانب الصفحة المترجمة.

٤ - السلسلة غير مسؤولة عن إعادة الكتب الأجنبية والنصوص الأصلية أو المترجمة التي لا يتم قبولها.

٥ - المواد المقدمة للنشر أو الترجمة تخضع للتحكيم العلمي على نحو سري من قبل هيئة تحرير السلسلة، ويجري إرجاع النصوص إلى أصحابها لإجراء التعديلات أو الإضافات اللازمة عليها قبل نشرها، كما يجب ألا تحتوي النصوص على عبارات منافية للدين أو الأخلاق.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع المترجم للنشر تصرف مكافأة للمترجم بمعدل ٢٠ فلسا عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي.

وفي جميع الحالات ينبغي إرسال سيرة ذاتية وافية (C.V) للمترجم، تتضمن البيانات الرئيسية عن نشاطه الأدبي السابق، وعنوان المراسلة التقليدي والإلكتروني، واسمه الثلاثي باللغة الإنجليزية حسب جواز سفره، بالإضافة إلى كتابة اسم البنك الذي يتعامل معه ورقم حسابه الذي ستحول المكافأة عليه.

الفهرس

مقدمة 5
مقدمة المؤلف 27
حياة فرانسس ماكومبر السعيدة القصيرة 31
عاصمة الدنيا 80
ثلوج كليمنجارو 99
عجوز عند الجسر 137
على رصيف الميناء في إزمير 141
المخيم الهندي 145
الطبيب وزوجته 153
نهاية شيء 161
ثلاثة أيام من الهبوب 169
المحارب 186
قصة قصيرة جدا 201
بيت جندي 205
الثائر 217
السيد إليوت وزوجته 220
قطة تحت المطر 226
قبل الأوان 232
ثلج للتزلج 243
والدي 254
نهر كبير له قلبان: الجزء الأول 275
نهر كبير له قلبان: الجزء الثاني 290
الصامد 307
في بلاد أخرى 352
تلال كالفيلة البيضاء 360

المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب

إبداعات عالمية

المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي
(الجزء الأول)

نقدم للقارئ الكريم في هذا العدد الجزء الأول من المجموعة القصصية الكاملة للكاتب والروائي الإنجليزي الشهير «إرنست همنغواي»، فهذا العدد يحتوي على نحو ٢٣ قصة، مختلفة في ترتيبها الزمني.

لقد عُرف همنغواي في الأوساط الفنية العربية برواياته الشهيرة جدا كرواية «الشيخ والبحر» (١٩٥٢) و«وداعا للسلاح» (١٩٢٩). ولكن القارئ العربي لم يعرفه من خلال قصصه الكثيرة والشهيرة كما عرفته الأوساط الفنية الأخرى ووصفته بعملاق من عمالقة الأدب في القرن العشرين، حيث حاز عددا من الأوسمة العسكرية والجوائز الأدبية الرفيعة في ذلك الزمان ومنها جائزة نوبل للآداب في العام ١٩٥٤؛ لإتقانه فن السرد في روايته المعروفة «الشيخ والبحر».

ولد همنغواي وتوفي في أمريكا (١٨٩٩ - ١٩٦١) وقد كان يعمل بالإضافة إلى كتابته القصص والروايات والقصائد والرسائل والمسرحيات ونصوصا أدبية أخرى، مراسلا صحافيا في ميادين المعارك والحروب، فقد ضحى بنصف حياته في سبيل إرسال التقارير الصحافية من جبهات القتال العنيفة في الحربين العالميتين وحروب أخرى، إلى مقر عمله في صحف مختلفة عمل بها في فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية وغيرهما.

لقد طعّم همنغواي قصصه ورواياته ونصوصه الأدبية الأخرى بعدة مفردات رياضية كمصارعة الثيران ومصطلحات لأنشطة أخرى كان قد مارسها في حياته، كالرهانات وصيد السمك والتزلج على الجليد وصيد الحيوانات البرية، ومعظم هذه المفردات والمصطلحات كانت بلغات عدة - إضافة إلى لغته الإنجليزية - كالألمانية والإسبانية والإيطالية والفرنسية، وذلك طبيعي بالنسبة إلى أديب مثله تنقل بين تلك الدول الأربع في معظم سني حياته الزاخرة بالسعادة والتعاسة.

ومن الملاحظ أن هناك بعض الأعمال الأدبية قد جُمعت ونقحت بعد وفاته (منتحرا)، ثم نُشرت في وقت لاحق ضمن مجموعته القصصية الكاملة، وهناك مشروع ضخم لنشر رسائل همنغواي في عدة مجلدات، تقوم على إعداده - في الوقت الحالي - جامعة بنسلفانيا الحكومية ومؤسسة إرنست همنغواي.

وفي النهاية نتمنى أن تستمتع أيها القارئ الكريم بهذه المجموعة القصصية الكاملة في جزئها الأول لهذا الأديب العظيم.

رقم الإيداع: ٢٠١٠/٠٠٨
ردمك: ١-٧٠٣-٠-٩٩٩٠٦